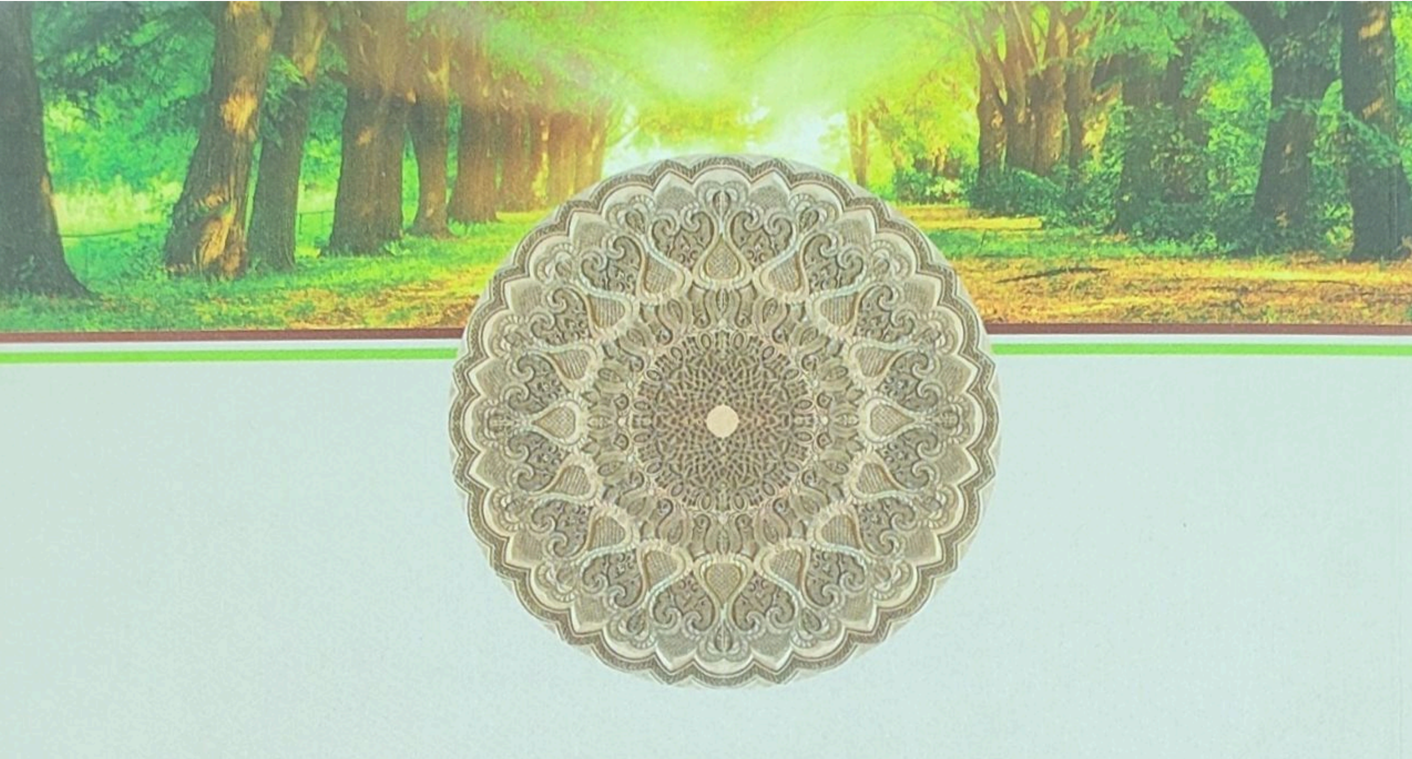
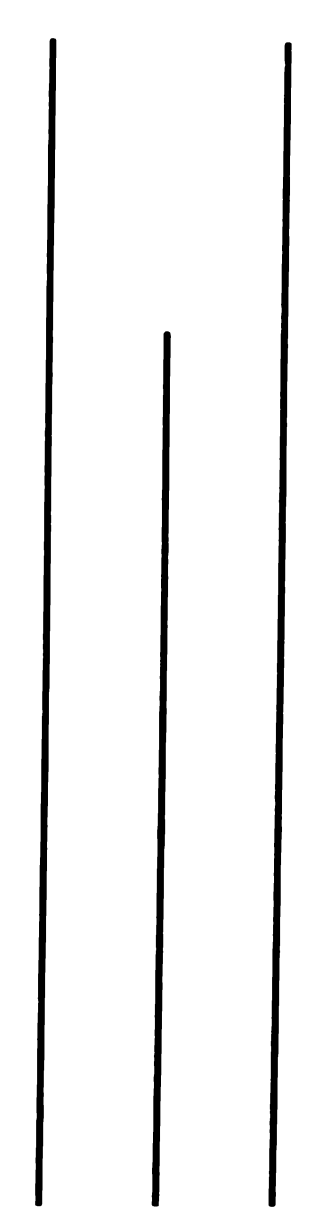


الطَّريقُ إلى السَّعادة والقيادة

لِلدُّول والمجتمعاتِ الإسلاميَّة الحُرَّة

لِلعلَّامة الإمامِ السَّيِّد أبي الحسن علي الحسني النَّدويّ

دار ابن كثير



الطريق إلى السعادة والقيادة

للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة

○ الموضوع: ثقافة إسلامية

العنوان: الطريق إلى السعادة والقيادة

تأليف: الشيخ أبي الحسن الندوي

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

ISBN 978-614-415-073-3



○ الطباعة والتجليد: ملكي برنت

○ الورق: أبيض / الطباعة: لون واحد / التجليد: غلاف

○ القياس: ١٤×٢٠ / عدد الصفحات: ٢٥٦ / الوزن: ٤٥٠ غ

دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سوريا - ص.ب : ٣١١

حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي - صالة المبيعات تلفاكس: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠

الإدارة تلفاكس: ٢٢٤٣٥٠٢ - ٢٢٥٨٥٤١

بيروت - لبنان - ص.ب : ١١٣/٦٣١٨

برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة - تلفاكس : ٨١٧٨٥٧ ٠١ - جوال : ٢٠٤٤٥٩ ٠٣

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

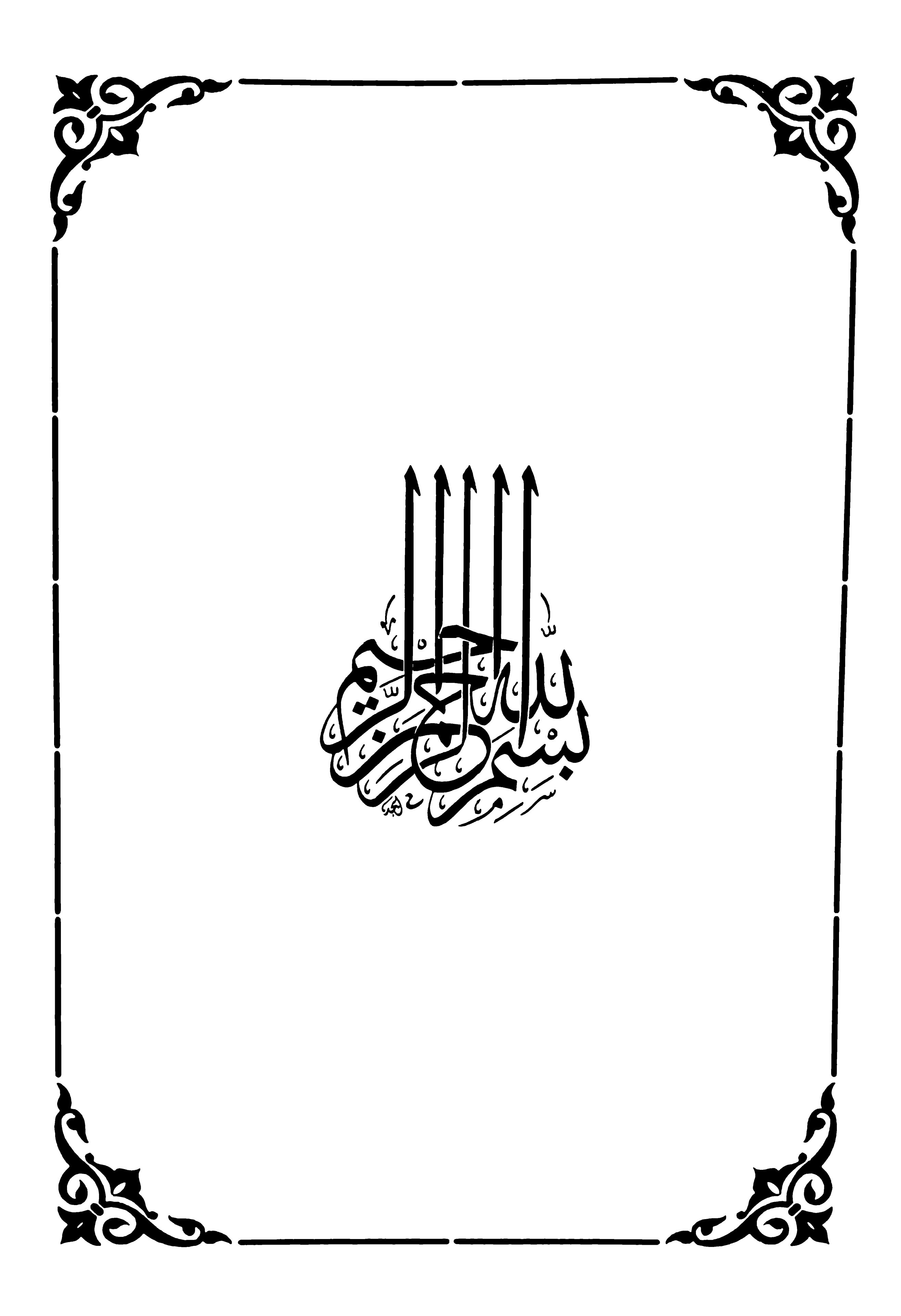
الطَّريقُ

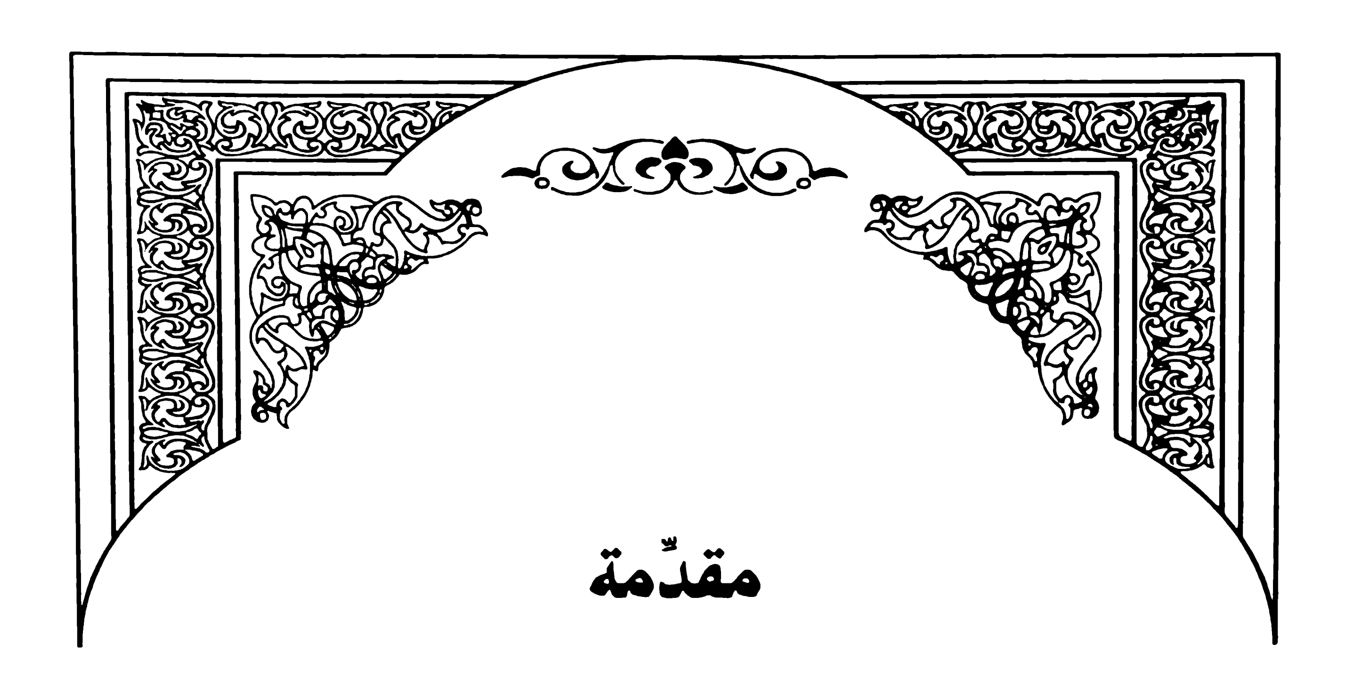
إلى السَّعادةِ والقيادةِ

للدُّول والمجتمعاتِ الإسلاميَّة الحُرَّة

للعلَّامة الإمام السَّيِّد أَبي الحسَن علي الحسني النَّدويّ







مقدّمة

بقلم : الأستاذ المرحوم محمد الحسني

رئيس تحرير مجلَّة البعث الإسلاميِّ سابقاً

هٰذا الكتاب الذي بين يدي القرَّاء هو مجموع المحاضرات القيِّمة ؛ التي ألقاها عمِّي العظيم سماحة الشَّيخ أبي الحسن النَّدويُّ عند زيارته لباكستان حضوراً في المؤتمر الإسلاميِّ الآسيويِّ الأوَّل الذي عقدته رابطةُ العالم الإسلاميِّ بمكَّة المكرَّمة ، بكراتشي في ٦ ، ٧ ، ٨ / يوليو / (١٩٧٨م) .

إنَّ هٰذه المحاضرات تضرب علىٰ الوتر الحسَّاس ، وتحرِّك القلوب ، وتنير العقول ، وترسل الضَّوء علىٰ الطَّريق ، وتبعث علىٰ التَّفكير من جديدٍ في قضايا الإسلام ، والمسلمين ، والتَّربية ، والتعليم .

وقد أُتيح لسماحة الشَّيخ النَّدويِّ أن يزور العالم الإسلاميَّ من أقصاه إلىٰ أقصاه مرَّةً بعد مرَّةٍ ، واستطاع أن يراه ، ويدرس أحواله عن كثبٍ ، وقد صارح في كلِّ بلدٍ من البلاد الإسلاميَّة الَّتي زارها أبناءه الَّذين يحملون قلوباً خفَّاقةً ، وضمائر حيَّةً متألِّمةً علىٰ وضعه الفاسد المبكي ، وقد أشاد بالمحاسن ، وشجَّع الخطوات الإيجابيَّة البنَّاءة ، ووضع الإصبع علىٰ الأدواء الَّتي تنخر كيانه .

وقد وفق أن يتشرَّف أوَّلاً ـ في بداية المطاف ـ بزيارة الحجاز ، الذي هو مهد الإسلام ، ومهبط الوحي ، والقرآن ، وأرض اليقين ، والإيمان ، والحبِّ ، والحنان ، ومهوىٰ أفئدة المسلمين ، ومرمىٰ أبصارهم في أرجاء المعمورة ، فألقىٰ فيه محاضراتٍ بعنوان : « بين العالم وجزيرة العرب » أذاعتها الإذاعة السُّعودية ، ثم زار مصر في أوائل عام (١٩٥١م) ، فكتب مقالاً بليغاً قويّاً يخاطب فيه مصر الإسلاميَّة ، ويمسُّ قلبها ، طبع مراراً بعنوان : « اسمعي يا مصر ! » وزار سورية فتحدَّث إليها بعنوان : « اسمعي يا سورية ! » ، وباح إليها بما يجيش في قلبه من أحزانٍ ، وآلامٍ ، وآمالٍ ، وأمانٍ ، وزار الكويت ، فخاطبها بعنوان : « اسمعي يا زهرة الصَّحراء ! » وحلب لها شطري الحقائق : الحلوَ ، والمرَّ ، وزار إيران ،

ففاتحها بعنوان : « اسمعي يا إيران ! » ، وزار المغرب الأقصىٰ ، فخاطب أهله الفضلاء ، وأبناءه البررة في مقاله : « نحن الآن في المغرب » ، وزار أوربا ، فتحدَّث إليها من المستوىٰ العليِّ ، والقمَّة الشامخة ـ شأن المؤمن الواعي المدرك للحقيقة ـ بعنوان : « حديث مع الغرب » ، وزار أمريكا ، فناداها بعنوان : « أحاديث صريحةٌ في أمريكا » ، ودلَّ علىٰ الأخطار الَّتي تهدِّد النوع البشريَّ ، وذكَّر الجاليات الإسلاميَّة ، وأبناء الإسلام الَّذين يعيشون في أمريكا ، أو يقيمون فيها لتحصيل العلوم ، والثقافة ، أو لتحصيل ذات اليد درسهم الأصيل ، ومسؤوليتهم الأساسيَّة ورسالتهم المشرفة . . . لٰكنَّه ظلَّ يشكو بلسان الحال علىٰ لسان الشَّاعر الفارسي :

« ما بُحت إليكم إلاَّ بشيءٍ قليلٍ من أشجاني ، وآلامي ، ورغم ذٰلك أخاف أن يسوءكم قولي ، ويؤذيكم شكواي ، وإلاَّ فإنَّ الحديث ذو شجونٍ ، وفنون » .

ومن عجيب الصُّدفة : أنَّ دولةً مسلمةً مجاورةً للهند ـ أعني : باكستان التي يصحُّ فيها أن نقول : إنها تقع علىٰ غلوةٍ منَّا ، كما يقول فصحاء العرب ـ بقيت محرومةً حتَّىٰ الآن من هٰذه السِّلسلة الذَّهبيَّة « للإسمعيات » حتىٰ أتاح ٱلله للشَّيخ النَّدويِّ عند انعقاد المؤتمر الإسلامي الآسيوي الأوَّل أن يؤدِّي

بعض مسئولياته نحو هٰذه الدَّولة المسلمة ، وقد عرَّج علىٰ باكستان في عودته من المدينة المنوَّرة ، حيث حضر دورات المجلس الأعلىٰ للجامعة الإسلاميَّة ، وربما كان لنجاح زيارة باكستان ، وتأثيرها ، ونجاحها نصيبٌ كبيرٌ لهٰذه الزيارة المشرفة للمدينة المنوَّرة ، وقضاء بعض الوقت في رحاب الحرم المكِّي .

وقد كانت زيارة باكستان في الوقت الذي تمرُّ فيه بمرحلةٍ دقيقةٍ حرجةٍ ، وتقوم علىٰ منعطفٍ حسَّاسٍ ، إنَّ أرضها حرمت ـ طوال مدَّة ثلاثين عاماً ـ القيادة الإسلامية الرشيدة ، وتطبيق الشَّريعة الإسلاميَّة التي كانت لها بمنزلة ماء الحياة ، وبقيت متعطشةً إليها ، ولٰكنَّه لم تتمَّ قطُّ محاولةٌ جادَّةٌ لصوغ المجتمع الباكستاني في قالب التعاليم الإسلاميَّة ؛ حتىٰ جاء أوانها في قيادة الرَّئيس ضياء الحقِّ .

إنَّ النِّداء الذي أرسله الشَّيخ النَّدويُّ من خلال هٰذه المحاضرات التي أسماها بـ : « حديث باكستان » يخاطب كلَّ مسلمٍ واعٍ مخلصٍ معنيٍّ بقضايا الإسلام ، والمسلمين في أرجاء الأرض ، أن يعمل ـ جهده ـ علىٰ تمهيد الطَّريق للانتفاضة الإسلاميَّة بكلِّ إخلاصٍ ، وعزيمةٍ ، وجهدٍ دائبٍ ، وشعورٍ صائبٍ ، فقد تراكمت علىٰ هٰذه الطريق أنقاضٌ لا يعلمها إلا ٱلله بفعل إهمالنا ، وتقصيرنا ، وثورتنا علىٰ

أحكام ٱلله ، بل وبمؤامراتنا المتواصلة ، وعمليَّاتنا الهدَّامة المتتابعة ، وإزالة هٰذه الأنقاض تحتاج إلىٰ ثورةٍ عارمةٍ شاملةٍ في المجتمعات الإسلاميَّة المتغرِّبة ، وهٰذه الثَّورة وحدها هي القاعدة الصَّلبة المتينة الَّتي يمكن عليها تشييد صرح الانقلاب الإسلاميِّ اليوم .

وقد سنحت للشَّيخ النَّدويِّ في هٰذه الزيارة فرصة الاحتكاك بكلِّ طبقةٍ من طبقات المسلمين في باكستان ، وبكلِّ نوعٍ من الرِّجال المنتمين إلىٰ مدارس فكرٍ متنوِّعة ، وتحدَّث إلىٰ كلِّ قطاعٍ من الناس ، إلىٰ رجالات القانون ، ورجال العلم ، والفكر ، وخبراء التَّعليم ، والتَّربية ، وأساتذة المعاهد ، والمدارس ، والجامعات ، وطلَّابها ، والجماهير السُّذَّج من المسلمين المخلصين ، والحكَّام ، ورجال المناصب الرَّسميَّة العليا ، والتُّجار ، ورجل الشَّارع .

وغطَّىٰ هٰذه المحاضرات ـ ولا سيَّما المحاضرات الَّتي ألقيت علىٰ منبر المؤتمر الإسلاميِّ الآسيويِّ الأوَّل ـ الإذاعة ، والتِّلفاز والصُّحف في باكستان ، وفي كثيرٍ من الدُّول العربيَّة ، واستمع إليها المسلمون في شوقٍ ، وحفاوةٍ ، وتركت في قلوبهم آثاراً طيِّبةً مثمرةً بإذن ٱلله ، وقد لعبت دورها في القضاء علىٰ القلق النفسيِّ ، والتبلبل الفكريِّ ، والوضع المتوتِّر المتقلِّب ، الَّذي ربَّما كان الإهمال بشأنه يؤدِّي إلىٰ أضرارٍ

فادحةٍ لا تتدارك ، وخسارةٍ لا تُعوَّض .

وقد كنت مرافقاً لسماحته في هٰذه الرِّحلة المباركة ، فلمست هٰذا التَّأثير في كلِّ صقعٍ من أصقاع البلد . . . وشعرت كأنَّ ملائكة الرَّحمان تباركه ، ونصرة ٱلله تحالفه .

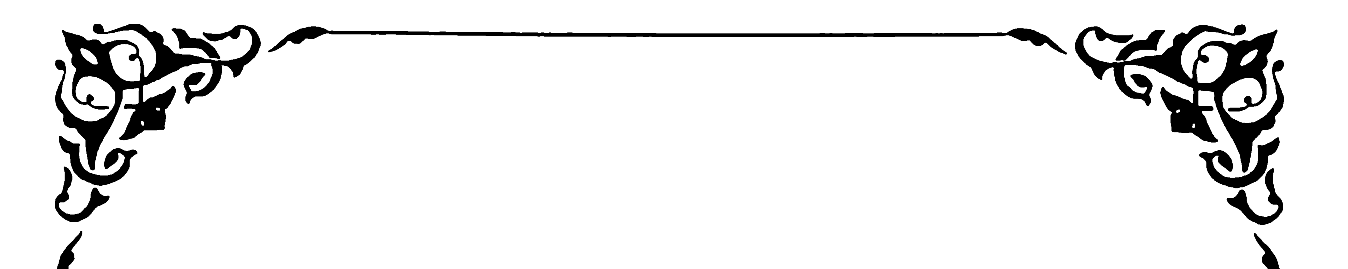
وهٰذه هديةٌ ثمينةٌ إلىٰ جميع أبناء الإسلام ، وولاة الأمور ، وقادة الفكر ، وساسة البلاد ، ورجال التَّربية ، والتَّوجيه ، وزعماء الأحزاب ، والحركات في كلِّ الدُّول ، والمجتمعات الإسلاميَّة ـ بما فيها الأقطار العربيَّة العزيزة ـ فلو غُيِّرَ اسم المكان ، والمناسبات الَّتي ألقيت فيها هٰذه المحاضرات ، ووجِّه فيها هٰذا الحديث ؛ لما شعر القارئ بأنَّها محاضراتٌ ، أو أحاديث خوطبت فيها باكستان ، وشعبها العظيم ، وقيادتها الموقَّرة ، ومؤسَّساتها العظيمة ، واعتقد بذٰلك : أنها هديةٌ في مكانها ، وأوانها لكلِّ بلدٍ إسلاميٍّ ، وشعبٍ مسلمٍ . . . إنَّها أمانةٌ قيِّمةٌ ، وثمرةٌ حلوةٌ لهٰذه الرِّحلة التَّاريخيَّة نسلِّمها إلىٰ الأيدي الأمينة الصناع .

أرجو : أنَّها تحرِّك قلوب المسلمين في كلِّ بلدٍ إسلاميٍّ ناهضٍ ساكناً ، وتعين علىٰ فتح الأبواب الموصدة الَّتي استعصىٰ فتحها علىٰ قوَّة السَّواعد ، والبنان ، وقوَّة الخطابة ، وطلاقة اللِّسان ، والتي تنتظر منذ مدَّةٍ ذٰلك الفاتح العبقريَّ

الَّذي يستطيع أن يفتح القلوب ، والعقول معاً ، وٱلله وليُّ التَّوفيق .

١٠ / شوال (١٣٩٨هـ)	**محمد الحسني**
١٦ / سبتمبر (١٩٧٨م)	لكناؤ ـ الهند

✍ ✍ ✍



المسؤوليَّات الَّتي تعود علينا من قبل الدِّين والوطن

المحاضرات الَّتي ألقيت أمام
رجالات العلم والثَّقافة
وقادة الفكر والرَّأي
والطبقة المسؤولة



أمير قافلة الأمَّة الإسلاميَّة اليوم

(ألقيت هٰذه المحاضرة في حفلةٍ أقامها البروفيسور عبد الغفور (سكرتير الاتِّحاد الوطني ، ووزير الزِّراعة والصِّناعة في حكومة الجبهة المتَّحدة في باكستان) ترحيباً ، وتكريماً للمحاضر ، وذٰلك لدىٰ ختام المؤتمر الإسلاميِّ الآسيويِّ الأوَّل في ٩ / يوليو (١٩٧٨م) ، وقد حضرها قادة الأحزاب السِّياسيَّة المختلفة ، وممثلو الجبهات الدِّينيَّة ، والشَّعبيَّة ، والاجتماعيَّة ، والثَّقافيَّة ، وخيرة المثقَّفين ، والأدباء ، والصَّحفيِّين ، ورجال العلم ، والدِّين ، بالإضافة إلىٰ مندوبي الدُّول الإسلاميَّة المختلفة إلىٰ المؤتمر الإسلاميِّ الآسيويِّ الأوَّل) .

الحديث الَّذي يصدر عن القلب فينفذ في القلب :

أيُّها السَّادة ! أشكركم أوَّلاً علىٰ هٰذا الحبِّ ، والثِّقة اللَّذَيْن وضعتموهما في ، وتجشَّمتم الحضور للاستماع إلىٰ حديثي رغم تَهطال الأمطار .

إنَّ هناك مناسباتٍ تجعل الإنسان يرىٰ اللُّغة ، والكلمات الَّتي هي وسيلةٌ عاديَّةٌ للتَّعبير عن الأفكار ، والعواطف ، والمشاعر ، والأحاسيس عاجزةً قاصرةً عن التعبير ، والإفصاح . . . وتعلمون : أنِّي دائماً أبدي أفكاري بالقلم ، وباللِّسان حسبما تقتضيه المناسبة وطبيعة الموقف ، ووضع الحديث ، والفكرة ، ولـٰكنِّي أريد أن أصارحكم دون تلعثمٍ : أنِّي أرىٰ أكبر كمِّيَّةٍ ، وأوفر ثروةٍ من اللُّغة ، والكلمات غير كافيةٍ للإبداء عمَّا في القلب حين يشكِّل عدد المستمعين خيرة المثقَّفين ، وعصارة أصحاب الرأي ، والفكر ، وخلاصة الطبقة الذَّكيَّة الَّتي هي بمنزلة العقل ، والقلب من الشَّعب المسلم . . . فهنالك أريد أن يتحدَّث العقل ، ويستمع العقل ، أو يتحدَّث القلب ، ويستمع القلب ، ولم يخترع العلم ـ رغم تقدُّمه الهائل المدهش ـ إلىٰ اليوم آلةً تنقل إليكم مع حديثي خفقان قلبي ، واهتزاز ضميري ، وتموُّج مشاعري .

وإنِّي الآن في صراعٍ نفسيٍّ ، لا أكاد أدري من أين أبدأ حديثي ، وكيف أوجز كلامي ، وقد كنت أنا في الحديث الَّذي ألقيته في ختام المؤتمر الإسلاميِّ الآسيويِّ الأوَّل بالأمس انتقيت للتلاوة ثلاثة أبيات : عربيٍّ ، وفارسيٍّ ، وأرديٍّ ، وقد تردَّدت بعض الوقت فيما يتَّصل باختيار اللُّغة التي أتحدث فيها إلىٰ الحضور ، فأوَّلاً دار بخلدي أن أوثر الأرديَّة بالكلام ؛

لأنَّها اللغة التي ينطق بها ، ويفهمها معظم عدد المستمعين ، لـٰكنِّي استحييت من اللُّغة العربيَّة ، فهي لغة القرآن ، والإيمان ، ولغة رابطة العالم الإسلاميِّ الرَّسميَّة التي كنت أتحدَّث من منصَّتها ، فرأيت أن أحلَّ مشكلتي باختيار بيتٍ بيتٍ من تلك اللُّغات الثَّلاث التي لي إلمامٌ بها ، وبما أنَّ كثيراً منكم ، أو أكثركم لم يكن حاضراً ؛ فها أنا أعيد إنشادها أمامكم :

وقع اختياري من الشِّعر العربي علىٰ البيت الآتي :

حمامَةَ جَرْعىٰ حَوْمَةَ الجَنْدَلِ اسْجَعِيْ
فَـأَنْـتِ بِمَـرْأىٰ مِـنْ سُعَـادٍ ومَسْمَـعِ

وقلتُ : إنَّكم أيُّها السَّادة ! كلُّكم « سعاد » وكلُّكم سعداء ، والحمد لِلّٰه !

وكان بمستطاعي أن أختار من الشِّعر الفارسيِّ بيتاً من قصائد أيٍّ من « عرفي » أو « نظيري » أو « حافظ » أو « جامي » فحول الشُّعراء في إيران ، لـٰكنِّي استحييت من الشَّاعر الإسلاميِّ الدُّكتور محمَّد إقبال الَّذي هو أكبر شاعرٍ فارسيٍّ أنجبته هـٰذه الدِّيار ، بل هـٰذا العصر ، فلم أستطع أن أفارقه إلىٰ غيره من : « عرفي » أو « نظيري » ، فوقع اختياري من شعره علىٰ هـٰذا الشِّعر الدَّافق بالحياة النَّاطق عن الواقع :

تا تو بيدار شوي ، ناله كشيدم ورنه
عشق كاريست كه بـ آه وفغان نيزكنند

يقول : « حرصاً علىٰ أن تنتبهوا أيُّها الإخوان وأنْ أوقظ فيكم نائماً ، وأحرِّك فيكم ساكناً أرفع نشيجي ، وأرتفع بانتحابي ، وإلاَّ فإنَّ « الحبَّ ، والعاطفة » شيءٌ يستطيع أن يمارسه الإنسان في هدوءٍ ، وفي صمتٍ ، ودون إبداء عن الحرقة ، والجوىٰ » .

واخترت من الشِّعر الأرديِّ البيت الآتي :

أمير جمع هين أحباب درد دل كله لـ
بهر التفات دل دوستان رهـ رهـ نه رهـ

يقول الشاعر الَّذي تلقَّب في الشِّعر بلقب « أمير » :

« إنَّ الإخوان ، والأحبَّاء مجتمعون ، فتحدَّث إليهم عن شجونك ، وأحلامك ، وأحزانك ، وآمالك ، وانتهز الفرصة ، فربَّما لا تجد مثل هـٰذه اللَّفتة الكريمة الحانية منهم مرَّةً أخرىٰ » .

وإنَّما أعدت الحديث ، لأنَّ هـٰذا البيت الأخير يتَّفق مع الجوِّ الآن أيضاً .

أيُّها السَّادة ! أرىٰ : أنَّنا ـ بصفتنا شعباً مسلماً ـ يحمل

رسالةً ، ويحتضن دعوةً ، ويملك الأمر والنَّهي ، ويتمتَّع بالثِّقل السِّياسيِّ ، ويصلح للقضاء علىٰ الظُّلم ، والعدوان ، ولتعليم درس العدل ، والمساواة ، وتبليغ الرِّسالة الإلـٰهيَّة إلىٰ العالم من مستوىً عالٍ اجتزنا بيومين حاسمين حسَّاسين :

١ ـ حينما كانت الدَّولة العثمانيَّة تجتاز مرحلةً مصيريَّة حاسمةً في حياتها ، وكان لها أن تقرِّر : هل تبقىٰ كدولةٍ مرفوعة الرَّأس ، مسموعة الكلمة ، مرهوبة الجانب ، تُملي إرادتها علىٰ الدُّول ، والحكومات ، وتؤثِّر في خريطة العالم السِّياسية ، أم لا ، هل تبقىٰ كدولة حارسةٍ أمينةٍ للأمَّة الإسلاميَّة والرِّسالة المحمَّدية ، أم لا ، والواقع : أنَّ هـٰذا التَّقرير كان بعيد المدىٰ ، عميق الجذور ، مترامي الأبعاد ، فلم يكن تقرير مصير الشَّعب العثماني ، بل كان تقرير مصير الشَّعب المسلم في أرجاء العالم ، وذٰلك : أنَّ الرِّسالات ليست شيئاً يتعلَّق بين السَّماء ، والأرض ، كما أنَّ الأمم لا تعيش في الجوِّ ، وإنَّما تعيش علىٰ هـٰذه الأرض ، علىٰ كلٍّ فكان للأمَّة الإسلاميَّة أن تقرِّر يوم ذاك : أإنَّها تفرض سيطرتها السِّياسيَّة علىٰ الشُّعوب ، والأمم ، وتثبت أهمِّيَّتها في حوادث الوقت ، ووقائع العصر ، وفي تغيير مجرىٰ التَّاريخ ، أم لا ؟ وكان هـٰذا يومٌ من اليومين .

واليوم الثاني هو ما نعيشه اليوم وبلدنا واقفٌ علىٰ منعطف حسَّاس :

إنَّ باكستان اليوم واقفةٌ علىٰ منعطفٍ دقيق ، والتَّاريخ حابسٌ أنفاسه ، وكاتب الحظِّ ممسكٌ بقلمه ، مستعدٌّ للتسجيل ، ينتظر ، ويترقَّب . إنَّ هنالك مناسباتٍ كثيرةً يمكن أن يرىٰ فيها الإنسان الأرضيُّ ـ إذا كانت رؤية الأمور الغيبيَّة بالإمكان ـ كيف يجلس كاتب الحظِّ ينتظر ، ويرتقب القضاء الإلٰهيَّ ، ولا أقول : إنَّه ينتظركم ، ولٰكن أقول : إنَّه ينتظر القضاء الإلٰهيَّ ؛ الَّذي لا رادَّ له ، وهٰذا القضاء يتوقَّف علىٰ أمورٍ كثيرةٍ ، ولا يتوقَّف عليها ـ حاشا لله ـ لأنَّ ٱلله محتاجٌ إلىٰ أحدٍ ، بل ذٰلك يرجع إلىٰ السُّنَّة الإلٰهيَّة ، فإنَّ ٱلله تعالىٰ ينظر إلىٰ مدىٰ إخلاص الأمم ، وعزمها ، وطموحها ، وصلاحيَّتها ، وهناك تقديراتٌ ، وقضاءاتٌ تتبدَّل ، وتتغيَّر ، ويمكن تبديلها ، وذٰلك هو « التقدير المعلَّق » في التَّعبير العلميِّ القديم ، فهٰذه « التقديرات المعلَّقة » يمكن أن ترىٰ العيون « المبصرة » ـ إذا كان عند أصحابها رصيدٌ كافٍ من دراسةٍ عميقةٍ للقرآن الكريم ـ كأنَّ كاتب التَّقدير ينتظر القضاء الإلٰهيَّ بصددها ، ويترقَّب ما يكتبه فيما يتَّصل بالأفراد أحياناً ، وفيما يتَّصل بالجماعات أحياناً أخرىٰ ، ومثل هٰذا الوقت قد تساوي كلُّ لحظةٍ من لحظاته قروناً ؛ لأنَّ زلَّةً واحدةً

وقتذاك قد تغرق سفينة أمَّةٍ بأسرها ، وما أصدق ما قاله الشاعر الفارسيُّ :

« ذهبت انتزع الشَّوك من قدمي ، فاختفىٰ محمل الحبيب عن نظري ، لم يستغرق هـٰذا العمل إلَّا لحظةً من الوقت ، ولـٰكنِّي تخلَّفت عن ركب الأصدقاء بمسافة قرنٍ كاملٍ » .

أيُّها السَّادة !

إنَّ الشَّاعر قد يشير في شعره بقوَّة مخيِّلته ، وصفاء قريحته إلىٰ معانٍ بارعةٍ ذات الدَّلالات العجيبة ، لم تتحقَّق مصاديقها بعد ، وقد تتحقَّق بعد سنين طوال ، وربما ـ بعد قرونٍ ، وأجيالٍ ـ فتأتي تفسيراً صادقاً لذٰلك الشِّعر ، فتتجلَّىٰ روعته ، وجماله ، وعمق معناه . . ومن هنا فإنِّي لا أكاد أتأكَّد من أنَّ الشَّاعر ـ الَّذي قال هـٰذا البيت الخالد ـ قد مرَّ في الواقع بهـٰذه القصَّة الَّتي حكاها في بيته الرَّائع ، فقعد أحدٌ من رفاق قافلته يستخرج الشَّوك ـ الَّذي نفذ في داخل قدميه في بعض الطَّريق ـ من عقب قدميه فمضت القافلة بعيداً ، وتخلَّف عنها . . لا أدري ما كانت هـٰذه القافلة ، ومن كان هـٰذا المسافر ، وما هي المعاني التي أرادها الشَّاعر في هـٰذا البيت ، وإلىٰ أيِّ حادثٍ أشار ، ولـٰكنِّي علىٰ يقينٍ بأنَّ هـٰذا الحادث ـ بجميع محتوياته ـ لم يكن مصداق هـٰذا البيت الحيِّ .

إنَّ هٰذا الشَّاعر لم يخطر منه علىٰ بالٍ : أنه ستبرز هناك دولةٌ ، وستنهض هناك قوَّةٌ ، وستسير هناك قافلةٌ ، قافلة الأمَّة الإسلاميَّة ، ويتخلَّف رفيق من هٰذه القافلة ـ وهو باكستان ـ عن رفاقه ، من أجل أن ينتزع شوكاً من قدمه ، ولا أريد أن أشير إلىٰ هٰذه الأشواك بالتَّحديد ؛ لأنَّ ذٰلك يقلِّل من قيمة هٰذا البيت ، ويحطُّ من شأن « الموقف » ، وأترك هٰذا الأمر إليكم ؛ لكي تتصوَّروا ما شئتم من الأشواك الَّتي أصابت الأرجل ، والجروح الَّتي أصابت القلوب ، ولٰكن الواقع : أنَّ هٰذا البيت لم ينطبق علىٰ واقعٍ ما من ذي قبل كما ينطبق علىٰ الواقع الَّذي نعيشه نحن اليوم !

« الرَّفيق العظيم » من رفاق ركب الأمَّة الإسلاميَّة

حقّاً إنَّ باكستان رفيقٌ جليلٌ من قافلة الأمَّة الإسلاميَّة ، والقافلة ماضيةٌ في الطَّريق ، فإذا ما قعد هٰذا « المسافر الجليل » ينتزع « أشواكاً » أصابت رجليه ، وتأخَّر في العمل ، أو غلبه النَّوم ، أوهبَّ يتخاصم مع أحدٍ من « المسافرين » فإذاً أخاف أن يتخلَّف ! أيَّها السادة ! إنَّ زلَّةً واحدةً في هٰذا الوقت تحدث تحوُّلاً جذريّاً في مصير الأمَّة الإسلاميَّة ، وربما يضع في مصيرها قفلاً فُقِدَ مفتاحُه لا قدر ٱلله !

ومن ثَمَّ فأنتم في موقفٍ حسَّاسٍ دقيقٍ يتطلَّب تضحياتٍ

جساماً ، ومن المؤسف جدّاً : أنَّ الإسراف في استخدام هـٰذه الكلمة الشَّريفة ، والأخطاء في مواضع استعمالها قد أفقداها تأثيرها ، وإلاَّ ؛ فإنَّها شيءٌ ما إنْ قرع السَّمع ؛ حتىٰ تقشعر منه الجلود ، وترتجف له القلوب ، لـٰكنَّنا ـ مع الأسف ـ أصبحنا اليوم كلَّما نستخدم الكلمة لا تتطرَّق منها الأذهان إلاَّ إلىٰ التَّضحية بالوظائف ، أو التَّضحية بشيءٍ زهيدٍ من المرتَّبات ، والمناصب .

أيُّها الإخوة ! إنَّ التَّضحية شيءٌ مقدَّسٌ ينتهي نسبه إلىٰ سيِّدنا إبراهيم ، عليه وعلىٰ نبيِّنا الصَّلاة ، والسَّلام ، إنَّ لكل شيء نسباً ، فنسب المساجد كلُّها علىٰ أرجاء الأرض ينتهي إلىٰ بيت ٱلله في مكَّة ـ المسجد الذي بناه سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ وكلُّ مسجد لا يتَّصل نسبه بمسجد إبراهيم هـٰذا ؛ فلا يستحق أن يسمَّىٰ بيت ٱلله ، وإنَّما هو « مسجد ضرار » ، وكذٰلك كلُّ مدرسة لا ينتهي نسبها إلىٰ صفة المسجد النبويِّ ـ علىٰ صاحبها الصَّلاة ، والسَّلام ـ فلا تستحقُّ أن تسمىٰ مدرسةً ؛ لأنَّها إذاً منطلق الجهل ، والضلال ، وليست موضع دراسة ، وعلمٍ ، وهديٍ ، وعلىٰ ذٰلك فـ : « التضحية » الَّتي لا يتَّصل نسبها بروح الإيثار ، والإخلاص ، والوفاء ، والولاء لدىٰ سيدنا إبراهيم ، وروح الصَّبر ، والرِّضا ، والتَّوكُّل ، والفداء ، لدىٰ ابنه ذبيح ٱلله إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فإنَّها ليست بصحيحة النَّسب ،

وليست ذات أصلٍ كريمٍ ، وعرقٍ عريقٍ .

ثلاثة أنواع من التضحية :

والظُّروف تتطلَّب منكم اليوم ثلاثة أنواع من التَّضحية ، ولكلِّ نوعٍ منها إمامٌ في تاريخنا الإسلاميِّ ، فهناك نوعٌ من التَّضحية قام به سيِّدنا خالد بن الوليد في ساحة معركة اليرموك ، ونوعٌ آخر قام به سيدنا الحسن بن عليٍّ ـ رضي ٱلله عنهما ـ إزاء سيِّدنا معاوية ـ رضي ٱلله عنه ـ قضاءً علىٰ الاضطراب في صفوف المسلمين ، ونوعٌ ثالثٌ من التَّضحية قام به عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أجل إعادة المجتمع الإسلاميِّ إلىٰ الحياة الإسلاميَّة ، والسِّيرة المثاليَّة ، وذٰلك بتحويل حياته من النُّعومة إلىٰ الخشونة ، ومن التَّرف إلىٰ الكفاف ، والقناعة باليسير القليل ، وإحداث تحوُّلٍ كلِّيٍّ في كلِّ جوانب حياته ، والتَّغاضي عن مصالح عائلته ، وأعضاء أسرته . وهٰذه الأنواع الثلاثة من التَّضحية يحتاج الشَّعب المسلم الباكستانيُّ اليوم أن يقوم بها في وقتٍ واحدٍ معاً .

التَّضحية الَّتي قام بها سيِّدنا خالد بن الوليد ـ رضي ٱلله عنه ـ تعلِّمنا : أنْ لا يتقطَّب الجبين لو عزل صاحبه عن منصب قيادة الجيوش ؛ وهو في ساحة المعركة يحرِّك الأجناد ، ويقود الجيوش ، ويطارد الأعداء ؛ حتىٰ يسجل له التَّاريخ أمثال هٰذه

الكلمات الذَّهبيَّة النَّاصعة الغرَّاء التي سجَّلها لخالد بن الوليد والتي عصارتها : لو كنت أجاهد من أجل عمر بن الخطَّاب ، وابتغاء رضاه ؛ لتوقفت عنه ، ولٰكنِّي إن أقاتل في سبيل ٱلله ، وابتغاء وجهه الكريم ، وطمعاً في رضاه ، وثوابه ؛ فلن يفتَّ شيءٌ في عضدي ، ولن يقلِّل من حماسي ، ونشاطي .

وقد شهدت الدُّنيا كيف صدق خالد في وعده ، ولم يتغيَّر قيد شعرةٍ عمَّا كان عليه من الحماس للجهاد ، والشَّوق للشَّهادة ، والشَّغف بإعلاء كلمة ٱلله . إنَّ التاريخ البشريَّ كلَّه يعجز عن أن يقدِّم لذٰلك نظيراً . إنَّ المؤرِّخ يقف مشدوهاً واجماً أمام هـٰذه الثِّقة بٱلله ، وشدَّة الشَّكيمة ، وغاية العزيمة ، التي كان يتمتَّع بها سيُّدنا عمر الفاروق ، رضي ٱلله عنه ، حيث يعزل امرأً ـ خلال المعركة الحامية ـ كان قد اقترن اسمه بالفتح ، والانتصار اقتراناً أصبح الفرق بينهما عسيراً ، حتَّىٰ صار رمز الفتح والانتصار (symbol) كان يتساءل النَّاس : خالد يخوض المعركة ، أم لا ؟ فإذا علموا : أنَّه موجودٌ ، سيخوض المعركة ، يتأكَّدون من كسب المعركة ، وكانت القلوب تمتلئ أملاً ، ورجاءً جذلاً ، وسروراً ، كانوا يتوكَّلون أصلاً علىٰ ٱلله ، ولـٰكنَّهم كانوا يتفاءلون بوجوده في المعركة ، لـٰكنَّ عمر بن الخطاب ـ رضي ٱلله عنه ـ يخطو هـٰذه الخطوة الجريئة الخطرة ـ من أجل أن يضرب مثالاً رائعاً لهـٰذه الأمَّة إلىٰ

يوم القيامة ـ التي أعتقد : أنَّه لم يخطها أحدٌ في تاريخ الحروب ، والمعارك ، ولم يركب هٰذا الخطر العظيم ، يأتي الرَّسول من المدينة المنوَّرة ، ويسلم إلىٰ خالد مرسوم عزله ، ونصب أبي عبيدة مكانه ، وهو يباشر الحرب ، ويعلم الجنود كلُّهم : أنَّ خالداً لم يعد قائداً لهم ، أو قائداً للجيوش الإسلاميَّة ، وهنالك يقول خالدٌ هٰذه الكلمات الأمينة المؤمنة المذكورة أعلاه .

إيثار مصالح الأمَّة علىٰ جميع المصالح ، والأغراض الشَّخصية :

والنَّوع الثَّاني من التَّضحية الذي يجب عليكم أن تقوموا به هو أن تؤثروا مصالح الأمَّة علىٰ المصالح الشَّخصية ، والمصالح الحزبيَّة ، والمصالح القوميَّة ، بل أتقدَّم خطوةً ، فأقول : علىٰ مناهج العمل ، والخطَّة التي اخترناها للعمل الإسلاميِّ ؛ لأنَّ الأحزاب يجب أن تكون في خدمة الأمَّة ، والإسلام لا بالعكس ، وقد قلت مراراً ، وفي كثيرٍ من المناسبات ، والحفلات : أنَّه تطلبت مصالح الأمَّة أن تمحىٰ هٰذه الأحزاب ، والجماعات ، كما تمحىٰ العبارة الخاطئة ؛ لأكون أوَّل من يتشرَّف بهٰذه السَّعادة ، ويحوز هٰذه الكرامة ، وتلك هي التَّضحية الَّتي تلقَّينا درسها من صنيع خالد بن الوليد ، رضي ٱلله عنه ، وأرضاه .

أمَّا التَّضحية الَّتي قام بها سيِّدنا الحسن بن عليٍّ بن أبي طالبٍ ـ رضي ٱلله عنهما ـ فربَّما يكاد يدرك خطورتها ، وأهمِّيتها كبار مؤرِّخينا ، لٰكنَّها في الواقع لا تقلُّ أهمِّيَّةً عن أيِّ تضحيةٍ مخلصةٍ عظيمةٍ .

كان الحسن ـ رضي ٱلله عنه ـ سبط الرَّسول ﷺ وكانت السُّيوف بأيدي أنصار عليٍّ ـ رضي ٱلله عنه ـ مشهرةً لم تغمد بعد ، وكلُّ من استعرض الظُّروف ، وحلَّل الملابسات ، وقلَّب الأحوال ؛ كان له أن يقول : إنَّ القوَّة العسكريَّة الكبرىٰ لا تزال وفيَّةً للحسن ، بالإضافة إلىٰ العلاقة العاطفيَّة الَّتي كانت تربط بينه وبين المسلمين ، والدَّلائل الشَّرعية التي كانت تؤيِّده ، فكان سبط الرَّسول ، والخليفة الرَّاشد ، تمَّت البيعة علىٰ يديه .

لٰكنَّه استعرض الواقع ، فوجده مريراً ، رأىٰ : أنَّ مثل هٰذا الصِّراع لم يعد منتجاً ، وقد استنفد مقداراً صالحاً من قوَّة والده العظيم ، وجهده ، ووقته ، فتنازل عن الخلافة لمعاوية ـ رضي ٱلله عنه ـ عن اجتهادٍ منه ، وعلىٰ بصيرةٍ . . هٰذه تضحيةٌ كبيرة .

وتضحيةٌ أخرىٰ قام بها أخوه الحسين ضدَّ يزيد علىٰ

اجتهادٍ منه كذٰلك ، ولا أرىٰ هناك تناقضاً بين الاجتهادين ، أو تخالفاً بين الرَّأيين ، ولا تسمح لنا المناسبة أن أتحدَّث عن الأسباب التَّاريخيَّة ، لٰكنِّي أرىٰ : أنَّ الأحكام تتبدل بتبدُّل الظروف ، والملابسات ، فكان اجتهاد الحسن صواباً بالنِّسبة إلىٰ ظروفه ، وكان اجتهاد الحسين صحيحاً بالنسبة إلىٰ أوضاعه ، وكلاهما أخذا بالعزيمة ، وعملا بالحكمة ، ولم يجبن أحدٌ منهما ، ولم يستكن ، ولم يتخاذل ، وإنِّي لن أؤمن بأنَّ الحسن تنازل عن الخلافة من ضعفٍ ، أو عن ضغطٍ خارجيٍّ ، بل كان ذٰلك قضاءً تنبَّأ به جدُّه النبيُّ الأعظم ﷺ بقوله :

« إنَّ ابني هـٰذا سيِّدٌ ، ولعلَّ ٱلله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين »[1] .

وكذٰلك التَّضحية التي قام بها عمر بن عبد العزيز ـ رحمة ٱلله عليه ـ لها خطورتها ، وأهمِّيَّتها ، فقد كان مضرب المثل في ظرافته ، وأناقته ، وفي تنعُّمه ، وترفُّهه ، حينما كان والياً للمدينة ، وكان عضواً من أعضاء الأسرة الحاكمة ، وقد

---

(١) صحيح البخاري ، رواية عن أبي بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ وقد جاء في بعض الروايات : « وسيصلح ٱلله به » .

كانت موضته قدوةً ، بل غايةَ الجمال ، والكمال لدىٰ الشَّباب ، والظرفاء ، وكانت الجواري يتعلَّمن مشيته ـ التي كانت تسمَّىٰ « المشية العمرَّية » ـ ويحاكينها من حسنها ، كان يستخشن الثياب الثَّمينة ، ويزري بالملابس الفاخرة .

لـٰكنَّه ما إن تولَّىٰ الخلافة ؛ حتَّىٰ تحوَّلت حياته كلِّيَّاً ، فأرجع مزارعه إلىٰ ما كانت عليه في عهد الرَّسول ﷺ ، وردَّ ضياع أقرب أقربائه إلىٰ بيت المال ، ورفض أرخص ثوب أُعِدَّ لارتدائه ، واستغلاه ، فاستعبرت عينا خادمه ؛ إذ تذكَّر : أنَّه كان قد ردَّ أغلىٰ الأثواب ، وتفادتها عيناه ، وتنازل في مأكله ، ومشربه ، ومستوىٰ معيشته إلىٰ ما ربَّما لم يتنازل إليه أزهد الزُّهَّاد ، وبلغ من تحفُّظه ، وأمانته إلىٰ أنَّه يقوم بالأعمال الرَّسمية في ضوء الشَّمعة « الرَّسميَّة » الَّتي زيتها من بيت المال ، ويدخل عليه رجلٌ ، فيستطلعه أحوال المسلمين في منطقته ؛ إذ يعود الرَّجل فيستخبره أحوال أسرته ، وأعضاء عائلته ، فيطفئ الشَّمعة الرَّسمية بنفخةٍ من فيه ، ويطلب شمعةً شخصيَّةً ؛ لأنَّ الشَّمعة الرَّسميَّة ليست لتستخدم في الأمور الذَّاتيَّة ، والأحوال الشَّخصيَّة . إنَّ ذٰلك كلَّه ـ أيُّها السَّادة ـ غيضٌ من فيضٍ ، فإنَّ حياته كلَّها مثالٌ عجيبٌ فذٌّ للتحوُّل الخارق المدهش ؛ الَّذي وقع في حياته ، وعبارةٌ عن تضحيةٍ قام بها رجلٌ صاحب ضميرٍ واعٍ ، وقلبٍ خاشعٍ ، وإيمانٍ

راسخٍ صانعٍ للعجائب ، وخاف ٱلله ربَّه في سبيل مصلحة الأمَّة ، والدَّولة .

القضية تتَّصل بمصير الأمَّة الإسلاميَّة :

أيَّها السَّادة ! لا أدري : أكان من سعادة جَدِّي ، أو من محنتي ، أو من نعمة ٱلله عليَّ ، أو من امتحانه إيَّاي ؛ إذ وفقني أن أزور ، وأشاهد العالم الإسلاميَّ عن كثبٍ ، وعن تجربةٍ ، واختبارٍ ، توفيقاً ربما لم يحظ به أحدٌ في هٰذا المجلس الموقَّر ـ علىٰ تقديري لجميع السَّادة الحاضرين ـ وربَّما كان لي ذٰلك عن سوء حظٍّ ، وسعادة جَدٍّ في وقتٍ واحدٍ ، أمَّا سوء الحظِّ ؛ فإنِّي رأيت العالم الإسلاميَّ وهو يمرُّ بظروفٍ ، وأحوالٍ وخزت ضميري ، وآلمت قلبي ، وجرحت شعوري ، ومزَّقت كبدي ! وأمَّا سعادة الجَدِّ لأنِّي تمكَّنت من أن أرىٰ المسلمين عن كثب ، وأحتكَّ بهم ، وأخالطهم . وعلىٰ كلٍّ فأصارحكم : إنَّ القضيَّة اليوم ليست قضيَّة الأحزاب ، أو قضيَّة الجماعات ، أو قضيَّة المصالح الوقتيَّة ، إنَّما هي قضيَّة مصير الأمَّة الإسلاميَّة ، قد تكون العبادات مصونةً معمولاً بها ، وقد تكون أنواع من المعاملات محافظاً عليها ، ومأخوذاً بها في حياة النَّاس ؛ لٰكنَّ الشَّعب الإسلاميَّ أصبح لا يستطيع اليوم أن يفرض ثقله السِّياسيَّ في خريطة العالم ، ولم تعد له كلمةٌ مسموعةٌ في أيِّ قضيةٍ ، سواء قضيَّة المسجد الأقصىٰ ، أو

قضيَّة فلسطين ، أو قضيَّة لبنان ، أو قضيَّة قبرص [1] ، هل ترون : أنَّ الشَّعب الإسلاميَّ كلَّه يقدر علىٰ أن يقدِّم في القضيَّة ، أو يؤخِّر ، أصبح العالم الإسلاميُّ بعد سقوط الخلافة العثمانيَّة ، لا تستطيع دولةٌ من دوله ، أو أسرةٌ من أسر الشَّعب الإسلاميِّ أن تفرض ضغطها السِّياسيَّ ، وتثبت ثقلها الدِّبلوماسيَّ في أيِّ قضية من قضايا العالم الإسلاميِّ ، نعم ، قد استطاع المرحوم جلالة الملك فيصل الشَّهيد أن يثبت جدارة ، وأهمِّيَّة العالم الإسلاميِّ ، ولـٰكنَّه مضىٰ لسبيله ، ولم يعد من يخلفه في موقفه العظيم ، وليست اليوم هناك أيُّ دولةٍ إسلاميَّةٍ تستطيع أن ترغم ـ باحتجاجاتها ، أو بإبداء كراهيتها ، وعدم موافقتها ـ قوَّةً كبرىٰ علىٰ مراجعة النَّفس ، واستخدام التأمُّل في قضيةٍ ما إسلاميَّةٍ .

أهيب بكم ـ يا سادة ـ أن تواجهوا الموقف متعالين عن المصالح الجزئيَّة ، وتواجهوا تحدِّي الوقت ، بقوَّة المؤمن الواعي الخبير ، وبجراءة الصِّدِّيقين ، والصَّالحين ، وإذا سنحت لكم فرصةٌ ـ بتوفيقٍ من ٱلله عزَّ وجلَّ ـ فلا تضيِّعوها في غير موضعها ، ولو كان هناك فردٌ ، أو جماعةٌ أثبتت جدارتها ـ ولو بنسبة العشرة في المئة ـ للتَّعاون معكم في مجال

---

(١) لم تكن قضية أفغانستان حدثت بعد ، ولا قضيَّة العراق .

العمل الإسلاميِّ ؛ فلا بدَّ أن يكون الإخلاص رائدكم ، فتوفِّروا لها فرصةً ؛ لكي تستخدم مواهبها ، وتثبت أهليَّتها ، لا بدَّ أن تضعوا في الاعتبار هٰذه الملامح ، والأسارير ، الأسارير الَّتي بدت واضحةً علىٰ وجه مصير الأمَّة الإسلاميَّة . إنَّ زلَّةَ واحدةً منكم ، وأنانيَّة يسيرةً ، وعصبيَّة قليلةً (لغوية ، أو إقليمية) أو ثغرةً متواضعةً في صفِّ الوحدة تعود بخطرٍ عظيمٍ ، وضررٍ كبيرٍ علىٰ الشَّعب الإسلاميِّ في أرجاء المعمورة ، وأرجو ألَّا تحجموا مهما تطلَّب الموقف اليوم ، أو غداً عن أن تتنازلوا عن جميع الاعتبارات ، والمصالح ، والأغراض ، والمنافع إزاء مصالح الأمَّة الإسلاميَّة ، وأن تترفَّعوا عن كلِّ مناسبة ، وعن كلِّ موقف ، وعن كلِّ قضيَّةٍ يمكن أن تزرع اضطراباً نفسيَّاً ، وإذا اضطررتم من أجل ذٰلك أن تنفضوا أيديكم لبعض الوقت عن المسائل الخلافيَّة ، فلا بدَّ ألَّا تتردَّدوا ، ولا تتلكؤوا لدقيقةٍ واحدةٍ ، ويتحتَّم عليكم ألَّا تتعرَّضوا للمسائل الجانبية ، أو غير الهامَّة .

وأعتقد : أنَّ بعض الحركات الدِّينيَّة لو أخذت الحذر من بداية الطَّريق ولم تتعرض للمباحث الجانبية والقضايا الثانوية لبعض الحين ، لوجدت الطَّريق أمامها ممهَّدةً أكثر من اليوم ، لٰكنَّها محاولاتٌ بشريَّةٌ ، ولا يكلِّف ٱلله نفساً إلَّا وسعها .

القرن الحاضر يظمأ إلىٰ « معتصم » :

أعتقد : أنَّكم قد أنصفتم حديثي ، واكتنهتم إشاراته ، وأبعاده ، وأرىٰ فيه كفايةً ومقنعاً ، وأتضرَّع إلىٰ ٱلله المولىٰ الكريم أن يوفقكم أن تكونوا جنَّةً للعالم الإسلاميِّ كلِّه ، بل للمجموعة البشريَّة كلِّها ، وللحقِّ ، والعدل ، والإنصاف ، والمساواة أينما وجدت ، وأن تكونوا بحيث لا يقع ظلمٌ في ناحيةٍ من نواحي العالم الإنسانيِّ ، احتراماً لكم ، وتقييماً لثقلكم المعنويِّ ، وأن تكونوا بحيث يستصرخكم مظلومٌ في ناحية من الدُّنيا ، ويقول : « وامعتصماه ! » كما استغاثت عجوزٌ مظلومةٌ في عهد الخليفة العباسيِّ المعتصم بـٱلله « وامعتصماه ! » فأغاثها المعتصم . إنَّ العالم اليوم يتطلَّع إلىٰ « معتصم » والقرن الحاضر بأمسِّ الحاجة إلىٰ هـٰذا المعتصم ، وكما نحتاج إلىٰ إمام الحرم المكيِّ ، ونحترمه نحن جميعاً ، وكما نحتاج إلىٰ عالمٍ دينيٍّ حاذقٍ متضلِّعٍ ، ونكرمه جميعاً ، كذٰلك نحتاج ، ويحتاج العالم كلُّه إلىٰ جماعةٍ تحتضن الحقَّ ، والعدل ، وتتألَّم للإنسانيَّة ، وتعيش في حبِّ البشريَّة .

وبهـٰذه الكلمات أختم حديثي ، وأشكركم جميعاً علىٰ أن وفَّرتم لي هـٰذه الفرصة الثَّمينة للحديث ، جزاكم ٱلله جميعاً كلَّ خيرٍ وشكر سعيكم !

✍ ✍ ✍



الوحدة الإسلاميّة ومتطلّباتها

(ألقيت هـٰذه المحاضرة في حفلٍ أقامته « مؤسَّسة همدرد الأهليَّة » (Foundation National Hamdard) علىٰ دعوةٍ من رئيسها سعادة حكيم محمد سعيد الموقر ، وذٰلك في فندق انتركانتينينتال بكراتشي (باكستان) في ١٣ / يوليو (١٩٧٨م) ، وحضر الحفل مجموعةٌ كبيرةٌ من أعيان البلد ، والأساتذة الكبار ، ورجال الفكر ، والخبرة ، والبارزين في الحياة الاجتماعيَّة) .

قال بعد الحمد لِلّٰهِ والصَّلاة علىٰ رسول ٱلله ﷺ :

كلمة الوحدة جذابةٌ كالمغناطيس :

أيُّها السَّادة ! إنِّي مدينٌ لسعادة الأستاذ حكيم محمَّد سعيد ـ حفظه ٱلله ـ حيث وفَّر لي فرصة التَّحدُّث إلىٰ هـٰذه النُّخبة المختارة ، وإلىٰ هـٰذا الحفل الكريم ، وأتاح لي أن أبوح بأفكاري ، وأعبِّر عن مشاعري ، وعواطفي . إنَّ ذٰلك

لَمِنَّةٌ علىٰ غريبٍ ، إقامته بهٰذا البلد محدودةٌ بالأيَّام ، واللَّيالي ، والَّذي لا يعرف بالضَّبط والدِّقَّة أعيان البلد ، ووجهاءه ، وقادة الفكر ، ورجال العلم ، والتَّربية فيه ، ولا يعرف شأنهم ، ومكانهم حتىٰ يتَّصل بهم مباشرةً ، ويتحدَّث إليهم فرداً فرداً ، فمن تيسير ٱلله تعالىٰ أن تدعىٰ للاستماع لحديثه هٰذه النُّخبة الممتازة من أولـٰئك السَّادة الَّذين يجدر كثيرٌ منهم بأن تشدَّ الرِّحال للقياهم وحدَهم .

ولـٰكن بجانب ذٰلك كلِّه تتضخَّم مسؤوليَّة الخطيب ، أو الضَّيف ، ويجعله الموقف في امتحانٍ : إلىٰ أيِّ مدىً سيستطيع أن يستغلَّ هٰذه النِّعمة ، ويستخدم تلك الفرصة ، وهل تدعه موجة الأفكار ، والانطباعات ، وتزاحم العواطف ، وفيضان القلب بمزيج من مشاعر الشُّكر ، والعرفان بالجميل ، والشُّعور بالواجب أن يحسن التَّعبير ـ أمام السَّادة الحاضرين ـ عن مشاعره ، وأفكاره ، ونداء ضميره ، أم لا ؟

وقبل أن أدخل في صلب الموضوع أرىٰ لزاماً عليَّ أن أحبِّذ سعادة الشَّيخ محمد سعيد المحترم علىٰ اختياره للحديث هٰذا الموضوع الَّذي يضرب علىٰ الوتر الحسَّاس نظراً إلىٰ حرج الموقف ، ودقَّة الظُّروف : ظروف الصِّراعات ، والظُّنون ، والشُّكوك ، والشُّبهات ، وظروف الدَّوافع ، والأسباب المتضاربة في مجتمعٍ ، وبلدٍ مُنِيَ ـ ولا يزال ـ بأن يعبر طريقاً

مفروشاً بالأشواك ، وأجمةً شائكةً مائجةً بالقتاد .

أيُها السَّادة ! كلمة « الوحدة » من تلك الكلمات العديدة الحبيبة الأثيرة الَّتي تحمل جاذبيَّة ، ومغناطيسيَّةً في دنيا النَّاس ، والإنسان يعشق « الوحدة » بطبيعته ؛ لأنَّها نداء ضميره ، وصوت قلبه ، ورضا ربِّه ، ولا غرو ؛ فإنَّه يعيش في دنيا الإنسان هٰذه ، ويتمتَّع بالحياة ، ويتجمَّل بوجوده هٰذا البستان الأرضيُّ ، ويستخدم مواهبه ، ويستغلُّ تلك الأهليَّات الَّتي حباه ٱلله إيَّاها ، فهو في حاجةٍ مُلِحَّةٍ إلىٰ أن يعيش متعاضداً ، ومتعاوناً ، ومتضامناً .

الصِّراع بين الوحدات :

لٰكنَّ التَّاريخ يشهد : أنَّ هٰذه الوحدات ـ علىٰ حساب طبيعتها ، ووظيفتها ، ومعانيها ـ قامت بدور التَّخريب أكثر من القيام بدور التَّعمير ، فقد كانت الوحدة لتوحِّد الإنسان ، وتثير فيه عاطفة الحبِّ ، والحنان ، والأمن ، والسَّلام ، ولتوجد جوَّ الاعتماد المتبادل ، لٰكن « وحدةٌ » اصطدمت بوحدةٍ أخرىٰ أحياناً ، كما اصطدمت « وحشةٌ » بوحشةٍ أخرىٰ أحياناً كثيرةً ، علىٰ حين كان من المتوقَّع ألَّا يكون هناك صراعٌ ما بين الوحدات ، مهما تصارعت القوىٰ ، ومهما تصارعت الأشياء مع مثلها ، أو ضدَّها . . . من الممكن المعقول أن يتصادم

التَّخريب مع التَّخريب ، وأن تحارب الفوضىٰ الفوضىٰ ، وأن تتصارع السَّلبيات مع السَّلبيات ، أمَّا أن تقع الحرب بين جمعيَّةٍ ، وجمعيَّةٍ ، ووحدةٍ ، ووحدةٍ ، فتلك هي تجربةٌ غريبةٌ فريدةٌ من نوعها ، وانحرافٌ عن الطَّبيعة لا يوجد له نظيرٌ في التَّاريخ البشريِّ ، وحكايةٌ أليمةٌ مؤلمةٌ مخجلةٌ ، يَنْدَىٰ لها جبين التَّاريخ ، ويسودُّ بها وجهه .

إلَّا أنَّ ذٰلك يرجع إلىٰ الأساس الَّذي تقوم عليه الوحدة ، فلئن كانت الوحدة قائمةً علىٰ أسسٍ سلبيَّةٍ : علىٰ عاطفة العدوان ، علىٰ إذلال الإنسان ، علىٰ شعور بسط النُّفوذ والسُّلطان ، علىٰ التَّسامي ، والكبرياء ، واستعباد العباد الأبرياء ، فلا بدَّ أن تقرَّ مثل هٰذه الوحدة بوحدةٍ أخرىٰ سواها ؛ لأنَّ غمداً واحداً لا يسع سيفين ، فحين تقرؤون تاريخ أمَّةٍ ، أو ديانةٍ تجدون روايةً متَّصلة الحلقات من الحروب الدَّامية ، تجري أنهار الدِّماء ، وتقطع الرُّؤوس البشريَّة ، وتؤلَّف منها القباب ، وتجعل البلاد خاويةً علىٰ عروشها ، وتثلُّ العروش ، ويهلك الحرث ، والنَّسل ، وتداس الحضارات ، والمدنيَّات ، أما إذا بحثتم عن الأسباب ـ في ضوء فلسفة التَّاريخ ـ وجدتم : أنَّه كانت قد نشأت هنالك وحدةٌ ترىٰ سِرَّ بقائها في القضاء علىٰ الوحدات الأخرىٰ .

مجرد الوحدة لا تحمل قيمةً ، وليس لها وزن حبَّة خردلٍ في الميزان :

وقد دلَّت التَّجارب : تجارب النَّوع البشريِّ : أنَّ مجرَّد الوحدة لا تجدي نفعاً ، ولا تغني غناءً ، وإنَّما المناط بأساس الوحدة ، والغاية الَّتي أريد من ورائها .

وأوَّل وحدة نجدها في تاريخ ارتقاء النَّوع البشري ، هي الوحدة الأسريَّة العائليَّة ، والوحدة القبليَّة ، والوحدة السُّلاليَّة ، والعنصريَّة ، والوحدة الجنسيَّة ، ثم نجد ـ بعد ما تقدَّم العالم البشريُّ ـ الوحدة اللُّغوية ، ثمَّ الوحدة الحضاريَّة ، والثَّقافيَّة .

وكانت الوحدة الحضاريَّة ، والثَّقافيَّة من بين هٰذه الوحدات الكثيرة أكبر محطٍّ للآمال ، وذٰلك لأنَّ الحضارة ، والثَّقافة شيءٌ لا يمتُّ إلىٰ إيذاء العباد ، وإهانة النَّوع البشريِّ بصلةٍ ما ، لأنَّهما ـ الحضارة والثَّقافة ـ تعنيان الإعانة علىٰ زوال الشُّكوك ، والشُّبهات ، وارتفاع الحاجز بين إنسانٍ ، وإنسانٍ ، وأن تنشأ عن طريقهما عاطفةُ الحبِّ ، والوئام ، والتَّعاون ، والسَّلام ، والعدل ، والإنصاف ، وأن يحرص المرء علىٰ الاطِّلاع علىٰ حوائج أخيه ، وعلىٰ أعذاره ، وعلىٰ مواضع ضعفه ، فيشمله بعطفه ، وحنانه ، ويسعىٰ لتحقيق حاجته ،

وأن تنتبه في نفسه الدَّوافع علىٰ الاطلاع علىٰ أدبه ، وشعره ، ولغته ، وثقافته . . . ومستغربٌ كلَّ الاستغراب أن تشمل الوحدة الثَّقافية والحضاريَّة علىٰ جانبٍ من العدوان ، واستعباد المجموعة البشريَّة ، والحرب ضدَّ الحضارة البشريَّة .

لٰكن الحقيقة : أنَّ الحياة البشريَّة مجموعةٌ من أنواع المتضاربات ، والمتناقضات ، Contradictions حتَّىٰ يعجز علم النَّفس الحديث أيضاً عن إدراك أبعادها ، وأعماقها ، فقد ينشأ في داخل الإنسان إنسانٌ آخر ، وقد يتبنَّىٰ الإنسان أغراضاً تستهدف الإطاحة بالإنسان ، وربما تقوم هٰذه الأغراض علىٰ أنقاض أغراض إنسانٍ آخر ، فلو كانت هناك فلسفةٌ للحياة لا تحيا ، ولا تنمو ، ولا تترعرع ، ولا تخضرُّ ، ولا تثمر ، إلَّا بموت الإنسان ، وهلاكه ، وانهزامه ، وشقوته ، ونكبته ، فذٰلك هو الدَّاء العضال الَّذي يستعصي علىٰ المعالجة ، واللُّغز الَّذي يُعيي فكَّه العقولَ البشرية .

التَّصوُّر الإسلاميُّ للوحدة :

أمَّا الإسلام ؛ فلا يقرُّ من بين هٰذه الوحدات المصطنعة الكثيرة إلَّا بوحدتين حقيقيتين ، ويدعو إليهما دعوةً مؤكَّدةً ، وهما أعظم الوحدات عصمةً ، وبراءةً ، وأكثرها نفعاً ، وخيراً للبشريَّة ، وأغناها إيجابيَّةً ، وفعاليَّةً ، وتعميراً ، وإنتاجاً .

وهما : الوحدة الإنسانيَّة ، والوحدة الإيمانيَّة ، أمَّا الوحدة الإنسانيَّة ؛ فهي تعني : أنَّ السُّلالة البشريَّة كلَّها أبناء أبٍ واحدٍ ، وهو آدم أبو البشر ، عليه وعلىٰ نبيِّنا الصَّلاة والسَّلام ، وقد وقَّع سيِّدنا محمَّدٌ ﷺ علىٰ هـٰذه الوحدة ، وختمها بكلماتٍ معجزةٍ جعلتها من التَّأكيد ، والتَّوثيق بمكان سوف لا يقرُّ به أيُّ ميثاقٍ (CHARTER) للوحدة الإنسانيَّة في العالم ، فقال ﷺ : « إنَّ ربَّكم واحدٌ ، وإنَّ أباكم واحدٌ » فوحدة الأب ، ووحدة الرَّبِّ ، هما الوحدتان اللَّتان أُكرمت بهما الأفراد البشريَّة ، فيرجع وجودها الجسميُّ ، وينتهي نسبها الطينيُّ إلىٰ شخصٍ واحد ، مهما اختلفت ألوانها ، وأجناسها ، وتنوَّعت لغاتها ، ولهجاتها ، وتناءت ديارها ، وتباينت في الأعمار ، والسِّنين ، والسِّمنة ، والهُزال ، والطُّول ، والقصر ، وكذٰلك ربُّها ، وخالقها ، ورازقها واحدٌ ، فهـٰذه المناداة بالوحدة الإنسانيَّة بهاتين الكلمتين الوجيزتين لا توجد مناداةٌ بها أعمق منها ، وأشمل ، وأدقَّ ، وأكمل ، وأكثر منها اتِّفاقاً مع العقل ، والمنطق .

إذاً فإنَّ هاتين الوحدتين تربطان الإنسان بعضه ببعضٍ ربطاً موثقاً ، وتجعلان البشريَّة المنتشرة في الآفاق وحدةً متراصَّةً ، وتجعلان بني الإنسان إخواناً متعاونين متماسكين من ناحيتين : ناحية آصرة الأبوَّة ـ وقد تعرَّض رسول ٱلله ﷺ للأبوَّة أوَّلاً ؛

لأنَّها الحقيقة العادية المساغة لكلِّ إنسان ـ وناحية الربوبيَّة ، هٰذه هي الوحدة الإنسانيَّة الحقيقية الواقعيَّة التي أعلن عنها النَّبيُّ الأعظم سيِّدنا محمَّدٌ ﷺ من خلال خطبته العالمية التي تخاطب النَّوع البشريَّ في أرجاء المعمورة إلىٰ يوم القيامة ، وكأنَّها شهادة أدَّاها سيِّد الأنبياء ، والرُّسل عليه صلوات ٱلله وسلامه ، وذٰلك بمناسبة حجَّة الوداع .

وحدة جديدة فريدة :

أنشئت في القرن السَّادس المسيحيِّ وحدةٌ جديدةٌ ، أنشئت علىٰ أساس عقيدة توحيد ٱلله ، وإفراد ٱلله بالعبوديَّة والرُّبوبيَّة ، وعلىٰ روح المواساة ، ومبادئ العدل ، والمساواة ، وخدمة الإنسانيَّة ، والعطف عليها .

آخىٰ النبيُّ ﷺ بين المهاجرين من مكَّة إلىٰ المدينة ، وبين الأوس والخزرج من أهل المدينة المنوَّرة ، وأقام بينهم صلة الأخوَّة القويَّة ، وألَّف من هٰؤلاء ، وهٰؤلاء وحدةً ؛ لأنَّ هٰؤلاء المهاجرين كانوا غرباء يحتاجون إلىٰ مأوىً يأوون إليه ، فكانت هٰذه الآصرة آصرةً جديدةً من نوعها ما عهدتها البشريَّة علىٰ مدار التَّاريخ ، قامت علىٰ مجرَّد أساس العقيدة ، والهدف . . . وكلُّ من درس السِّيرة دراسةً عميقةً يعرف : أنَّ هٰذه الوحدة لم تكن وحدةً حضاريَّةً ، أو وحدةً اجتماعيَّة ،

نعم . . . كان هناك نوعٌ ما من وحدة اللُّغة ، إلَّا أنَّ ما كان يوجد من الفارق بين اللَّهجتين : المكيَّة ، والمدنيَّة ، وبين الأسلوبين اللُّغويَّيْن : المكيِّ ، والمدنيِّ كان كافياً لتوسيع الفجوة بين أهل مكَّة ، وأهل المدينة . وتعرفون أنتم : أنَّ الأساليب اللُّغوية تختلف بعد قليلٍ من المسافة ، ويتعصَّب لها أهلها تعصَّب النَّاطقين باللُّغات المختلفة تماماً ، وقد جرَّبت باكستان ذٰلك تجربةً أعتقد : أنَّه لم يجرِّبها إلا قليلٌ من البلاد .

ولا يفوتني بهٰذه المناسبة أن أؤكِّد : أن ما يراه عامَّة الدَّارسين للسِّيرة النَّبويَّة من الاتِّحاد الكليِّ فيما بين المجتمعين : المكيِّ ، والمدنيِّ ، والمدنيَّتين : المكِّيَّة ، والمدنيَّة ليس من الصِّحة في شيءٍ ، فإنَّ الدِّراسة الحديثة للسِّيرة تقرِّر : أنَّ اختلافاً واضحاً كان يوجد بين المدنيَّتين ، وكان أهل مكَّة ـ ولا سيما قريشاً ـ يحملون الشُّعور الزائد بالتَّفوُّق (COMPLEX SUPERRIORITY) يدلُّ علىٰ ذٰلك ما دار بين القرشيين الثَّلاثة ، وبين الأنصار في غزوة بدرٍ الكبرىٰ ، وأخالكم تتذكَّرون : أنَّ ثلاثة أبطالٍ قرشيِّين ، وهم : عتبة ، وشيبة ، والوليد بن عتبة ، قد برزوا في الميدان ـ ميدان بدر ـ ونادوا المجاهدين المسلمين للمبارزة بدءاً بالحرب علىٰ عادة العرب ، فبرز لهم ثلاثة فتية من الأنصار ، فقالوا : « ما لنا بكم من حاجة ! » ثمَّ نادىٰ

مناديهم : « يا محمَّد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا » . فلمَّا برز لهم عبيدة ، وحمزة ، وعليٌّ ـ رضي ٱلله عنهم ـ بأمر النَّبيِّ ﷺ قالوا : « نعم أكفاء كرام ! » ممَّا يدلُّ علىٰ نخوتهم القبليَّة ، وأنَّهم كانوا يعتزُّون بقبيلتهم ، وجنسهم ، ولا يرون غيرهم أكفَّاءً لهم في قليلٍ ، أو كثيرٍ ، وبجانب ذٰلك كان العنصر الأهمُّ من العناصر الَّتي كانت تشكِّل المجتمع المدنيَّ هم اليهود الَّذين كانت لهم السِّيادة (DOMINATION) والكلمة المسموعة ، فقد كانت اليهود لها حضارتها ، وثقافتها ، ولغتها ، وكانت هي الأمَّة الوحيدة المتحضِّرة الرَّاقية في الجزيرة العربيَّة ـ الَّتي كانت لها مدارس ، ومعاهد تعليميَّةٌ كانت تسمِّيها « المِدْراس » (بكسر الميم ، وسكون الدال المهملة) ـ وكانت تدعو غيرها من الشُّعوب أميَّةً ، فقد حكىٰ القرآن الكريم علىٰ لسانهم : ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ ﴾ ولا تزال اليهود تعتقد ذٰلك ، فهي تصف الشُّعوب كلَّهم بكلمة (GOYIM) الَّتي تعطي معنىٰ « غير المتمدِّن » و« سيِّىء الأدب » .

علىٰ كلٍّ فلو توسعتم في دراسة السِّيرة ؛ لعلمتم مدىٰ اختلاف المجتمعين : المكيِّ ، والمدنيِّ أحدهما عن الآخر رغم الوحدة اللُّغويَّة ، والوحدة النَّسبيَّة في آبائهم العليا ، وبما أنَّ المجتمعين قطعا مراحل الارتقاء في بيئتين مختلفتين اختلافاً تامَّاً ، فعادا ، وكأنَّهما مجتمعا دولتين مستقلَّتين ، ومن ثمَّ

فكان من الممكن ألَّا يندمج المهاجرون ، والأنصار اندماجاً كلياً ، ولا تتألف منهم وحدة تحمل طبيعة واحدة كالأدوية المركبة بالعناصر المختلفة والعقاقير المتنوعة ، ولا يتنازل كلٌّ من المهاجرين والأنصار عن شخصيتهم المستقلَّة ، وإذاً فلا تفيدُ الأدوية المركَّبة من المفردات الكثيرة ، ولا تعطي تأثيراً خاصّاً إذا كانت المفردات لم تَنْحَلَّ فيها ، ولم تذب .

ولم تكن القضيَّة قضيَّة المهاجرين ، والأنصار فحسب ، فقد كانت الأنصار تتوزعهما القبيلتان العظيمتان ـ الأوس والخزرج ـ اللَّتان كانت بينهما معارك ، وحروب في الماضي القريب ، كما تنشب الحروب بين أمَّتين متنافستين متخاصمتين ، أو دولتين تتربَّص إحداهما بالأخرىٰ الدَّوائر ، وكانت حرب بُعاث ـ الَّتي وقعت بين الأوس ، والخزرج قبل الهجرة بخمس سنوات ـ الحلقة الأخيرة من سلسلة الحروب الدَّامية ، وقتل فيها الطرفان أحدُهما الآخر شرَّ قِتلة ، وأذاق أحدُهما الآخر ألوان الشَّقاء ، وسوء العذاب ، وكانت لدىٰ كلٍّ من القبيلتين « مزدوجة » تتحدَّث عن تاريخها ، وتتغنَّىٰ بمجدها ، ومآثرها ، ومفاخرها وكان اليهود يواصلون المحاولات ـ حتَّىٰ بعد ما تشرَّفت القبيلتان بالإسلام ـ لإثارة نخوتهما القبليَّة ، وغيرتهما الجاهليَّة بالتَّذكير بهٰذه الوقائع الماضية في النَّوادي ، والمحافل الَّتي تضمُّهما ، فهناك روايةٌ

في كتب السِّيرة تقول : إنَّ القبيلتين أوشكتا في إحدىٰ المناسبات ـ بفعل مكيدةِ اليهود ، فقد أشاروا إلىٰ أحد إخوانهم بإنشاد ما نظم ، وقيل في حرب بُعاث ـ أن تشتبكا ، وأن توقع كلٌّ منهما بالأخرىٰ ؛ إذ خرج عليهم رسول ٱلله ﷺ ، فأطفأ هٰـذه الجذوات المستعرة الاتِّقاد بماءٍ باردٍ من الإخاء الإسلاميِّ ، والإيمان ، والعطف ، والحنان [١] .

علىٰ كلٍّ فكان بالإمكان أن تحدث هناك فوضىٰ جديدةٌ مكان الأمن والسَّلام ، والتَّضامن ، وأن تنشأ فتنةٌ جديدةٌ بدل أن تبرز قوةٌ موحَّدةٌ متعاونةٌ ، وكانت الأسباب لذٰلك متوفِّرةً ، كما سبقت الإشارة إليها في السُّطور السَّالفة ، وكان الكيان اليهوديُّ فعلاً أكبر ، وأنشط ، وأقوىٰ عاملٍ (FACTOR) لكلِّ هدمٍ ، وإفسادٍ ، ولا غرو ؛ فإن اليهود يملكون من مؤهِّلات الإفساد ، والتَّخريب ما لا تملكه أمَّةٌ في عالم البشر ، ولا يزالون يستأثرون بهٰـذه المزيَّة ! إذاً فكان في الحسبان أن يوقع العنصر اليهوديُّ بينهما العداوة ، والبغضاء ، ويجدِّد بينهما الحميَّة الجاهليَّة الَّتي تجعلهما صفَّين متقابلين متحاربين .

هٰـذا بالإضافة إلىٰ أنَّ الحياة المكيَّة كان عمادها التِّجارة

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ، الجزء الأول ، (ص : ٥٥٥) .

علىٰ حين كانت الحياة في المدينة تتوقَّف علىٰ الزِّراعة ، والفلاحة ، والغرس ، والتَّشجير ، وكان هـٰذا الاختلاف في الحياتين ناشئاً عن الاختلاف في الأوضاع الجغرافيَّة ، وقد كان هناك فرقٌ بين الحياتين بالنِّسبة إلىٰ المعاشرة العائليَّة ، والحياة الأسريَّة ، وكما أشار إلىٰ ذٰلك عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ في إحدىٰ المناسبات .

وحدة العقيدة والهدف :

ولا أعرف : أنَّه أقيمت هناك أخوَّةٌ فيما قبل ، أو أوجدت آصرةٌ ـ في مثل هـٰذا التَّنسيق والدقَّة ، والوضوح ـ علىٰ مجرَّد أساس الوحدة في العقيدة ، والغاية ، قامت هـٰذه الأخوَّة فيما بين المؤمنين المخلصين الَّذين كانوا يؤمنون بالوحدة الإنسانيَّة ، والوحدة الربانيَّة ، وكانوا يتمتَّعون بالثَّبات علىٰ وحدة العقيدة ، ووحدة الهدف ، وكان ذٰلك قوَّةً جديدةً أنشئت لإنقاذ العالم المنهار ، وتخليص الإنسانيَّة عن بؤسها ، وشقوتها .

قليلٌ في العدد ، جليلٌ في الهدف :

وما هو مركز هـٰذه الجماعة الناشئة الممثِّلة لتلك الأخوَّة المنقطعة النَّظير ؟ وما هو مكانه من الثِّقل ، والاعتبار ؟ وما

عدد أعضائها ، وأفرادها ؟ يتحدَّث القرآن الكريم عن كلِّ ذٰلك ، فيقول :

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

إذاً كانوا من القلَّة بحيث يعدُّون بالأصابع ، وكانوا من الخفَّة بحيث لا يحسب النَّاس لهم حساباً ، ولا يلقون إليهم بالاً ، فكانوا يخافون كلَّ لحظةٍ أن يتخطَّفهم الأعداء تخطُّف الغربان ، والحدآن قديد اللَّحم دون أن ينالوا منهم بشيءٍ ، أو يؤذوا جنبهم بشوكةٍ .

كانوا في هٰذه الحالة من الضَّعف ، والعجز ، والقلَّة ، والخوف ، الَّتي عبَّر عنها القرآن الكريم تعبيراً لا أبلغ منه ، ولا أروع ، وأدقَّ ، ولٰكن علىٰ الرَّغم من ذٰلك لننظر ما هو المركز الَّذي كان يحتلُّه هٰؤلاء المسلمون المستضعفون ؛ لنعلم ضخامة المسؤولية الَّتي ألقيت علىٰ عاتقها . . . أيُّها السَّادة أؤكد لكم أنِّي أقضي من عجبي كلَّما أقرأ الآية التالية الَّتي تتحدَّث عن مسؤوليَّة هٰذه القلَّة الموحَّدة . . . ما أضخم المسؤولية ، وأدقَّها ، وأصعبها ، وما أعظمها لدىٰ الله ! وأكرمها يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال : ٧٣] . . يخاطب المهاجرين ،

والأنصار مؤكِّداً عليهم : أنَّهم إن لم يقوموا بتحقيق هٰذه الوحدة ، ولم يدعموها ، ويحكموها بكلِّ ما يلازمها ؛ تكن في أرض ٱلله فتنةٌ عظيمةٌ ، وفسادٌ كبيرٌ . . . لو سمع هٰذه الكلمات رجلٌ سياسيٌّ يقيس الأمور بظواهرها ، لوقف مدهوشاً حائراً واجماً ، ولتساءل : ما هو رصيد هٰذه القلَّة من القوَّة ، وما هو واقعها من الاعتبار ؟ . . . إنَّها كاللِّسان المسكين يحاصره (٣٢ سناً) ، أو كنقطةٍ في المحيط ، أو كقطرةٍ أمام البحر الزَّاخر الهادر ، فمن أين لهٰذه الوحدة القليلة المؤلَّفة من المهاجرين ، والأنصار قدرةُ القضاء علىٰ الفتنة العظيمة ؟ ! . . .

لٰكنَّ ٱلله ـ العليم الخبير ـ أكرمها بهٰذا « الوسام » ومنحها هٰذه المرتبة من الشَّرف ؛ لأنَّه يريد لها القيام بعملٍ جليلٍ ، وقيَّضها لحاجةٍ ملحَّةٍ ، حاجة الإبقاء علىٰ الحضارة الإنسانيَّة ، وإنقاذ العالم البشريِّ الحائر .

لم يكن ليدرك صدق الآية القرآنيَّة هٰذه إلا الَّذين يؤمنون بقدرة ٱلله المطلقة ، وكانوا يدركون روح هٰذه الوحدة الناشئة ـ رغم قلَّتها العدديَّة ـ وكانوا يدركون قيمتها MERIT وأهليَّتها ، وثقلها المعنويَّ ، وما كانت تتمتَّع به من الحماس ، والنَّشاط ، والتألُّم ، والتَّفجيع للإنسانية المنكوبة ، وما كان يتَّصف به أعضاؤها من الرَّهبنة في اللَّيل ، وقضاء النَّهار علىٰ

صهوات الخيل ، والآلام ، والأشجان الَّتي كانوا يعيشونها ، وكانوا يدركون كيف يضحُّون هم بأنفسهم ، وبأفلاذ أكبادهم ، وبأموالهم في سبيل ٱللهِ ، ومدىٰ القلق الَّذي يعيشونه في التفكير في إنقاذ النَّوع البشريِّ من الدَّمار ، ولنشر الهداية ، والفضيلة ، والفلاح في شرق الأرض ، وغربها ، ولمنع الإنسان أن يحارب بعضه بعضاً ، ويأكل القويُّ منه الضَّعيف .

لا يدرك صدق هٰذه الآية إلَّا هٰؤلاء الصِّنف من النَّاس ، لأنَّه كان صعباً علىٰ القول ، والأفهام ـ حتَّىٰ بالقياس إلىٰ الفتنة المعاصرة لهٰذه الوحدة النَّاشئة ، وفي تلك الملابسات السِّياسيَّة ، والحضاريَّة ، والمدنيَّة ـ أن تدرك هٰذا السِّرَّ ، سرَّ تشريف هٰذه الوحدة بهٰذه المرتبة العظيمة ، وتكليفها بهٰذه المسؤوليَّة الضَّخمة ؛ حتَّىٰ قيل في حقِّها : إذا لم تتحقَّق ولم تتقوَّ ؛ تموج الدُّنيا الإنسانيَّة بالفتن ، والويلات ، وتذوق ألوان الشَّقاء ، والبلاء ، ونيط بها مسؤوليَّة إنقاذ العالم من نار الفساد ، والدَّمار ؛ الَّتي كادت تأتي عليه ، وتدعه رماداً . لو نظرتم في خريطة العالم المسيحيِّ في القرن السَّابع ـ ولا أريد الخريطة الجغرافيَّة ، وإنَّما أريد الخريطة الحربيَّة ، وخريطة الشُّعور المتطرِّف بالتفوُّق ، والتَّبجُّح بالعَدَدِ ، والعُدَدِ والقوَّة ـ وما ترك من تأثيرٍ مؤلمٍ علىٰ العالم ؛ لعرفتم صدق ما صوَّره شاعر الإسلام حكيم الشَّرق الفيلسوف الإسلاميُّ الدكتور محمد

إقبال في أبياته الرَّائعة البليغة الآتية :

« إنَّ الإنسانية ذاقت ألوان الشَّقاء ، والبلاء ، والدَّمار ، والهلاك ، علىٰ أيدي « الإسكندر » و« جنكيز » وتاريخ الأمم العريق ينادي رجال الفكر ، والتَّجربة ، ويتقدَّم إليهم برسالةٍ خالدةٍ : إنَّ الشُّعور الزَّائد بالقوَّة خطرٌ أيُّ خطرٍ علىٰ المرء ! إنَّه كسيلٍ جارفٍ يكتسح البلاد ، والعباد ، ويبقي العقل ، والفكر ، والإدراك ، والعلم أمامه كغثاء السَّيل » .

عبء العالم كله علىٰ وحدةٍ قليلةٍ متواضعة :

ألقيت مسؤولية العالم كلِّه علىٰ وحدةٍ جديدةٍ متواضعةٍ نشأت حديثاً علىٰ أرض المدينة المنوَّرة ، وأكَّد علىٰ هٰذه المجموعة الإنسانيَّة ، بألاَّ تألو جهداً في إحكام هٰذه الوحدة ، وتعميق جذورها ، وريِّها ، وسقيها ، والسَّهر عليها ، والإيمان بها ، والولاء لها ، وألاَّ تدَّخر وسعاً في التَّفجيع علىٰ الإنسانيَّة الشَّقيَّة ، ولا يحولنَّ بين هٰذه الغاية الكريمة الجليلة مصلحةٌ ذاتيَّةٌ ، أو مصلحةٌ جماعيَّةٌ ، أو أغراضٌ حزبيَّةٌ . . . وحكم بأنها لو أهملت في هٰذا الشأن ؛ فإنَّ الإهمال يؤدِّي إلىٰ سلسلة من الويلات ، وإلىٰ سيلٍ جارفٍ كاسحٍ من الشَّقاء اللاَّمتناهي .

صدِّقوني : أنِّي كلَّما أقرأ هٰذه الآية الكريمة : ﴿إِلَّا

تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴾ [الأنفال : ٧٣] يأخذني العجب العجاب : وأسائل نفسي ـ في حيرةٍ ـ أين هٰذه القلَّة المتواضعة من هٰذه المسؤولية الجسيمة ، هٰذه القلَّة الَّتي كانت من صغر الحجم بمكانٍ يحتاج المرء فيه للرُّؤية إلىٰ الألمعيَّة ، والفراسة ؛ وإن لم يحتج إلىٰ استخدام المكبِّرة .

ضُغِط علىٰ تلك المجموعة المتواضعة أن تركِّز كلَّ عنايتها علىٰ تأصيل هٰذه الوحدة وتنميتها ؛ لأنَّها لو قصَّرت في ذٰلك ؛ لسوف تأكل هٰذه الوحدات ـ المنتشرة في أرجاء الأرض ، والنَّاعقة هنا ، وهنالك ـ النَّوع البشريُّ كلَّه ، وذٰلك لأنَّها ليست في الواقع وحدات ، إنَّما هي وحشيَّات ، إنما هي مؤامرات ضدَّ النوع البشريِّ ، لأنَّ هٰذه الوحدات تريد بعضها أن تنمو علىٰ حساب البعض ، وتكوِّن مجموعةً ، فتكون نذر خطرٍ للمجموعات البشريَّة كلِّها ، ولا تزال اليوم وحشياتٌ تقوم علىٰ قدمٍ وساقٍ باسم الوحدات ، ونرىٰ اليوم أنواع الفوضىٰ ، ولا تفـريـق ، ولا تمييـز بيـن التَّجمُّعـات ، والجمعيَّـات ، والجامعات ، وأنصارها دائماً يصفونها بوحدات ، فمثلاً : هي وحدة كذا ، وهي دولة كذا ، وهي كتلةُ كذا ، وهي فلسفة كذا ، وهو النِّظام الفلانيُّ ، لٰكن هٰذه الوحدات كلُّها تكذِّب بعضها بعضاً ، وتحارب بعضها بعضاً ، ولا تعترف أيُّ واحدة منها بأخواتها الأخرىٰ أبداً ، وكلُّ وحدةٍ منها قرَّرت : أنَّها

لا تحيا إلا إذا غابت كلُّ الوحدات سواها في ضمير الغيب .

إذاً فإذا كانت هناك وحدةٌ يمكن أن تكون رحمةً للإنسانيَّة كلِّها ، فإنَّما هي الوحدة الإنسانيَّة ، والوحدة الإيمانيَّة الَّتي يصحُّ التَّعبير عنهما بالوحدة الإسلاميَّة ؛ ليس إلاَّ .

الوحدة اللُّغوية وجناياتها :

هـٰذه اللُّغة التي هي غاية في البراءة ، والعصمة ، والتي تتساقط كلماتها عن الأفواه البشريَّة كالأزهار في جمالها ، وبهائها . هـٰذه اللُّغة الَّتي وضعت للتأليف بين القلوب ، ولإدخال السُّرور ، والفرح عليها ، ولكي تكون وسيلة التَّغَنِّي بالحبِّ ، والمودَّة ، ولتقريب الإنسان بعضه من بعض . هـٰذه اللُّغة الَّتي استُخدمت كترجمانٍ صادقٍ لعواطف الحبِّ ، وللكشف عن أسرار الطَّبيعة ، والحياة . هـٰذه اللُّغة الَّتي طالما أطربت الإنسان ، وجعلته يهتزُّ من النَّشوة ، وطالما كانت رسول الحبِّ ، والسَّلام ، والرَّحمة ، والأمان ، والعطف ، والحنان ، ورفعت الحاجز النفسيَّ فيما بين القلوب المتقاطعة ، وجبرت القلوب المنكسِرة ، وفجَّرت أنهار الودِّ ، والوئام ، إنَّها كانت السَّبب في بعض الأحيان في الفتك بمئات الآلاف من النُّفوس البشريَّة . هـٰذه هي الَّتي قامت من أجلها مجازر وحشيَّةٌ ؛ وذُبح فيها الَّذين كانوا يحملون اللِّسان الذي

كان يحمله القتلة الوحشيُّون .

هٰذه الوحدة اللُّغويَّة المزعومة ، والحبُّ الزَّائد لها ، والعصبية العمياء من أجلها ، قد فعلت الأفاعيل بأولٰئك الَّذين لم ينبسوا بشيءٍ سوىٰ كلمة الحبِّ ، والحنان ، والَّذين أحيوا اللَّيالي بذكر ٱلله ، وعمروا خلوات اللَّيالي بالتسبيح ، والمناجاة مع ٱلله ، إنَّها جرَّعتهم كأس الموت ، وولغت في دمائهم .

إنَّ هٰذه اللغة إذا جعلت أساس وحدةٍ مصطنعةٍ ما أنزل ٱلله بها من سلطانٍ ، وليس لها وزن حبَّة خردلٍ في الميزان ، فإنَّها تدع جهود الأنبياء كلَّها هباءً منثوراً ، وتتحوَّل إلىٰ قوَّةٍ هادمةٍ ، تهدم كلَّ ما بناه الأوائل في آنٍ واحدٍ ، وتذهب بكلِّ ما قام به السَّلف من جهود الإصلاح ، ومحاولات البناء ، وتأتي علىٰ الثروة الحضاريَّة ، والثَّقافيَّة كلِّها في ثانيةٍ ، أو أقلَّ . . . إنَّ الوحدة اللُّغوية ـ أيَّها السَّادة ـ جرَّت من الويلات ، والشُّرور ما جعل الإنسانيَّة تقف أمامه مدهوشةً واجمةً ، وأفقدها الشُّعور ، والوعي ، وقد اكتويتم بهٰذه النَّار [١] ، ولا يزال هٰذا الخطر الأسود يحدق بكم ، إنِّي

(١) إشارة إلىٰ مجزرة باكستان الشَّرقي ، وليرجع للتَّفصيل رسالة « جاهليَّة اللُّغة » طبع « المجمع الإسلامي العلميِّ » ندوة العلماء=

أخاف أن ينهض داهيةٌ مغرضٌ ، ويستخدم اللُّغة كوسيلةٍ ناجحةٍ لإقامة الحواجز ، والفروق ، ولإثارة الحميَّة الجاهليَّة ، وأن يستغلَّها لأغراضه السِّياسيَّة ! حقَّاً إنَّ هٰذه اللُّغة تستطيع اليوم أيضاً بكلِّ جدارةٍ أن تلعب ذٰلك الدَّور التخريبيَّ الَّذي لعبته السُّيوف في أيدي « سيرز » و« قيصر » و« جنكيز » .

الوحدة الحضارة ونتائجها الوخيمة :

وكذٰلك الحضارة ، فقد كانت رسالتها الوحيدة : أن يتحضَّر الإنسان ، وأن يشعر بمواضع الضَّعف في نفسه ، ويعترف لغيره بالفضل لو كان يتَّصف به ، يعشق الحسن ، والجمال حيثما وجد ، ويقدِّر الفنَّ ، والأناقة في شتَّىٰ صورهما ، وأشكالهما ، ويطرب إذا أنشد عليه أحدٌ شعراً بليغاً ، يجمع الجمال الفنيَّ ، والموسيقيَّ ، ويعجب بالذَّكاء ، والعبقريَّة ، والبطولات ، والمآثر مهما اتَّصف بذٰلك شعبٌ وأمَّةٌ ، وأن يعتبره ملكاً لنفسه بصفته ثروةً إنسانيَّةً مشتركةً . . . كان من اختصاص الحضارة أن تنفخ في الإنسان الشُّعور بأنَّ المآثر مهما وجدت ، وحيثما وجدت هي كأنَّها ملكه الشَّخصيُّ ، فليحتضنها ، وليقدِّرها حقَّ قدرها ، لٰكن . . . الحضارة ، حينما تُحرم التوجيه الرَّبَّانيَّ ، وتحيد عن الهدي

= لكهنؤ ، الهند .

النَّبويِّ ؛ لا تعود حضارةً ، بل تتحوَّل آلة تعذيبٍ ، وإبادةٍ ، ودمارٍ للإنسانيَّة ، أفما قرأتم قصَّة محاربة الحضارات للحضارات ، وقصَّة صراع الثَّقافات مع الثَّقافات .

أيُّها السَّادة ! قد افتضحت اليوم الأسطورة القائلة بغناء مجرَّد الوحدة ، وقد تقرَّر بما لا يدع مجالاً للشك : أنَّ الوحدة ـ أيَّ وحدةٍ كانت ـ إذا لم تمدَّها الوحدة الإيمانيَّة ، والوحدة الإنسانيَّة ؛ فإنَّها تتحوَّل إلـٰهاً يُعْبَد ، وتقدَّم له القرابين ، وربَّما تصبح بدل أن تتنعم بها الإنسانيَّة ، ويطيب بها العيش ، وتلتذَّ بها الحياة ، وتتحقَّق بها الأمانيُّ ، محلَّ تقديسٍ ، وإجلالٍ ، وربما تعود فلسفةً ، ونظاماً يُفرض علىٰ الإنسان (رغب فيه ، أو رغب عنه) ويرغم علىٰ الإذعان له ، والخضوع لجلالته . . . إنَّما جرَّت الويلات علىٰ الإنسانيَّة آلاف مرَّاتٍ ، وعهدتها الإنسانيَّة في أدوارها الكثيرة ذئباً ضارياً شرساً .

السَّبب في الحربين العالميَّتين : الأولىٰ ، والثانية :

أيُّها السَّادة قد يكون فيكم كثيرٌ ممَّن أدرك الحربين العالميَّتين : الأولىٰ (١٩١٤م) والثَّانية (١٩٣٩م) ، وقد يكون فيكم من لم يعهد إلَّا الأخيرة . . . فماذا كان

السبب ـ يا ترىٰ ـ في هـٰذه المجازر ، وهـٰذه الإغارات ، والهجمات ، والحروب الدَّاميَّة ، هل كان ذٰلك صراعاً بين الحقِّ ، والباطل ؟ هل كان هناك باطلٌ يطارد الحقَّ ، فأرادت دولةٌ ، أو أمَّةٌ ، أن تأخذ للحقِّ الثأر ، وتقف بجانبه ؟ لا ، وكلا ! !

إنَّ العامل الحقيقيَّ في كلِّ ما يجري علىٰ السَّاحة العالميَّة من الفساد الَّذي لا نهاية له ، ومن الجرائم الَّتي لا آخر لها ، والفوضىٰ الَّتي لا انقطاع لها ، هو الشُّعور الزَّائد بالتَّفوُّق ، والكبرياء ، وأصارحكم ـ أيُّها السَّادة ـ ليس هناك شعبٌ يريد أن يعيد للإنسانيَّة هدوءها ، وقرارها بالقضاء علىٰ أسباب هـٰذه الجرائم ، والفوضىٰ ، بل كأنَّ كلَّ شعبٍ يقول : ما لي ولذٰلك . . . تأكَّدوا . . . أنَّه لا يهمُّ أحداً الإصلاح ، وإنَّما يريد ألاَّ تكون هـٰذه الجرائم ، إلا تحت إشرافه هو . . . كأنَّ كلَّ أمَّةٍ تقول : إنَّ هـٰذا العالم بخير إذا عادت السَّيطرة عليه إلينا ، وتكون لنا الكلمة المسموعة دون الأمَّة الفلانيَّة .

فمثلاً ، هـٰذه الحرب العالميَّة الأولىٰ ، ماذا كان السَّبب فيها ؟ شعرت ألمانيا شعوراً قويَّاً ملحَّاً أن تكون لها تلك السَّيطرة علىٰ الأسواق العالميَّة ، والمتاجر الدَّوليَّة ، والوسائل ، والذَّخائِر ، والبضائع في العالم ، الَّتي لا تزال بريطانيا تستأثر بها منذ أمدٍ بعيد .

وتلك هي طبيعة أحزابنا السيّاسيَّة كلِّها دون استثناءٍ ، وقد كرَّرتُ القول في كثير من الحفلات ، والتَّجمُّعات الَّتي ضمَّت أخلاط النَّاس في الهند أيضاً ، أكَّدت فيها : أنَّ هـٰذه الأحزاب السِّياسيَّة لا يهمُّها في شيءٍ إزالة الفوضىٰ والفساد ـ وإن لم يصرِّح بذٰلك بلسان المقال ـ وإنَّما يعنيها ألَّا يجري الفساد وأن لا تدور الفوضىٰ إلا تحت تصرفاتها ، وأمرها ونهيها ، ولكم أن تجرِّبوا ذٰلك . . . فلو حوَّلتم إليها سلطتكم ؛ لما وجدتم جديداً ، وتقدُّماً في القضيَّة أو تأخُّراً ؛ لأنَّها لا تختلف اختلافاً مبدئياً منهجيّاً ، أو أخلاقيّاً .

ولو ألقيتم نظرةً علىٰ المسرح العالميِّ ؛ لرأيتم : أنَّ هاتي الأمم الأوربيَّة الَّتي شنَّت بعضها حرب إبادةٍ علىٰ البعض ، وأراقت الدِّماء بكلِّ سخاءٍ عدَّة مرَّات ، لم تكن محاربةً بعضها بعضاً من أجل الاختلاف في المبادئ ، والأهداف ، أو بين المسيحيَّة ، وغير المسيحيَّة ، أو بين العدل ، والظُّلم ، أو من أجل إعداد خريطةٍ أخرىٰ جديدةٍ للحياة الإنسانيَّة ، لا ، بل لمجرَّد أن ينضمَّ الإنسان إلىٰ المعسكر الفلانيِّ ، وأن تجتمع الدُّنيا تحت الرَّاية الفلانيَّة .

ومعذرةً إليكم ـ أيُّها السَّادة ـ إنَّ أحزابنا السِّياسيَّة في الدُّول الشَّرقيَّة لدينا تفكِّر نفس هـٰذا التَّفكير ، وتنحو نفس

المنحىٰ ، فهي لا تتفجَّع علىٰ أنَّ المواهب الإنسانيَّة تضيع ، وأنَّ الشَّباب يقع فريسة الشُّذوذ ، والانحراف ، والفساد الخُلقيِّ ، وأنَّ النظام التعليميَّ المعاصر خاطىءٌ ، أو عقيمٌ ، فيحتاج إلىٰ التَّغيير ، والتَّعديل . . . كلُّ ذٰلك لا يهمُّ أحداً ، وإنَّما الهمَّة مصروفةٌ في الحصول علىٰ المُلك ، والسُّلطان .

المشكلات التي تواجه المسلمين :

أيُّها السَّادة ! قضية مسلمي باكستان لا تنحصر في أنَّهم يحملون لواء الوحدة عبر باكستان فحسب ، بل قضيَّتهم أعمق ، وأشمل من ذٰلك ، فهم يتقلَّدون مسؤولية تمثيل هٰذه الوحدة في خريطة العالم السِّياسيَّة ، ويتبنَّون تحقيقها ، وتجسيدها (DEMONSTRATION) والدَّعوة إليها ، وجمع الناس تحت رايتها . . . ومن هناك فلئن تراجعوا عنها ، وخذلوها ، أو حدث في هٰذه البلاد التَّصارع علىٰ أساس اللُّغة ، أو الثَّقافة ، والحضارة ، أو ظهرت فتنة إحياء الحضارة المحليَّة القديمة ، فينهض هناك أناسٌ يتحمَّسون لإحياء الحضارة الهندوكيَّة العريقة فيما قبل الإسلام . . . فالويل لهٰذه البلاد ، ولا يستطيع أحدٌ أن ينقذها من مخالب الدَّمار إلا ٱلله العليُّ القدير ، وذٰلك لأنَّ ما يأخذ بحجز هٰذه البلاد ، ويربط بين العناصر المتباينة الَّتي تشكلها ، هو هٰذه الوحدة الإيمانيَّة ، والوحدة العقيديَّة ، والوحدة الإسلاميَّة ، فإن رحتم

تقيمون هٰذه الوحدات الجديدة المصطنعة ، وجعلتم تنصبون هٰذه الأصنام التي نحتتها الأيدي البشريَّة ، والَّتي ثار عليها شاعر الإسلام الدُّكتور محمد إقبال ، ونعىٰ عليها في شعره البليغ قائلاً : « حطِّموا أصنام الألوان ، والعناصر ، والأجناس ، وانصهروا في بوتقة الإسلام ، حتَّىٰ لا يبقىٰ هناك « تورانيٌّ » أو « إيرانيٌّ » أو « أفغانيٌّ » ، فإنَّ هٰذه الأصنام من اللَّون ، والجنس ، والعنصر ، والثَّقافة ، والحضارة ، و . . . و . . . ، سوف تفعل فعلها ، وتعطي تأثيرها الأسود الَّذي يؤدي بهٰذه البلاد إلىٰ ما تقشعرُّ منه الجلود ، وتشيب لهوله الولدان ، فقد ذاقت علىٰ أيدي هٰذه الأصنام بلادٌ من أرض ٱلله ألواناً من الشَّقاء . . . هٰذه تركيا انتبه فيها الشُّعور بإحياء « حضارة آسيا الوسطىٰ » وتولَّىٰ كِبْرَ ذٰلك « ضياء كوك ألب » وكان بطل هٰذه المسرحيَّة « كمال أتاتورك » ، وكذٰلك هبَّ في إيران من حين لآخر هٰذا الفكر الأسود ، وهتف أشوابٌ من النَّاس بإعادة « الحضارة الإيرانيَّة قبل الإسلام » . . . . فحذار ـ أيُّها السَّادة ـ أن يستيقظ هٰذا الشُّعور في بلادكم في قلوب أناسٍ ، وينادوا هٰذا النِّداء الجاهليَّ ؛ لأنَّه نذر خطرٍ لا نهاية له . . .

وتأكَّدوا : أنَّه ليس هناك شيءٌ يمكن أن يكون ضماناً علىٰ الأمان إلا الوحدة الإيمانيَّة ، والوحدة الإسلاميَّة الَّتي هي

صِمَامُ الأمن ، والسَّلام في الواقع ، وإذا قامت هناك وحدةٌ ما سوىٰ هـٰذه الوحدة ؛ فسوف تشتِّت شمل هـٰذه البلاد ، وتمزِّق هـٰذا المجتمع الهادئ تمزيقاً ، وتضرب القوىٰ بعضها ببعضٍ ، وتنفخ في العصبيَّات الجاهلية ـ تلك الَّتي ضرب الإسلام علىٰ جذورها ـ روحاً جديدةً ، فتنفض عن نفسها الغبار ، وتهتزُّ ، وترتصُّ .

ولا أعلم : أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد شدَّد في الكلام في قضيةٍ من القضايا ، أو في مناسبةٍ من المناسبات ما شدَّد فيما يتَّصل بالحميَّة الجاهليَّة ؛ لأنَّه ﷺ كان يدرك بفراسته النَّبويَّة ، وبإدراكه للحقائق ، واطِّلاعه علىٰ تاريخ الأمم والدِّيانات ـ بجانب كونه مَنْزِل الوحي ، والإلهام الرَّبَّانيِّ : أنَّها أضرُّ الفتن ، ورأس الفساد . قال عليه الصَّلاة والسَّلام : « من تعزَّىٰ عليكم بعزاء الجاهليَّة فأعِضُّوه بِهَنِ أبيه ، ولا تَكْنُوا »[1] .

يعني : إذا نادىٰ أحدٌ بنداء الجاهلية ، واستعداها عليكم ، وقال : يا لهـٰذه القبيلة ، ويا لتلك الأمَّة ! أو : يا لهـٰذه اللُّغة ، والثَّقافة ! أو نال من أمَّةٍ ، وشعب علىٰ أساس العنصريَّة ، والجنسيَّة ، والنَّسب ، أو علىٰ أساس عصبيَّة من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (ج٥ / ١٢٦) .

أمثال هٰذه العصبيَّات ؛ فتناولوه بألسع الكلام ، وألدغه ، ولا تلتجئوا إلىٰ الكناية ، والإشارة في التَّشديد ، والتَّشنيع .

وتعلمون ـ بدوركم أيُّها السَّادة ـ : أنَّ هٰذه العصبيَّة تستطيع أن تبيد في آنٍ واحدٍ الثَّروة العلميَّة ، والأدبيَّة ، والثَّقافيَّة ، والحضاريَّة الغنيَّة الَّتي تكوَّنت في آلاف الأعوام والسِّنين ، وأن تجعل المحاولات الإصلاحيَّة المخلصة الَّتي قام بها عباد ٱلله المؤمنون الصَّالحون بعد تضحياتٍ جسام هباءً منثوراً ، ورماداً تذروه الرِّياح في مكانٍ سحيقٍ ، إنَّها أعمىٰ العمىٰ ، إنَّها لا تبصر ، ولا تعي ، ولا تعقل ، ولا تراعي في أحدٍ إلاًّ ، ولا ذمَّةً .

إنِّي أريد أن أحذِّركم ، وأن أبلغ : هٰذا التَّحذير إلىٰ أقصىٰ ما يمكن أن أبلغ إليه : إنَّ أخوف ما أخاف علىٰ هٰذه البلاد هو العصبيَّة اللُّغوية ، أو العصبيَّة الحضاريَّة ، والدَّعوة إلىٰ إحياء الحضارات القديمة ، وأريد أن أطلق هٰذا الحديث ؛ لأنَّ ذٰلك لا يخصُّ بلداً دون بلد ، إنَّه خطرٌ مدلهمٌّ علىٰ كلِّ بلدٍ يمنىٰ بهٰذه المصيبة ، خطرٌ علىٰ مصر الحبيبة مثلاً إذا دعت إلىٰ الحضارة الفرعونيَّة ، كما حدث قبل أعوام ، وخطرٌ علىٰ إيران الشَّقيقة إذا تعزَّت بـ : « سائرس » واعتبرته « البطل النَّموذجيَّ » .

وتفادياً من ذٰلك تشتدُّ الحاجة إلىٰ إحكام هـٰذه الوحدة الكريمة ، الوحدة الإسلاميَّة ، لأنَّها هي وحدها رسول الأمن والسَّلام ، وقادرةٌ علىٰ البناء ، والإصلاح ، وهي وحدها الَّتي تجمع ، ولا تفرق ، تؤاخي ، ولا تعادي ، ترحم ، ولا تقسو ، تبني ، ولا تهدم ، وقد امتنَّ ٱلله علينا بهـٰذه النِّعمة الجليلة :

﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

يعني : اذكروا كيف كان بعضكم حرباً علىٰ بعض ، يلغ كلٌّ منكم في دم أخيه ، فألَّف بين قلوبكم ، وقامت بفضله بينكم أخوَّةٌ قويَّةٌ منقطعة النَّظير ، تركت العالم البشريَّ يقف منها موقف المدهوش المتحيِّر ، ويقضي من عجبه حينما يرىٰ في كتب السِّيرة مظاهر هـٰذه الأخوَّة العجيبة . . . هـٰذا أبو عزيز أخو مصعب بن عمير ـ رضي ٱلله عنه ـ ، يُشَدُّ بالوثاق ، فيمرُّ به مصعب ، فيشير علىٰ الموثق بالإحكام ؛ لأنَّه ثريٌّ يمكن أن يؤدِّي في فديته مبلغاً خطيراً ، فيقول أبو عزيز ـ حينما يرىٰ من أخيه الشَّقيق موقفاً لم يكن يتوقَّعه ـ كنت أرجو : أنَّك ترقُّ لحالي ، وتتوسَّط في تخليصي ، وتشفع لي بخير ! فيتبرَّأ منه مصعب ، ويقول : لست أخي ، وإنَّما الذي يوثقك هو أخي !

إلىٰ هٰذا المبلغ قد بلغت هٰذه الأخوَّة يا سادة ! وإلىٰ هٰذا الحدِّ ، وحَّدتهم هٰذه الوحدة ، وحدة العقيدة ، والغاية .

أمَّا الوحدة اللُّغويَّة ، فلا تغني غناءً ، وإنَّكم تعرفون علاقة ما بين النَّاطقين باللُّغة الواحدة بعضهم ببعض ، هل استطاعت أن توحِّدهم ، وأن تجرِّدهم من الأنانيَّة ، والأهواء النَّفسيَّة ، والأغراض الذَّاتيَّة الرَّخيصة ، وأن تجعلهم إخواناً متحابيِّن ، متجاوبين ، متعاطفين حينما يجدون فرصةً من الوقوف في وجه النَّاطقين بغير لغتهم ، وأن توقظ فيهم الشُّعور الإنسانيَّ ، فيكرم بعضهم بعضاً ، ويحترمون دماء إخوانهم ، وأعراضهم ، وأموالهم ، كاحترامهم لدمائهم ، وأموالهم ، وأعراضهم .

حقاً : إنَّ الوحدة اللُّغويَّة ليست بشيءٍ ما لم تكن هناك وحدةٌ قلبيَّةٌ ، وتجاوبٌ عاطفيٌّ ، وانسجامٌ روحيٌّ ، فقد رأيتم : أنَّ اللُّغة وحدها تعجز عن أن توحِّد ، بل إنَّها بالعكس من ذٰلك تقوم بدورٍ سلبيٍّ : إنَّها تؤلِّب الإنسان علىٰ الحرب ضدَّ الإنسان باسم اللُّغة .

أنتم تتشرَّفون بمنصب الدَّعوة إلىٰ الوحدة الإسلاميَّة :

يا سادة ! قبل أن أنهي حديثي أريد أن أُصرِّح بأنَّ ٱلله لم

يكرمكم بنعمة هٰذه الوحدة ـ الوحدة الإسلاميَّة ـ فحسب ، بل أسند إليكم مسؤولية الدَّعوة إليها ، فيتحتَّم عليكم أن تمثِّلوها أمام العالم ؛ حتَّىٰ يرىٰ الناس بأمِّ أعينهم آثارها ، وثمارها الحلوة . أرجوكم أن تكونوا علىٰ مستوىٰ هٰذه المسؤولية العظيمة ، وعلىٰ مستوىٰ هٰذا الشَّرف الكبير ؛ حتىٰ إذا أراد هٰذا العالم الَّذي يضطرب من حولكم أن يرىٰ نموذج الوحدة الإسلاميَّة ، يمكنه أن يجد في باكستان متمنَّاه ، وطلبته ، فلا تسمحُنَّ لوحدة جاهليَّةٍ في داخل حدودها بالنُّشوء ، والارتقاء ، والتَّرعرع ، والنَّماء ، لأنَّها تجعل قلوبكم شتَّىٰ ، وتوزِّعكم في كتلٍ ، وجماعاتٍ ، وتخلق لكم مشكلاتٍ معقَّدةً يعجز عن حلِّها العقلاء ، وقادة الفكر ، ورجال السِّياسة ، مهما بلغوا من عمق الفكر ، ورجاحة العقل .

إنَّه كفرٌ بنعمة ٱلله ، ونكرانٌ لفضله ، أن تُزعزعوا تلك الرَّكيزة الَّتي عليها تأسَّس هٰذا المجتمع ، وأن تضيِّعوا ذٰلك الهدف الأسمىٰ الَّذي من أجل تحقيقه أقيمت هٰذه الدَّولة . . . لا بدَّ أن تلاحظوا ما هي الدَّوافع التي جذبت أبناء الإسلام إلىٰ هٰذه المنطقة ، والغرض الَّذي من أجله تجمَّعوا ، والنُّور الذي عليه تساقطوا ، هل اللُّغة هي الَّتي جمعتهم هنا ، أو الحضارة هي الَّتي جاءت بهم ؟ لا ، وكلاَّ ! وربَّما يمكن أن يختلف سكَّان مقاطعةٍ في هٰذا البلد عن سكَّان مقاطعةٍ أخرىٰ في

المدنيَّة ، والاجتماع اختلاف الأمَّتين ، وهٰذا الاختلاف طبيعيٌّ ، ولو ألقيتم نظرةً واحدةً علىٰ هٰذا الحفل الكريم ؛ لرأيتم هٰذا الاختلاف فعلاً ، فما هي الجامعة الَّتي تجمعهم علىٰ هٰذا الاختلاف ، وما هي الرَّابطة التي تربط بعضهم ببعض رغم هٰذا الفرق الكبير ؟ !

إنَّما هي الوحدة الإيمانيَّة بكلِّ تأكيدٍ ، وتلك هي الَّتي تستطيع أن تُظِلَّ توحُّدكم ، وتقوِّيكم ، وتشدَّ عضدكم في المستقبل ، وتستطيع أن تبقي علىٰ عزِّكم ، وشرفكم ، ومكانتكم ، وتعطيكم ضمان السَّلام الدَّائم ، فاحتضنوها ، وقدِّروها حقَّ تقديرها ، وتقلَّدوا مسؤولية الدَّعوة إليها ، وسوف يكون ذٰلك منكم خدمةً قيِّمةً لهٰذا العالم الجريح المُثْخَن من التمزُّق ، والتَّشتُّت ، والانشطاريَّة بجانب كونها خدمةً دينيَّةً مشرِّفةً .

وأخيراً فأشكركم جميعاً علىٰ حسن إصغائكم لحديثي ، وعلىٰ ما منحتموني من الحبِّ ، والتَّقدير ، فجزاكم ٱلله جميعاً كلَّ خيرٍ ، وشكر سعيكم ، وضاعف أجركم ! والسَّلام عليكم ، ورحمة ٱلله وبركاته .



المرحلة الانتقاليّة للعالم الإسلاميِّ

(هٰذه المحاضرة ألقاها المحاضر في حفلةٍ أقامها مجلس تنسيق القانون الإسلاميِّ الباكستانيِّ في ١٨ / يوليو (١٩٧٨م) في فندق إسلام آباد تكريماً ، وترحيباً به ، رأسها قاضي قضاة المحكمة العالية الباكستانيَّة صاحب السَّعادة : أنوار الحقِّ ، وحضرها قضاة المحكمة ، والوزراء الاتحاديُّون ، وأعضاء مجلس تنسيق القانون الإسلاميِّ ، والعلماء المثقَّفون ، وألقىٰ صاحب السَّعادة : القاضي محمد أفضل جيمه رئيس مجلس تنسيق القانون الإسلاميِّ كلمته الافتتاحية كما ألقىٰ صاحب السَّعادة قاضي القضاة : أنوار الحقِّ كلمة الرئاسة) .

قال بعد ما تلا الخطبة المسنونة :

سيادة رئيس الحفل والسَّادة المستمعين ، والحاضرين !

إنَّ من دواعي الشُّكر الجزيل ، والسُّرور الغامر أن يجتمع في هٰذا الحفل الكريم للاستماع إلىٰ حديثي أولٰئك السَّادة

الكرام الَّذين كانوا يستحقُّون أن أحضر إليهم أنا بنفسي فرداً فرداً ، وأضع أمامهم حصيلة دراستي ، ونتيجة تفكيري ، وأبوح إليهم بما يموجِ في قلبي من أشجانٍ ، وأحزانٍ مريرةٍ . . لٰكنَّهم من حسن حظِّي تجمَّعوا بأنفسهم في موطنٍ واحدٍ ، وتسنَّىٰ لي أن أتحدَّث إليهم جميعاً في وقتٍ واحدٍ .

لٰكن المناسبة مناسبة السُّرور ، والمسؤوليَّة معاً ، ولا أكاد أبتُّ : هل استجيب لدواعي الفرح ، والاغتباط ، أم استشعر المسؤوليَّة فأجدُّ ، وأتفكَّر ؟ علىٰ كلٍّ ، فإنِّي أمام هٰذا الموقف المزيج ، والشُّعور المزدوج من الفرح ، والشُّعور بالمسؤوليَّة .

لحظةٌ من الغفلة قد تُخلِّف الرَّكب بمسافة قرون :

العالم الإسلاميُّ اليوم يمرُّ ـ أيُّها السَّادة ـ بمرحلةٍ حرجةٍ جدّاً ، بمرحلةٍ انتقاليَّةٍ قاسيةٍ دقيقةٍ ، فإذا أضاعت قيادات الدُّول الإسلاميَّة ، وعقولها المفكِّرة ، ورؤوسها المدبِّرة لحظةً واحدةً في قضيَّةٍ شخصيَّةٍ ، أو وقتيَّةٍ ؛ فإنَّ ركب الحياة السَّبَّاق سوف لا يَرْبَعُ عليهم ، ولا يرفق بهم ؛ لأنَّ السَّيل لا يتوقَّف إلَّا بسيلٍ مثله ، وأنَّه لا يبالي بسفينةٍ غرقت ، أم وصلت إلىٰ شطِّ النَّجاة ، وساحل المراد .

رسالةٌ عزيزةٌ من تربة الأندلس :

قد ترك الآن صاحب السَّعادة قاضي القضاة « أفضل جيمه » المحترم هزَّةً في قلبي حينما ذكر إسبانيا (الأندلس المنكوبة المرحومة) وأثار ذكرياتٍ مريرةً في صدري ، قد أتيح لي ـ من حسن حظِّي ، أو سوء جَدِّي ـ أن أزور هـٰذه التُّربة الحبيبة ، وأقرأ تاريخها ، كما وفقت أن أزور معظم العالم الإسلاميِّ ، والأقطار الإسلاميَّة ، لـٰكنِّي حينما وطأت قدماي أرض الأندلس ؛ شعرت كأنَّ أجواءها تلاصقني ، وأرواحها الطَّاهرة ، ونفوسها الزَّكيَّة الوديعة في التُّراب تعانقني ، وتصافحني ، وأنَّ كلَّ ذرَّةٍ من ذرَّاتها تحمِّلني رسالةً ، وتقول لي : حذار أن تذوق دولةٌ من الدُّول الإسلاميَّة هـٰذه المأساة الَّتي ذقناها ! إنَّها أمانةٌ أضعها في عنقك ، ومسؤوليَّةٌ أحمِّلها كاهلك :

أن تبلِّغ هـٰذه الرِّسالة إلىٰ أقصىٰ ما تستطيع أن تبلِّغها إليه ، وأن تنادي بأنَّ المسلمين لا يستطيعون أن يذوقوا هـٰذه المرارة مرَّةً ثانيةً ، وأن يقع علىٰ ساحة قطرٍ إسلاميٍّ ما وقع في إسبانيا ، أيمُ ٱلله إنِّي لأشعر بمضض الألم حينما أؤدِّي هـٰذه الكلمات ! لـٰكنِّي أرىٰ من مسؤوليتي أن أردِّدها في كلِّ قطرٍ إسلاميٍّ .

العالم الإسلاميُّ يمر بمرحلةٍ انتقاليَّةٍ :

العالم الإسلاميُّ الآن يمرُّ بمرحلةٍ انتقاليَّةٍ ، يفضُّ الهيكل القديم ، ويصاغ له هيكلٌ جديدٌ ، وفي مثل هـٰذا الوقت الحرج قد تتبدَّل مصائر الأمم ، وتبتدئ مرحلةً جديدةً من نوعها في حياتها ، ويكتب لها مصيرٌ آخر ، ويقدَّر لها قدرٌ جديدٌ ، إنَّ هـٰذه المرحلة كما تتطلَّب قوَّة الإيمان ، والعقيدة كذٰلك تتطلَّب دراسةً عميقةً دقيقةً ، وتفكيراً جدِّيّاً هادئاً متعمِّقاً ، وتضحيةً ، وإيثاراً ، إنَّ هـٰذه المرحلة لم يمكن مواجهتها بدون استيفاء هـٰذه العناصر في الماضي ، ولا يمكن في الحال ، ولن يمكن في المستقبل . إنَّها محنة العقيدة ، والإيمان ، ومحنة الذَّكاء في وقتٍ واحدٍ ؛ لأنَّ العمليَّة هي عمليَّة بناء مدنيَّةٍ جديدةٍ ، وتشكيل مجتمعٍ جديدٍ ، وتطبيقه مع التَّعاليم الإسلاميَّة ، وتطهيره من العناصر المضادَّة لها .

قد قلت لكم بالأمس [١] : إنَّ الإسلام اليوم ـ بصفته عقيدةً ـ موجودٌ ومعمولٌ به ، لـٰكنَّه جُرِّدَ من مدنيَّته ، وكانت هـٰذه مؤامرةً خطيرةً نسجها الغرب . إنَّها رأت : أنَّ المسلمين ليس بالإمكان تجريدهم من العقيدة ، وأنَّ شعورهم أرقُّ فيما

---

(١) في حفلٍ أقيم في فندق بإسلام آباد للترحيب بصاحب الحديث .

يتصل بهٰذا الجانب ؛ لأنَّهم قد مرُّوا في هٰذا الصَّدد بتجارب مريرةٍ جداً ، واكتووا بنارها منذ الحروب الصَّليبية إلىٰ سحق الكيان الإسلاميِّ ، وتصفيته في إسبانيا ، فلجأ إلىٰ استراتيجيَّة (STRATEGY) أخرىٰ ، وقرر أن يجردهم من مدنيتهم ، وبسلخهم من نظامهم الاجتماعيِّ ، ويحملهم علىٰ قبول مدنيةٍ أخرىٰ أجنبيَّةٍ ، وأعتقد : أنَّ أوربا قد كسبت في ذٰلك نجاحاً باهراً .

والحمد لِلّٰهِ لم يقع تحريفٌ فيما يتَّصل بالعقائد الإسلاميَّة كما وقع في المسيحيَّة ؛ حيث حادت عن خطِّها الصَّحيح تماماً ، وصارت تعدو علىٰ الخطِّ الَّذي رسمه (سينت بال) علىٰ خطِّ التثليث ، وَابْنِيَّة المسيح ، والمدنيَّة الروميَّة ، ثمَّ تجدَّدت أسبابٌ كثيرةٌ ضاعفت سيرها علىٰ ذٰلك الخطِّ المنحرف ، ويا ليت المسيحيَّة المعاصرة كان عهدها بالشَّعب الشَّرقي المتباطئ كالسُّلحفاة ، والرَّكب الشَّرقيِّ النَّائم المستريح ، لٰكن كان عهدها بالغرب الَّذي كان يتدفَّق بالحياة ، والنَّشاط ، وروح الرُّقيِّ ، والتَّقدُّم ، والانطلاق ، تجري في عروقها دماءٌ فائرةٌ هادرةٌ فائضةٌ تريد أن تشقَّ طريقها إلىٰ الأمام ، فتجري في عروق أبناء الشَّرق ، والجنوب ، والشَّمال ، وأرجاء المعمورة كلِّها ، فتضاعفت سرعة هٰذا الانحراف مع تضاعف سرعة الرُّقيِّ في جميع جوانب الحياة ؛

لأنَّ الأمَّة التي تبنَّت هـٰذه المسيحيَّة المنحرفة ، وحملت لواءها ما كانت لترضىٰ بالبطء ؛ إذ إنَّها صارت تأخذ « بمبدأ التَّنازع للبقاء » بضغطٍ من أسبابٍ كانت وليدة المكان ، والزَّمان ، وأصبحت تثبت جدارتها في معركة الحياة السَّاخنة .

إنَّ الإسلام لم يُمَنْ بمثل هـٰذا الانحراف ، والتَّحريف ، وسوف لن يقع هـٰذا الانحراف ، والتَّحريف فيما يتعلَّق بمبادئه ، وعقائده ، وأوَّلياتِه ؛ لأنَّ ٱلله ضمن صيانته من ذٰلك قائلاً : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] أمَّا ما يتَّصل بالمدنيَّة ، والحياة ، والمجتمع ؛ فمن الواضح : أنَّ العقيدة ، والثَّقافة ، أو الأمَّة الَّتي تحمل هـٰذه العقيدة ، أو هـٰذه الثَّقافة لا تعيش في الجوِّ ، بل إنَّها تحتاج ـ لكي تعيش ، وتؤدِّي دورها في الحياة ـ إلىٰ مناخٍ ، إلىٰ حريَّةٍ ، إلىٰ وسائل ، وإلىٰ تسهيلاتٍ لتكوين مجتمعها . . لم يقع انحرافٌ في العقائد ، والأصول ، لـٰكن الأخلاق ، والسُّلوك ، وأسلوب الحياة الَّتي تكون وليدة هـٰذه العقائد تحتاج في تمثُّلها في الواقع العمليِّ إلىٰ مجتمع حرٍّ ، إلىٰ بيئةٍ منفتحةٍ ، إلىٰ قطعةٍ من الأرض تتنفَّس فيها بحرِّيَّةٍ ، ودون حدٍّ ، وقيدٍ ، وتتجلَّىٰ بنواحيها ، وأجزائها ، وأصولها ، وفروعها ، ونجحت أوربَّا فيما استهدفته من تجريد المسلمين من المدنيَّة الإسلاميَّة العريقة ، وفرضت عليهم مدنيَّتها ، وزيَّنتها في أعينهم .

الإسلام يحتاج إلىٰ السُّلطة :

يا سادة ! إنِّي أنتمي إلىٰ أسرةٍ ، وإلىٰ مدرسة فكرٍ آثرت التَّسبيح ، والتَّكبير علىٰ صهوات الخيل علىٰ المناجاة قابعةً في زاويـة البيـت الآمنـة الهـادئـة ، وجمعَـتْ بيـن السَّيـف ، والمصحف ، أعني بذٰلك : مدرسة الإمام السَّيِّد أحمد بن عرفان الشهيد البريلوي ، وجماعته ، وأتباعه من أصحاب العزيمة ، والطُّموح ، والشَّجاعة ، والشَّهامة ، والتَّفاني ، والمغامرة ، والعقل ، والعاطفة الَّذين قاموا بمحاولات الإصلاح ، والتَّجديد الموسَّعة ، وجاهدوا جهداً كبيراً في سبيل إحياء الخلافة الإسلاميَّة الرَّاشدة ، ولا أعرف في القرون الأخيرة في أيِّ جزء من أجزاء العالم الإسلاميِّ نظيراً لهٰذه الجمـاعـة ، فـي شمـولهـا ، وجـامعيَّتهـا ، وعـزيمتهـا ، وشهامتها ، وإخلاصها ، وتضحياتها ، أنتمي أيُّها السَّادة إلىٰ هٰذه الجماعة المؤمنة الواعية الجامعة ، وأعتقد : أنَّ الإسلام يحتاج إلىٰ السُّلطة ، والمسلمون يحتاجون إلىٰ مجتمعٍ حرٍّ آمنٍ ، ولا يزال قول الربِّ ـ تبارك وتعالىٰ ـ المعجز صادقاً ، وسيظلُّ إلىٰ يوم القيامة كما كان صادقاً وقت نزوله :

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١] .

وممَّا يدعو إلىٰ التَّفكير : أنَّ القرآن الكريم ، والحديث النَّبويَّ الشَّريف كليهما يستخدمان في صدد « المعروف » و« المنكر » كلمتي : « لأمر » و« النهي » ، ولم يستخدما كلمات : « الالتماس » و« الرَّجاء » و« الطَّلب » و« السُّؤال » إلىٰ القائمة الطويلة من الكلمات التي تنمُّ عن بعض الخضوع ، والتَّواضع ، وصغر الشَّأن ، والمكان ، واللُّغة العربيَّة هي ما هي في غنائها ، وسخائها ، ولـٰكن الكتاب ، والسُّنَّة يقتصران في التعبير عن القيام بهـٰذين العملين الجليلين : « المعروف » و« المنكر » علىٰ الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكـــر ، ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] . والأمر ، والنَّهي يتطلَّبان شيئاً من القوَّة ، والغلبة يمكِّن الرَّجل من أن يقول ـ في قوَّةٍ ، وجرأةٍ ، وعن ثقةٍ ، واعتمادٍ ـ : هـٰذا خطأ ، وهـٰذا صحيح . ومعنىٰ ذٰلك : أنَّ الإسلام يحتاج إلىٰ القوَّة ، وإلىٰ السُّلطة ، حتَّىٰ لا يضطَّر أبناؤه دائماً أن يقولوا للعالَم الَّذي يعيش من حولهم في ظلام الجاهليَّة : « ينبغي العمل بكذا » ، و« الأخذ بكذا شيءٌ مستحسنٌ ، ومعقول » أو : « ندعوك إلىٰ كذا » و : « نرغبك في كذا » و : « نبشرك بكذا » نعم لقد أجاز الإسلام كلَّ هـٰذه الطرق ، والأساليب ، لـٰكنَّ القرآن لا يستخدم لذٰلك إلا كلمة « الأمر » وكلمة « النهي » . . . ثمَّ إنَّ إصلاح النَّوع البشريَّ

الكامل لا يمكن بدون هـٰذه القوَّة ، والغلبة اللَّتين رتَّب عليهما القرآن : « إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر » .

لا بدَّ من الاهتمام بالغصن الَّذي يقوم عليه العُشُّ :

وإنِّي وإن أنتمي إلىٰ هـٰذه المدرسة الفكريَّة ، وهـٰذه الحركة الدِّينيَّة العملاقة الَّتي أشرت إليها ، لـٰكن لا بدَّ أن أقرِّر : أنَّه يجب الاهتمام أولاً بالغصن الَّذي نريد أن نصنع عُشَّنا عليه : فالأمر يتوقَّف علىٰ ذٰلك الغصن ، فإذا كان الغصن قويَّاً متيناً ، وكان أخضر أنضر ، محكم الاتِّصال بالسَّاق ؛ فهنالك تأتي مرحلة التَّفكير في نوعية العُشِّ ، وطرازه ، ومنهجه ، ولـٰكن الأمر الَّذي يجب أن يسبق هـٰذه المرحلة هو أن نرىٰ : هل الغصن موجودٌ ، أم لا ؟ وما هي نسبته من القوَّة ، والمتانة ، والحياة ، وقدرة الاحتمال ؟

والغصن الَّذي يقام عليه العُشُّ هو المجتمع ، ذٰلك المجتمع الَّذي يتكوَّن من الحياة العامَّة في البلد ، ومن الغادين ، والرَّائحين في المدن ، والقرىٰ ، والبائعين ، والمشترين في الأسواق ، والعاملين في المصانع ، والمعلِّمين ، والمتعلِّمين في معاهد التَّعليم ، والتَّربية ، أولـٰئك الَّذين تكون الحياة عبارةً عنهم ، وعليهم يتوقَّف بهاء

المدن ، والَّذين هم مادَّة العمران ، فلا بدَّ أن نستعرض أوَّلاً مشاعرهم ، وأحاسيسهم ، ومقاييس الحسن ، والقبح لديهم ، وموازين الخير ، والشَّرِّ عندهم ، لكي ندرك جيداً مدىٰ قدرة الغصن لاحتمال ثقل العُشِّ .

أيُّها السَّادة ! مهما استخدمتم الذَّكاء ، والبراعة في صناعة العُشِّ ، وفي إحكامه ، وإتقانه ، وإحسانه ؛ فإنَّ جهودكم تذهب ضياعاً إذا كان الغصن ـ الَّذي يقوم عليه العُشُّ ـ واهياً ، يقول بلسان حاله : إنِّي لن أتحمَّل عبء العُشِّ ، ومن هنا يجب أولاً الاستعراض الدَّقيق ؛ حتَّىٰ نطَّلع جيداً علىٰ وضع المجتمع أخلاقيّاً ، وعقيديّاً ، وإلىٰ أيِّ حدٍّ يأخذ بضروريات الحياة المبدئيَّة ، وأصولها الأساسيَّة ، وبشروط الإنسانيَّة الأوليَّة .

فلئن كان هناك مجتمعٌ قد بلغ من عبادة النَّفس ، والهوىٰ ، والولوع بالمعاصي ، والجرائم ؛ فإنَّه يختنق بالدَّعوة إلىٰ الصَّلاح ، والخير ، وإلىٰ الأخلاق ، والمعاني الإنسانيَّة ، والإقلاع عن المعاصي ، والفسق ، كما يختنق السَّمك لو أخرج من الماء ، ووضع علىٰ الأرض . . . وإنِّي أقضي من عجبي كلَّما أقرأ الآية الكريمة من القرآن : ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : ٥٦] ، وأقف مدهوشاً أمام صدقها ، وإعجازها ، وروعة بيانها ، وبلاغة

تعبيرها عن نفسيَّة المجتمع الفاسد الَّذي صار ، وكأنَّه يلفظ أنفاسه الأخيرة من أجل الدَّعوة إلىٰ الخير ، حتىٰ صاح صيحته ، وأعلن صراحةً أنَّه لا يستطيع التَّنفُّس في هٰذا التَّيَّار الَّذي تدفَّق أخيراً من الطُّهر ، والصَّفاء ، والعفَّة ؛ لأنَّه تعوَّد أن يكون غارقاً في حمأة الذُّنوب ، والآثام إلىٰ الأذقان ، والآذان .

لئن كان المجتمع وصل إلىٰ هٰذه النُّقطة النِّهائيَّة من الفساد ، والتَّفسُّخ ، والتَّعفُّن ؛ فلا يرجىٰ فيه نجاح نظامٍ ، أو تنفيذ خطَّةٍ اتُّخذت بمعزلٍ عن مراعاة الوضع الَّذي يعيشه ، والحياة الَّتي يحياها .

يا سادة ! إنَّ المجتمع هو الغصن الكريم الَّذي يقوم عليه عشُّ نظامٍ صالحٍ ، فإذا كنتم تريدون إقامة هٰذا العُشَّ ؛ فلا بدَّ أن يكون ذٰلك الغصن موضع عنايتكم ، ورعايتكم ، وذٰلك لأنَّه إذا كان الغصن في خطرٍ ، أو وضعٍ مخوفٍ تتوجَّه إليه الضَّربات من الجوانب الأربعة ، ويتقدَّم إليه آلاف من الأعداء ، بينما الحارس عليه واحدٌ ، فإنَّ هٰذا الواحد مهما كان مخلصاً ذكيّاً ذا أهليَّةٍ ، ودهاءٍ ، وذا وسائل ، وأسباب لن ينجح في محاولته ، أفهل يمكن يا ترىٰ أن يتمَّ بناءٌ يقوم ببنائه أناسٌ ، ويهجم عليه أناسٌ في عددٍ أكثر من عدد البنَّائيين بمعاولهم ؟ !

حقاً إنَّ مثل هـٰذا البناء المسكين لا يمكن أن يصل إلىٰ درجة التَّمام ، والاكتمال ، فضلاً أن يبقىٰ علىٰ حياته ؛ ولو بعض حين !

المجتمع كتربةٍ :

إنَّ المجتمع كتربةٍ ، فإذا كانت هـٰذه التُّربة كريمةً ، ثابتةً ذات قرارٍ مكينٍ ، ولا تكون « كثيباً مهيلاً » (في التَّعبير القرآنيِّ البليغ) لا قرار له ولا ثبات ، تهوي بذرَّاته الرِّيح إلىٰ حيث تشاء ، ولا رجاء في بقائه في مكانه بعد حين ؛ لأنَّه رهن إشارة الرِّياح ، وطوع أمرها ، إذا كانت التُّربة علىٰ صفاتها الأولىٰ الكريمة تستطيع أن تأتي بحاصلٍ كبيرٍ بجهدٍ ضئيلٍ ، ووقتٍ قليلٍ ، وأن تنبت عليها الأشجار ، وتخضرَّ عليها الزُّروع ، وتكثر فيها الفواكه ، والأثمار ، كما يمكن أن تقام عليها قصورٌ شامخةٌ ، وأبنية ناطحات السَّحاب ، ومصانع تعانق قبابها عنان السَّماء .

أمَّا إذا كان المجتمع (كثيباً مهيلاً) ورمالاً زائلةً ، فإنَّه يمكن أن يستغلَّه ، ويسكره ، ويخدِّره كلُّ رجلٍ داهيةٍ ، ويميل به إلىٰ حيث يشاء ، ويجعله يهرع وراءه ، ويطبِّق آراءه ، ويجسِّد أفكاره ، وينفِّذ أوامره ، ويتجنَّب عن نواهيه . . . ولا يحمل قوةً علىٰ مقاومة خطرٍ ، ولا يتَّصف بتماسكٍ عقليٍّ ،

ومعنويٍّ ، بل يكون علىٰ استعدادٍ للانحراف كغثاء السَّيل مع كل تيَّارٍ جارفٍ من الدَّعوات المُضلِّلة ، أو القوىٰ المفسدة ، أو النُّظم الجائرة ، والفلسفات المنحرفة ، فيتناغم معها ، ويتفاعل ، وينحاز إليها ، ويقف بجانبها ، ويذهب ـ في ثانيةٍ ، أو أقلَّ ـ كلُّ محاولات الإصلاح ، والبناء هباءً منثوراً ، كأن لم تكن شيئاً مذكوراً . . . إذا كان المجتمع قد وصل إلىٰ هـٰذا الحضيض ؛ فلا ثقة به ، ولا رجاء فيه ، وعلىٰ المجتمع السَّلام .

والواقع : أنَّه لا يوجد اليوم في أيِّ مكانٍ مجتمعٌ إسلاميٌّ كاملٌ ، نثق به ، ونضع فيه رجاءنا ، ونعلِّق عليه آمالنا . وإنَّه لحديث أمس ـ ومعذرة إلىٰ من لا يتَّفق مع رأيي ـ رأينا جمال عبد الناصر في مصر كيف ركب علىٰ أعناق الشَّعب المصري ، وفعل به الأفاعيل ، وكان المجتمع المصريُّ هادئاً ، يبدو كأنَّه لم يحدث شيءٌ ، وليس هناك أحدٌ يعارض جمال عبد الناصر ، بل كان الشَّعب كلُّه كان مستعدَّاً في كلِّ وقت للتجاوب مع صوته ، والتَّصفيق له ، والجري وراء سيادته حيث تتَّجه بالنَّعرات والهتافات مسروراً فخوراً ، حتىٰ خلع عليه بعض الناس لباس القداسة ، والعصمة ، والبراءة ، وأحلُّوه محلاًّ مرموقاً من القبوليَّة ، والعظمة الَّتي لا يحظىٰ بها إلا الأنبياء ، والرُّسل عليهم السلام ، ولـٰكن جاء الوقت الذي تجلَّت

فيه الحقيقة ، وانكشف فيه الغبار عن الحمار [١] ، ولم يعد أحدٌ يذكره بالخير ، أو يتلفَّظ باسمه بانشراح القلب .

وكذٰلك جميع المجتمعات الَّتي تعيش حولنا مهما نهض فيها رجلٌ لَبِقٌ ؛ فإنَّها ترتمي في حضنه ، وتخضع لإرادته ، وتسبِّح بحمده ، وتقدِّس لمجده . . إنَّه لوضعٌ مخوفٌ ، ونذير خطرٍ كبيرٍ .

يجب ألاَّ يكون هناك تأجيل في تطبيق الشَّريعة الإسلاميَّة :

وليس معنىٰ ذٰلك أنَّني أشير بتأجيل تطبيق الشَّريعة الإسلاميَّة ، كلاَّ ! إنَّني لن أسمح لأحدٍ بهٰذا الخطأ في الفهم ؛ لأنَّني لا أرىٰ لهٰذه المحاولات السَّعيدة المباركة أن تتوقَّف للحظةٍ واحدةٍ ، أو تؤجَّل لدقيقةٍ واحدةٍ ، لٰكنِّي أريد أن ألفت أنظاركم إلىٰ الواقع ، وهو أنَّ نجاح هٰذه المحاولات يتوقَّف علىٰ هٰذا المجتمع . . . فلو حبَّذه المجتمع ، وركَّزنا نحن ، ودعاتُنا ، ومؤلِّفونا ، وكتَّابنا ، وصحافتنا ، وتلفازنا ،

---

(١) يشير المحاضر إلىٰ البيت العربيِّ القديم :

وســوف تــرىٰ إذا انْجَلَــىٰ الغبــارُ
أفــرسٌ تحتــكَ أم حمــارُ

وإذاعتنا ، وجميع وسائل الإعلام ، والإبلاغ علىٰ ذٰلك ، وتبنَّينا جميعاً هٰذه المهمَّة ، وقرَّرنا أن نغيِّر موازين الحسن ، والقبح المُجحفة ، وأن نغيِّر مشاعرنا ، وأحاسيسنا ، وأن نعمِّم روح التقوىٰ ، والصَّلاح ، والاحتساب ، وحياة الجدِّ ، والصَّبر ، والصَّرامة ، والتَّحمُّل ، وروح الصُّمود ، والمقاومة للإغراءات الماليَّة ، أو الجنسيَّة ، أو الأخلاقيَّة . . . لأمكن أن يحمل المجتمع أثقل عبء ، وأضخم مسؤولية ؛ لأنَّه عندئذٍ سيستطيع أن ينهض بعبء الخلافة الإسلاميَّة أيضاً ، وإنِّي علىٰ يقينٍ كاملٍ بأنَّه لو تمَّ التَّنسيق ، والتَّعاون بين هٰذه القوىٰ ، والأدوات المؤثِّرة الفعَّالة ، واتَّجهت كلُّها اتِّجاهاً واحداً نحو إصلاح المجتمع ؛ فليس ببعيدٍ أن يتحقَّق حلم « الخلافة الإسلاميَّة » لٰكن المؤسف المحزن : أنَّ وسائل الإعلام يديرها اليوم أولٰئك الذَّين وصفهم القرآن الكريم بما يلي :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور : ١٩] .

إنَّ الآية معجزةٌ حقاً ، إنَّها نزلت من أجل قصَّةٍ خاصَّةٍ حدثت في مجتمع المدينة المنوَّرة المحدود ، وصار النَّاس يتحدَّثون عنها في محافلهم ، ومجالسهم ، فحذَّرتهم الآية هٰذا التَّحذير الصَّارخ ، وأوصتهم بالانتهاء عن هٰذا العمل الشَّنيع .

ومهما كانت القصَّة عظيمةً ، ومهما كان الَّذين يتَّصلون بها ؛ فإنَّ الآية الكريمة ـ بموجب عموم بيانها ، وشمول معناها ، وتعبيرها ـ تستوعب تلك القصَّة ، والَّذين كانوا يتذاكرونها ، وتستوعب كذٰلك ـ متخطِّية الحدود الزَّمانيَّة ، والمكانيَّة ، والمسافات الجغرافيَّة ـ ما يقع في القرن العشرين ، في عصر الصَّحافة ، وعصر التِّلفاز ، وعصر الرَّاديو ، وعصر القصص والرِّوايات ، وعصر السِّينما ، والتَّمثيل ، والمسرحيَّات ، وعصر الكتابات ، والفلسفات ، ويمكنك اليوم أن ترىٰ هٰذا الواقع في أجلىٰ مظاهره ، وأبشع أشكاله ، وأشنع صوره الَّتي لم يكن من الممكن رؤيتها من ذي قبل ، إنَّ الَّذين عاصروا نزول الآية الكريمة في المدينة المنوَّرة ـ علىٰ منوِّرها ألف ألف سلام وتحيَّة ـ كانوا قد آمنوا بالغيب ، وطبَّقوا الآية علىٰ الحادث الَّذي عهدوه ، غير أنَّ الدَّور الفعَّال الَّذي يمثِّله العالم المعاصر المجنون في إشاعة الفاحشة ، وفي تطبيق : ﴿أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ لم يكن بالإمكان تقديره من ذي قبل .

السُّلحفاة نائمةٌ علىٰ بطئها في السَّير ، والأرنب دؤوبةٌ في الجري علىٰ ما لها من خفَّةٍ وسرعةٍ :

إخواني ! قد سمعت في صباي ـ وربَّما تسامعتم أنتم

كذٰلك ـ : إنَّه وقعت المسابقة بين أرنبٍ ، وسلْحفاةٍ ، فأحرزت السُّلحفاة قصب السَّبْقِ ؛ لأنَّها علىٰ بطئها كانت دؤوبةً مجتهدةً ، لا تعرف الاستجمام ، والاستراحة ، أمَّا الأرنب فاطمأنت إلىٰ خفَّتها ، وسرعتها ، فنامت لتأخذ نصيبها من الرَّاحة ، وظنَّت أنَّ النَّجاح في المسابقة طوعُ أمرها ؛ لأنها هي ما هي في سرعة سيرها ، فكانت عاقبة أمرها خُسراً .

ولٰكنَّ القضيَّة اليوم انعكست ، وأصبحت قصَّة نجاح السُّلحفاة ، وفشل الأرنب مقابلها أمانة التاريخ ، ووديعة كتب القصص ، والحكايات القديمة ، فنرىٰ اليوم مسابقةً بين السُّلحفاة ، والأرنب ، ونرىٰ الأرنب دؤوبةً في سيرها ، مستمرَّةً في قفزاتها ، مع ما تتمتع به من سرعةٍ مثاليَّةٍ في الجري ، والسُّلحفاة غارقةً في نومة الضُّحىٰ ، مع بطئها المعروف في المشي . . . وذٰلك هو مثلنا ومثل القوىٰ الهدَّامة العالميَّة ، فالجهود المبذولة لبناء العالم الإسلاميِّ كسلحفاة نائمةٍ مع بطئها . . . والقوىٰ الهدَّامة نشيطةٌ باستمرارٍ دائبٍ في تنفيذ خطَّتها ، مع خفَّة أيديها ، وسرعة عملها . . . وكلَّما قارنتُ بين قوىٰ البناء ، وقوىٰ الهدم ؛ رأيتُ قصَّة السُلحفاة النائمة ، والأرنب الدَّؤوبة في العمل .

نرىٰ : أنَّ القوىٰ الهدَّامة الشَّيطانيَّة تبثُّ الفوضىٰ ، والشُّذوذ الخلقيَّ في مجتمعنا ، ولديها من الوسائل ،

والإمكانيَّات ما تستطيع أن تجعل اللَّيل نهاراً ، والنَّهار ليلاً ، والنُّور ظلمةً . . . والظُّلمة نوراً ، أما المحاولات البنائيَّة ، والمؤسَّسات البنائيَّة ؛ فنراها مجرَّدةً من الوسائل ، وعزلىٰ من قوة التَّنفيذ ، والعمل ، وأسباب الاستقطاب ، والجذب ، والاستهواء (CHARM) .

إنَّ مشكلة المجتمع الإسلاميِّ أصبحت اليوم خطرةً جدَّاً ، تتطلَّب عنايةً جدِّيَّةً ، فقد صار الناس يعتقدون ـ في بساطةٍ ، وعن جهلٍ ـ : أنَّ قضية الفرد ليست بذات أهمِّيَّةٍ ، وإنَّما المهمُّ هو قضية المجموعة ، والمجتمع . . . إنَّ هـٰذا العصر ، هو عصر تقديس الجماعة ، وركَّزت فلسفة الاجتماع ، والعمران اليوم كلَّ عنايتها علىٰ المجموع ، فأشادت بفضله ، ونوَّهت بذكره ، وعمَّقت في القلوب ، والأذهان أهمِّيَّته ؛ حتىٰ أذهلت النَّاس عن قضية الفرد ، وأهمِّيَّتها ، وعادوا يعتقدون : أنَّ الأفراد مهما بلغوا علىٰ الانفراد من الفساد ، والنُّقصان ، ولـٰكن المجموع الَّذي يتكوَّن منهم يكون صالحاً . ومعنىٰ ذٰلك : أنَّ الألواح علىٰ انفرادها مهما كانت متآكلةً منخورةً واهيةً ، لـٰكن السَّفينة المصنوعة منها ، تتحوَّل فجأة إلىٰ أسطول ، ويغيب عنها الفساد ، والضَّعف ، والوهن . . . ولكي نتبيَّن الحقيقة جليَّةً واضحةً يمكن أن نأخذ مثلاً من أنَّ قُطَّاع الطريق ، قُطَّاع بالانفراد ، فيهم خبثهم ، ومكرهم ،

وشيطنتهم ، أما إذا اتَّحدوا ، واتَّخذوا « اتِّحاد القطَّاع » فإنَّهم يتحوَّلون فجأةً حرَّاساً أمناء ، وخفراء أوفياء . . . ولٰكن لا أكاد أدري ، ولا يقبل منطقٌ أن يكون السَّارقون والقطَّاع علىٰ صفتهم ما داموا علىٰ الانفراد ، ولٰكنَّهم إذا ما تكثَّفوا ، وكانوا مئةَ قاطعٍ ، أو سارقٍ مثلاً ، فهم يتبدَّلون صلحاء ، وحرَّاساً ! ! ! ولٰكنَّ المؤسف جدَّاً : أن العالم المتحضِّر قد آمن بهٰذا المنطق ، وقد تكاتف الشَّرق ، والغرب ، بمن فيهم الرُّوس ، والأمريكان والنَّاس من كلِّ مكانٍ ، فيهم الخبثاء الماكرون والدُّهاة الظالمون ، وأولياء الشَّيطان الَّذين مطامعهم توسعيَّة ، وأغراضهم خبيثة ، وحياتهم فاجرةٌ ، وأخلاقهم فاسقةٌ ، واتَّخذوا جميعاً منظَّمةً اجتماعيَّة تتحكَّم في مصير الأمم والدُّول ، وتقضي لها ، أو عليها .

السَّهم الفعَّال في كنانة الإسلام :

أيُّها السَّادة ! إنَّ ٱلله ـ بمجرَّد فضله ـ قد أتاح لنا اليوم فرصةً مباركةً في هٰذه البلاد ، حيث جعلنا نشعر بالحاجة إلىٰ تكوينٍ جديدٍ للمجتمع ، وألقىٰ في روعنا أن نطبِّق الشَّريعة الإسلاميَّة ، وأن نجعلها صاحبة الحول ، والطَّول ، والسُّلطة العليا في هٰذه البلاد الَّتي برزت إلىٰ حيِّز الوجود باسم الإسلام وحده . إنَّه لمن فضل ٱلله علينا ، وإنَّها لسعادةٌ ساقها ٱلله إلينا ، وليس من الصُّدفة ؛ وإنِّي لا أؤمن بمنطق الصُّدفة ؛ لأنَّه

لا يحدث شيءٌ إلا بأمر ٱلله ، وتقديره ، ولا تسقط ورقةٌ إلَّا بإذنه ، وأعتقد : أنَّ ٱلله سبحانه وتعالىٰ قد راعىٰ الانتماء الكريم إلىٰ الاسم العظيم الَّذي برزت هٰذه البلاد تحمل لافتته ، ألا وهو الإسلام ، فأوصيكم ـ يا إخواننا في الإسلام ـ بألَّا تفوتكم هٰذه الفرصة الذَّهبيَّة ، وألَّا تضيع عليكم هٰذه النِّعمة الإلٰهيَّة .

ولتلاحظوا : أنَّ السَّهم من كنانةٍ لا يمكن أن يتفاءل به الإنسان ، أو يتشاءم به ما لم يجرِّب ، لٰكنَّه إذا أخرج من الكنانة ، وجرِّب ؛ لا يبقىٰ هناك غموضٌ ، ويتجلَّىٰ الواقع ، وتتكلَّم الحقيقة ، وتحكم التَّجربة حكماً نهائياً بالفشل ، أو النَّجاح . . . إنَّ لديكم اليوم سهماً أمضىٰ سهام كنانة الإسلام ، فأنتم في موقفٍ دقيقٍ ، وليكن ملحوظاً : أنَّ تطبيق الشَّريعة الإسلاميَّة ليس يعني تطبيق بعض حدوده وحدها ، إنَّ تطبيق الشَّريعة أوسع معنىً من ذٰلك بكثير ، فلا أستطيع أن أشهد لبلد من البلاد ، وأتنبَّأ له بالخير ما لم نجرِّب أحواله كلَّها ، وما لم نطَّلع علىٰ أهدافه ، وغايته ، لٰكن ما يمكن أن يقال : هو أنَّ هناك شيئاً في الدُّنيا كان هناك أناسٌ يتفاءلون به ، ويرون : أنه أمضىٰ سهمٍ ، وما إن خرج من الكنانة إلَّا وتتفتَّح أبواب الخير ، والسَّعادة علىٰ مصراعيها ، وما لم يخرج هٰذا السَّهم من كنانته ، ولم يتأتَّ رجاءٌ في خروجه ؛ كانت الألسن

ساكتةً ، والأقلام ساكنةً ، وكانت لنا فرص العذر متوفرةً ، وكان لنا أن نتخلَّص قائلين : كيف يرجىٰ خيرٌ ، ويؤمَّل في سعادةٍ ؛ والشَّريعة الإسلاميَّة غير مطبَّقةٍ بجميع أجزائها ، والمجتمع كلُّه فسادٌ في فسادٍ ، وأمر النَّاس كلُّه فوضىٰ ، وشذوذٌ ، وشرٌّ . . . ولا يعود لنا عذرٌ بعد ما يبرز هـٰذا السَّهم من الـكنانة ، وتتمُّ تجربته الَّتي لا تتكرَّر .

ولا بد أن أصارحكم ـ في ضوء دراسة التَّاريخ ـ : أنَّ مثل هـٰذا السَّهم لا يعاد استخدامه ، ولا تتكرَّر تجربته ، إنَّه لا يعود إلىٰ الـكنانة بعد ما ينفصل عن القوس . . . ومن ثمَّ فذٰلك وقتٌ حرج ، وموقفٌ حسَّاس تقفونه أنتم أيُّها السَّادة ! أصارحكم ؛ وأنا بين مرأىٰ ، ومسمعٍ من سعادة رئيس قضاة هـٰذه البلاد ، وعددٍ وجيه من الوزراء الكبار ، والعلماء ، والمثقَّفين الكرام ، ورجالات العلم ، والفكر بكلِّ أدبٍ واحترامٍ : أنَّ المرحلة دقيقةٌ صعبةٌ ، لا في تاريخ باكستان وحدها ، ولـٰكن في التَّاريخ الإسلاميِّ كلِّه ، إنَّها مرحلةٌ يحبس الإنسان عندها الأنفاس .

والتَّجارب قد تنجح ، وقد تخفق ، والحياة البشرية كلُّها في الواقع هي مجموعة تجارب مخفقةٍ وناجحةٍ ، فقد يتعثَّر الإنسان ، ثمَّ يستقيم ، وقد يزلُّ ، ثمَّ يتماسك ، وقد يسقط ، ثمَّ يقوم ، وتلك هي قصَّة جميع الأمم ، والملل علىٰ هـٰذه الأرض ، قد تغور سفينتها ، ثمَّ تطفو ، وقد تغوص ، ثم

تطيش ، وهي سنَّة ٱلله في الكون ، ولن تجد لسنة ٱلله تبديلاً :
﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٢٦ ـ ٢٧]
وقال : ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [النور : ٤٤] .

لا يَعْزُبَنْ عن بالكم ـ وأنتم مقبلون علىٰ هٰذا العمل العملاق المبارك ، عمل تنفيذ القوانين الإسلاميَّة في هٰذا المجتمع ، وهٰذه البلاد ـ : إنَّه لا بدَّ أن يكون لدىٰ المجتمع استعدادٌ لتلقِّيها بالقبول ، واحتماله ، وإساغته . . . لأنَّ الغذاء مهما كان طيِّباً لذيذاً سائغاً ؛ لا يفيد المرء إذا كانت معدته فاسدةً لا تقبله . . . ومن ثمَّ يتحتَّم العمل علىٰ إصلاح المجتمع علىٰ أوسع نطاقٍ ، ولتركِّز عليه منابرُ المساجد ، ومعاهدُ التَّعليم ، والتَّربية ، وأعمدةُ الصُّحف ، وصفحاتُ المجلَّات ، والجرائد ، والتِّلفاز ، والإذاعات ، وليكن ذٰلك موضع عناية خطبائنا السِّياسيِّين . . . وإذا كانت أسواق الرَّشوة نافقةً في كلِّ مكان ، وإغراءات المال ، والمادة علىٰ قدمٍ وساقٍ ، والقسوة ، والوحشيَّة علىٰ شدَّتها وحدَّتها ، وكان الأصدقاء ، والزُّملاء ، وأهل مدينةٍ واحدةٍ ، وقريةٍ واحدةٍ ، بل وحارةٍ واحدةٍ لا يعرفون الأخوَّة ، والمساواة ، والعطف ،

والحدب فيما بينهم ، ولا يعرف موظَّفونا في المكاتب وعمَّالنا فـي المصـالـح ، والإدارات ، ومختلـف القطـاعـات روح التّنـاصـر ، والتَّعـاون ، فـإنَّ ذٰلـك شـيءٌ لا يبشِّـر بـالخيـر ، ولا يبعث علىٰ الأمل ؛ لأنه نذير خطرٍ عظيم .

أسباب جلاء المسلمين عن إسبانيا :

يعـرف الـدَّارس الخبيـر : أنَّ السَّبـب الكبيـر فـي جـلاء المسلمين عن إسبانيا : أنَّهم لم يعتنوا بنشر الإسلام في أرجائها ، فلم يتقدَّموا إلىٰ الجانب الشَّماليِّ ، بل ظلُّوا يتقهقـرون إلـىٰ الجـانـب الجنـوبـيِّ ، ولـم يحتكُّـوا بـأهلهـا المسيحيِّين ، وما تغلغلوا في قلب أوربا ، ولم يقوموا فيها بتبشير الإسلام خير قيام ، ولم يقوموا بإصلاح ذٰلك المجتمع ، وشُغِلوا عن هٰذه الوظيفة الأولىٰ بتوسيع تراثهم الحضاريِّ ، وتصعيده ، واسترعت الفنون الجميلة ، والشِّعر ، والموسيقىٰ جُلَّ عنايتهم ، ولٰكن مصيبتهم العظمىٰ كانت في اضطرابهم الدَّاخليِّ ، الَّذي كان يمثِّله الصِّراع ، والخلاف بين ربيعة ، ومضر ، وقبائل اليمن ، والحجاز ، والعصبية القبلية .

حقاً : إنَّ العصبية ـ سواءٌ أكانت عصبيةً لغويَّةً ، أو عصبيَّةً إقليميَّـةً ، أو عصبيَّـةً حضـاريَّـةً ، أو عصبيَّـةً عنصـريَّـةً ـ داءٌ عضالٌ ، ومن أجل التَّفادي من ذٰلك قد أعطانا القرآن هـٰذا التَّوجيه السَّديد :

﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ ﴾ [الحجرات : ١١] .

والخطاب في الآية الكريمة ليس موجهاً إلىٰ الأفراد وحدهم ، بل إلىٰ الجماعات ، والأمم أيضاً ؛ لأنَّ الدَّاء الَّذي يريد القرآن أن يحذِّر منه ربَّما قضىٰ علىٰ الدُّول ، والحكومات ، والأمم ، والأقوام ، وقلت لعديدٍ من إخواننا في الهند الَّذين كانوا يريدون أن يشدُّوا الرِّحال إلىٰ باكستان : أوصيكم أن تتجرَّدوا من شعوركم المتطرِّف بالتفوُّق ، وبكونكم أولي حضارةٍ خاصَّةٍ ، ويجب عليكم أن تندمجوا مع إخوانكم في باكستان ساكني تلك المناطق التي قامت فيها دولة باكستان .

أيُّها السَّادة ! إنَّ باكستان اليوم تستطيع أن تؤثِّر في خريطة العالم ، وأن تؤدِّي دوراً فريداً يسجِّله التَّاريخ بالحروف الذَّهبيَّة إذا اندمجت الجنسيَّات ، وتجاوبت العناصر المختلفة الَّتي تشكِّل سكَّان باكستان من الواردين إليها ، والقاطنين فيها من القديم ، وعادوا إخواناً متحابِّين متفاعلين ، لا فرق بينهم ، يشعرون شعوراً واحداً ؛ لأنَّ الشُّعور الزَّائد بالتفوُّق ، والامتياز هو الخطر المُدْلَهِمُّ الَّذي كان السَّبب في سقوط المسلمين في

إسبانيا ، والأفعىٰ الَّتي ابتلعت دولتهم ، فالعصبيَّة القبليَّة ، والعنصريَّة هي الَّتي فعلت فعلها ، فلم يرفعوا رأساً إلىٰ خطر المسيحيَّة الَّذي كان يترقَّبهم كالسَّيف المُصلت علىٰ الرَّأس ، وتشاغلوا بمصالحهم القبليَّة ، والعناية بالاحتفاظ بأغراضهم ، وأهدافهم ، وأرجو : أنَّ إخواننا أهل باكستان سوف لا يسمحون لهٰذا الخطر يجوس خلال ديارهم ! وأعتقد : أنَّ هٰذا الحفل الكريم الَّذي ضمَّ عناصر خيِّرةً صالحةً ، من أهالي باكستان هو خير مناسبةٍ للدَّلالة علىٰ الأخطار ، والإبداء عن الخلجات الَّتي تساور نفسي ، حتَّىٰ تأخذوا حذركم ، وتصعِّدوا عملية الإصلاح ، والقضاء علىٰ العصبيَّات ؛ الَّتي سوف لا تموت بالضَّربات الموجَّهة إليها مباشرةً ، وإنَّما تموت عن طريق تعميم السُّلوك الإسلاميِّ ، والوحدة الإسلاميَّة ، والأخوَّة الإسلاميَّة والتَّربيَّة القرآنيَّة ، والعدل ، والمساواة الَّتي علمهما الإسلام ، حتىٰ لا تعود هناك قضيَّةٌ تهمُّ شعب باكستان في أرجائها إلاَّ الإسلام ، والإسلام وحدَه .

إنِّي أعتقد : أنَّه ليس في العالم البشريِّ اليوم إلاَّ جبهتان متعارضتان : جبهة الإسلام ، وجبهة الجاهليَّة ، والمعارك كلُّها تتلخَّص في المعركة بين الإسلام والكفر ، بين الدِّين ، واللادينيَّة ، وإذا كان هناك تقصيرٌ ما ؛ فإنَّه سيؤدِّي إلىٰ أسوأ عاقبةٍ ، ويحلو لي أن أتلو عليكم الآية الَّتي خاطب بها القرآن

الكريم المجتمع الصَّغير ، المجتمع الإسلاميِّ في المدينة المنوَّرة ، ذٰلك المجتمع الَّذي كان مكوَّناً لا من الجنسيَّتين المختلفتين : من الأنصار ، والمهاجرين فحسب ، بل كان الأنصار كذٰلك تتوزَّعهما قبيلتان : الأوس ، والخزرج ؛ اللَّتان قد سبقت بينهما سلسلة من الحروب الدَّمويَّة ، ومواقف أخذ الثَّأر ، والانتقام ، فقد حاربت إحداهما الأخرىٰ طوال (٤٠ عاماً) تباعاً ، وكانت لا تزال بينهما البقيَّة الباقية من الإحن ، والحقد ، وروح الانتقام ، قد يشغل عواطفهما بيتٌ واحدٌ ، وقد حدث مرَّةً أن أخلاطاً من الأوس ، والخزرج كانت قد ضمَّها المحفل ؛ إذ طلع عليها رجلٌ من اليهود داهيةٌ ، وانتهز الفرصة ، وبدأ يتلو قصيدةً كانت تحكي القصَّة الدَّمويَّة الَّتي قد وقعت بينهما ، فاشتعلت العواطف ، وكادت السُّيوف أن تتقارع ، واحمرَّت العيون ؛ إذ حضر رسول ٱلله ﷺ وأطفأ الجذوة المشتعلة ، ولفت الناس إلىٰ الوحدة الإسلاميَّة والأخوَّة الإيمانيَّة الَّتي لا نعمة فوقها ، هٰذا المجتمع الصَّغير ، والوحدة المتواضعة ، ما شأنهما أمام هٰذا العالم الفسيح ، أمام الدَّولة البيزنطيَّة ، والمملكة السَّاسانيَّة ، وقوىٰ الشَّرق ، وقوىٰ الغرب ، لٰكنَّهم طولبوا بإحكام هٰذه الوحدة ، وتعميقها ، وتأصيلها ، ووجَّه إليهم الإنذار : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٣] ، وذٰلك

لأنَّهم ـ وإن كانوا في عددٍ ضئيلٍ ـ كانوا جوهر الإنسانيَّة ، وخلاصة البشريَّة ، وكان مصير الإنسانيَّة مرتبطاً بهم ، وكانوا موضع رجاء البشريَّة ، وكان بوسعهم أن يؤثِّروا في مصير الأمم ، والملل ، ومصير الإنسانيَّة كلِّها ، ومن ثمَّ قيل لهم : إن زلَّةً واحدةً منهم ، وثغرةً واحدةً في وحدتهم تسبب فساداً شاملاً كبيراً في الأرض ، ولا يقتصر الأمر علىٰ مصيبتهم ، وشقائهم وحدَهم .

أيها السادة !

إذا نشطت هٰذه العصبيَّات الجاهليَّة في باكستان ، تلك العصبيَّات التي يستغلها المكرة ، والدُّهاة ، وأعداء الإنسانيَّة ، فليست هناك قوَّةٌ تنقذ باكستان من هاوية الهلاك والدَّمار . . . وإذا أخفقت تجربة تنفيذ الشَّريعة في ربوع باكستان ـ لا قدر ٱلله ـ فسوف لا يعود أحدٌ يفكر في هٰذه التجربة في أرجاء المعمورة .

أقول لكم بكلِّ تأكيدٍ : إنَّ أوربا ، وجميع دول العالم غير الإسلاميَّة ، تحسب كلَّ الحساب للدُّول الإسلاميَّة الَّتي يترفع فيها صوت تطبيق الشَّريعة الإسلاميَّة ، فلئن أخفقت هٰذه التَّجربة ، فإنها تكسب المعركة ، وتستغلُّ الموقف ، وتفعل أفاعيلها . . . فأنتم في مرحلةٍ حرجةٍ جدَّاً ، تتطلَّب منكم أن تكرِّسوا لإنجاح هٰذه التَّجربة كلَّ قواكم ، وكفاءاتكم ، وذكاءكم ، ومواهبكم العقليَّة ، والفكريَّة ، إنَّها لمحنة

العزيمة ، والهمَّة ، والشَّهامة ، والإخلاص ، وروح الإيثار ، والتَّعاون ، والتَّناصر . . . يجب أن تضربوا ـ بهٰذه المناسبة العظيمة ـ عرض الحائط جميع الخلافات ، يتطلَّب الموقف أن تترفَّعوا عن المصالح الحزبيَّة في صالح باكستان ، بل في صالح الإسلام ، وإذا استوفيتم هٰذه الشُّروط ؛ فستبدأ صفحةٌ جديدةٌ للتَّاريخ ، ويبتدئ عهدٌ جديدٌ ، وإذا تمَّ قيام هٰذا المجتمع الإسلاميِّ الَّذي نتوخَّاه ، فسوف يرتاد باكستان السُّيَّاح ، والمراقبون ، والمعلِّقون ؛ لكي يشاهدوا بعيون رؤوسهم ، ويتحدَّثوا عنه في أجزاء العالم ، فيقول الواحد منهم : قد رأيت مجتمعاً لا يعرف الإثم ، والعدوان ، ولا يبتلع فيه الإنسانُ ، الإنسانَ ، يحدب كلُّ عضو فيه علىٰ الآخر حدب الأمَّهات علىٰ البنين ، إنَّه لمجتمعٌ مثاليٌّ ، تجد النَّفس فيه هدوءها ، ويجد القلب طمأنينته ، وتقرُّ به العين ، وتهدأ فيه الرُّوح ، ويشعر الوارد فيه كأنَّه دخل في الجنَّة والنَّعيم .

لٰكن ذٰلك لا يتمُّ بالعصا السِّحريَّة ، وحجر الفلاسفة ، وإنَّما تحتاجون في سبيله إلىٰ التَّضحيات الَّتي تتطلَّبها مثل هٰذه النِّعمة العظمىٰ الفريدة ؛ الَّتي يتوقَّف عليها في الغد رقيُّكم ، ورقيُّ هٰذه البلاد ، وامتداد الإسلام ، وانطلاقه .

والسَّلام عليكم ورحمة ٱلله وبركاته

✍ ✍ ✍



واجب أصحاب الاختصاص وكبار المُثقَّفين

(ألقيت هٰذه المحاضرة في جامع « فيصل آباد » (باكستان) في ٢٢ / يوليو (١٩٧٨م) واستمع إليها النُّخبة الممتازة من العلماء والمُثقَّفين بالثَّقافة العصريَّة ، وأساتذة مراكز الثَّقافة العصرية ، والمدارس الإسلاميَّة ، والمسؤولون عن القطاعات السِّياسيَّة ، والاجتماعيَّة ، والدَّوائر العلميَّة ، والأدبيَّة والثَّقافيَّة ، والصَّحافيَّة) .

قال بعد ما حمد ٱلله ، وأثنىٰ عليه بما هو أهله ، وصلَّىٰ علىٰ نبيِّه العظيم وسلم :

أصحاب الفضيلة والسَّعادة : رجالات العلم ، وأساتذة المدارس ، والجامعات قبل أن أدخل في حديثٍ موسَّعٍ أريد أن أضع أمامكم نقطةً مبدئيَّةً بإيجاز :

قد تضاعفت اليوم مسؤولية العلماء والمثَّقفين . إنَّ دعوةً ، أو حركةً إذا كان قادتها من أولي الطَّبقة العليا في

الأمَّة ، من أصحاب الذَّكاء الموهوب ، ورجالات الفكر ، والرأي ، وذوي التَّعمُّق في الكتاب ، والسُّنة ، والعلوم الدِّينيَّة تكون ذات عمقٍ ، وجدِّيَّةٍ ، ونضجٍ ، واكتمالٍ ، وتوازنٍ ، واعتدالٍ ، يرجىٰ فيها : أنَّها سوف لا يواكبها انحرافٌ عن الخطِّ المستقيم في أيِّ مرحلةٍ من مراحلها ، وتكون في طول الطَّريق علىٰ نجوةٍ من العاطفيَّة ، والتَّطرف ، والسَّطحيَّة ، والابتذال . . . والعلماء وأصحاب الفكر كانت مسؤوليَّتهم عظيمةً ضخمةً في كلِّ العصور الإسلاميَّة ، لـٰكنَّها اليوم تضخَّمت ، واتَّسعت ، وازدوجت أكثر من ذي قبل ، وأصبح رجال العلم ، والفكر ، وقادة الجماعات الدِّينيَّة ، والمسؤولون عن المؤسَّسات ، والحركات الإسلاميَّة في موقفٍ صعبٍ معقَّدٍ ، وأصبح الشَّعب الإسلاميُّ يتطلَّع إليهم كمنقذي الإنسانيَّة ، ويرىٰ : أنَّهم سيقومون بالتَّوجيه السَّديد ، والقيادة الناجعة ، ويتفادون بالحركات الدِّينيَّة ، والمحاولات الإسلاميَّة ، من السَّطحيَّة ، والتَّطرُّف ، والمغالاة ؛ حتىٰ لا يعتقد فيها أحدٌ أنَّها كسحابة صيف عن قليلٍ تنقشع ، أو كزبدٍ يذهب جفاءً ، بل يرىٰ النَّاس فيها : أنَّها راسخةُ الجذور ، بعيدة الغور .

مأثرة العلماء في الدُّول الإسلاميَّة :

أيُّها السادة ! لو لم يكن العلماء ، ورجالُ الاجتهاد ،

والفقه ، يقفون من وراء خلافة بني أميَّة ، وخلافة بني العبَّاس ؛ لما وجدت هٰذه القوانين الإسلاميَّة المدوَّنة الَّتي تغطِّي جميع مناحي الحياة ، وتستوعب الحياة الإنسانيَّة من المهد إلىٰ اللَّحد ، ولمَّا كان الإسلام متجلِّياً في صورة نظامٍ للحياة منسَّقٍ ، ومرتَّبٍ .

إنَّ التَّـاريـخ يصـبُّ المـدح ، والثَّنـاء علـىٰ القـادة ، والفاتحين ، فبطولات قادتنا أمثال طارق بن زياد ، ومحمد بن القاسم ، وعقبة بن نافع ، وموسىٰ بن نصير ومآثرهم ساطعةٌ في صفحات التَّاريخ سطوع الشَّمس في الضُّحىٰ ، لٰكن الَّذين كانوا يقومون بتنفيذ قوانين ٱلله في البلاد المفتوحة للإسلام ، ويحلُّون المشاكل ، والقضايا الَّتي كان يواجهها المسلمون في تلك المناطق الجديدة ، ويحقِّقون حاجاتٍ كانت تستجدُّ فيها ، ويقومون بتوجيهاتٍ في الأحوال ، والأوضاع المتجدِّدة فقلَّما يعرف النَّاس قيمة خدماتهم ، ومدىٰ تأثيرهم في البلاد ، والعباد علىٰ حين : أنَّه لو لكم تكن عقول رجال الاجتهاد ، والفقه ، والحديث تعمل عملها من وراء السُّيوف الفاتحة للبلاد ، والأيدي الشُّجاعة المخضعة لعباد ٱلله لِلّٰهِ وحده ، ولو لم تصاحب الحكومات الَّتي كانت تنظِّم البلاد ، وتضبط الأمور ، وتدير الشُّؤون ؛ لكانت تلك المحاولات كلُّها ، والفتوح كلُّها ، والدُّول ، والحكومات جميعُها ، جوفاء ،

لا روح فيها ، ولا حياة .

الفاتحون للمسلمين يقعون مفتوحين للإسلام :

ولنذكر مثلاً : أنَّ التَّتار زلزلوا العالم الإسلاميَّ ، وفكَّكوا عراه ، وجعلوا أهله قطيعاً من غنمٍ ، أو لحماً علىٰ وضمٍ ، فما كان هناك أمَّة أذلَّ من المسلمين علىٰ ظهر هٰذه البسيطة ، ولو رأيت صور هٰذا العهد الَّتي لا تزال تضنُّ بها المتاحف اليوم لوجدت : أنَّ مسلماً معقودةٌ لحيته بذيلٍ للحصان ، ويقوده التَّتاري ! كان لكلِّ شعبٍ ، وقومٍ في العالم قيمةٌ في أعينهم إلا الشَّعب الإسلامي ، ولا سيَّما مسلمي تلك المناطق التي كانت مهد حضارة المسلمين ، وثقافتهم ، أعني مناطق إيران ، وما وراء النَّهر ، التي كانت مركز الفقه في العهود الأخيرة ، وسيَّما الفقه الحنفيَّ . . . لٰكنَّكم تعلمون : أنَّ هٰؤلاء التَّتر الَّذين فتحوا المسلمين وقعوا مفتوحين للإسلام ، أولٰئك الَّذين لم تستطع سيوف المسلمين أن تخضعَهم ، أخضعتهم حضارة المسلمين ، وثقافتهم ، وعلومهم ، واطَّرحوا علىٰ عتبتها عبيداً بارِّين ، وخدَمةً منقادين مستسلمين .

وذٰلك لأنَّ التَّتر لم يكن عندهم تراثٌ علميٌّ ، ورصيدٌ للحضارة والمدنيَّة ، والقوانين المدوَّنة الشَّاملة ، والكتب والمؤلَّفات ، بل كانت عندهم دساتير قبليَّةٌ تقليديَّةٌ بسيطةٌ ،

وأعرافٌ قوميَّةٌ وحشيةٌ كانت متَّبعةً في مناطق جبال قراقرم ، وما حواليها ، فاحتاجوا إلىٰ العلماء المسلمين ، ورجال الفكر ، والاجتهاد من المسلمين ، وما أن احتكُّوا بهم ، وتردَّدوا إلىٰ بلاطهم ؛ حتَّىٰ أخذوا بعلومهم ، وذكائهم ، وفكرهم ، واجتهادهم ، واستهوتهم الحضارة الإسلاميَّة ، فأسلموا بمجموعهم .

وقد قررت فلسفة التاريخ كمبدأ هامٍّ : أنَّ القوَّة الحربيَّة ، والاستراتيجيَّة لا تكسب النَّجاح ما لم تساندها العقول المفكِّرة ، وقوَّة التشريع ، والتَّقنين ، والمؤسَّسات المنظَّمة . . . وقد كان المسلمون أولي ذكاءٍ ، ومواهب ، كانت لديهم منابعُ التفكير ، والاجتهاد ، وحضارةٌ متقدِّمةٌ ، وثقافةٌ عظيمةٌ ، وتراثٌ علميٌّ عريقٌ عتيدٌ ، وتجربةٌ موسَّعةٌ دقيقةٌ في باب التقنين ، والتَّشريع ، يتمتَّعون بقدرةٍ فائقةٍ لحلِّ المشكلات ، والقضايا المدنيَّة ، وقد اضطرت الأوضاعُ التَّترَ أن يستنجدوا المسلمين في هٰذه النَّواحي كلِّها ، فكان ما كان .

إنَّ هٰذا الدِّين نابعٌ من العلم :

ومن واجبات العلماء والمسلمين ، وأساتذة الجامعات ، ومعلِّمي المدارس ، والكلِّيات ، ورجال القانون ، والأدباء ،

والمفكِّرين أن يثبتوا في العصر الحاضر : أنَّ هٰذا الدِّين لا يمتُّ إلىٰ الجهل بصلةٍ ما ، إنَّه ليس وليد الجهل ، أو القوَّة الحربيَّة ، إنَّه وليد المعرفة ، والهداية الإلـٰهيَّة ، والوحي الإلـٰهيِّ ، والعلم الرَّبَّانيِّ ، إنَّه يستطيع أن يرافق الزَّمان في كلِّ أوضاعه ، وملابساته ، ومشكلاته ، ومعضلاته ، ويقدر علىٰ أن يوجِّه المدنيَّة ، ويراقب الحضارة ، ويتعهَّدها ، ويمنعها من الشُّذوذ ، والانحراف ، والتَّفسُّخ ، والفساد ، والهدم ، والإفساد .

إنَّ هـٰذا العمل العظيم ، لا يستطيع أن ينهض بعبئه إلا علماء الدِّين ، والطَّبقة المثقَّفة العليا ، وإنَّه لمسؤوليَّةٌ عظيمةٌ علىٰ أكتافهم ؛ لأنَّه خطرٌ كبيرٌ علىٰ دينٍ ، أو أمَّةٍ يعتقد فيهما الناس : أنَّهما لا يتَّصلان بالعلم ، بل إنَّهما عدوَّا العلم ، وصديقا الجهل ، ويضرُّهما العلم ، وينفعهما الجهل ؛ لأنَّ النَّاس حينئذٍ يرونَ : أنَّهما لا يستطيعان أن ينفذا في القلوب ، ويتملَّكا العقول ، ويقنعا النُّفوس ، فلهما صولةٌ ، وجولةٌ ما دامت السُّيوف تحميهما ، والقوَّة الحربيَّة تقف من ورائهما ، ويخيِّم الجهل رواقه عليهما ، وما أن يسطع نور العلم حتَّىٰ ينقشعا كالظُّلمات تنجاب عن إشراق الشَّمس .

وتلك هي قصَّة المسيحيَّة ؛ الَّتي لم ترافق العلم ، وإنَّما برزت كحركةٍ روحانيَّةٍ اجتماعيَّةٍ ، نعم قد وجَّهها

المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ توجيهاً نبويّاً صحيحاً ، فأثَّرت تأثيرها المُطلق بحكم وجاهته ، وقدسيَّته ، وقوَّته الرُّوحيَّة ، وشخصيَّته القويَّة ، وفراسته النبويَّة ، أما بعده ؛ فلم تتمتَّع إلىٰ زمنٍ طويلٍ بتوجيهٍ سديدٍ من الأذكياء أولي الألمعيَّة ، والبصيرة الإيمانيَّة ، فتشوَّهت صورتُها ، وسيرتُها ، ولمَّا دخلت في أوربا ظنَّ النَّاس : أنَّها لا تستطيع أن تساير الزَّمان ، فلا بدَّ من عزلها عن شؤون الحياة ، ولتعش حبيسة المغارات ، والكهوف ، والأديرة ، والكنائس .

المسيحيَّة لا تحمل شريعةً مستقلَّةً :

كانت أوربَّا وقتذاك تقفز قفزاتٍ واسعةٍ ، تقطع مراحل الرُّقيِّ ، والتَّقدُّم بخطىً حثيثةٍ ، تتدفَّق في المجتمع الأوربيِّ قوىٰ الرُّقيِّ ، والانطلاق ، وكان هناك صراعٌ عنيفٌ حول « التَّنازع للبقاء » وكانت المسيحيَّة الَّتي كانت في دور طفولتها ، ولم تحظ بتدوينٍ ، وشرحٍ وتنسيقٍ ، ولم يكن لديها قانونٌ مستقلٌّ ، فكانت تعتمد علىٰ القوانين اليهوديَّة ، وتتطفَّل علىٰ مائدة الشَّريعة الموسويَّة ، بتغييرٍ يسيرٍ ، وتعديلٍ خفيفٍ ، ومن ثمَّ قال المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران : ٥٠] ولم يقل : إنِّي جئتكم بشريعةٍ مستقلَّةٍ ، إذاً ، فكانت المسيحيَّة تُصلح ما أفسدته اليهوديَّة ، ولم يكن عندها دستورها الذَّاتيِّ ، وكان جلُّ عنايتها مصروفاً

إلىٰ الرَّحمة ، والرَّأفة ، والحبِّ ، ومؤاساة الإنسانيَّة ، والحدب علىٰ الضُّعفاء ، والمظلومين ، وتحرير المسحوقين ، والقضاء علىٰ السِّيادات الَّتي ما أنزل ٱللَّه بها من سلطان .

ولمَّا وصلت المسيحيَّة إلىٰ أوربَّا الفتيَّة المنتعشة ، المتدفِّقة المتوثِّبة ، وتعرَّف بها أهلها الَّذين كانوا يسابقون الرِّياح في ميدان التقدُّم ، ويمرحون ، ويرقصون رقص العواطف الهوجاء ، اكتشفوا سريعاً : أنَّها ـ أي : المسيحيَّة ـ لا تستطيع أن تساير الزَّمن المتطوِّر ، والمجتمع السَّبَّاق ، والرَّكب المتقدِّم ، والعلم المتدفِّق ، هنالك فرَّط العلماء المسيحيُّون في جنب المسيحيَّة أيَّما تفريط ، فقد كان الموقف يحتِّم عليهم أن يثبتوا حين ذاك مصلحة المسيحيَّة ، وغناءها وأن يجودوا علىٰ المجتمع الأوربيِّ بتوجيهاتٍ مبدئيَّةٍ ، وأن يستقبلوا متطلَّبات الوقت ، ومقتضيات الإنسان ـ الَّتي لم تكن تتعارض مع صميم المسيحيَّة ـ ثم يطالبوا النَّاس بمراعاة روح الدِّين وتعاليم المسيحيَّة في تحقيق رغباتهم ، ومتطلَّباتهم ، لٰكنَّهم لم يصنعوا كلَّ ذٰلك ، بل توزَّعوا في طبقتين : طبقة الحكام ، ورجال الدِّين ، أو طبقة علماء الدِّين ، ورجال الإدارة ، والحكم ، وعادت الطَّبقة الأولىٰ لا تؤمن بالمسيحيَّة إلا كعقيدة وحدها ، لا شأن لها بالحياة ، وبالحكم ، وتنظيم شؤون الحياة ، وإدارة الحكم ، والسِّياسة ، والتَّشريع

والقانون ، أمَّا الطَّبقة الثَّانية ؛ فلم تعد وظيفتها إلا معارضة الطَّبقة الأولىٰ ، والوقوف في طريق الرُّقيِّ ، ورأوا أنَّ التَّقدم هو الفرار عن الحياة ، والهروب من ضجيجها ، وضوضائها ، واللُّجوء إلىٰ الـكنائس ، والاعتزال في الغابات ، والعزوبة ، والعزوف عن النِّساء ، والفرار من ظلِّهنَّ ، واعتقدوا : أنَّ تلك هي طرق الاحتفاظ بالرُّوحانيَّة .

علىٰ كلٍّ فكلتا الطَّبقتين ألحقتا بالمسيحيَّة ضرراً فادحاً : فالطَّبقة الحاكمة تحرَّرت من كلِّ حدٍّ ، وقيدٍ ، وعادت تصوغ هيكل المدنيَّة في عزلةٍ عن تعاليم المسيحيَّة ، وصارت تستعبد الناس ، وخطا بعض المعارضين للمسيحيَّة خطوةً أخرىٰ ، فنالوا منها في قارعة الطَّريق ، وجعلوها عرضةً لكلِّ تهمةٍ ، وضعفٍ ، وسقطةٍ ، وبدأت كلُّ هـٰذه الألاعيب منذ « سنت بال » ولا تزال المسيحيَّة سائرةً علىٰ هـٰذا الدَّرب ممَّا جعلَ النَّاس أن قطعوا آخر خيطٍ كان يربطهم بالـكنيسة ، ووقع الخليج بين الـكنيسة ، والإمارة للأبد ، وظلَّت المسيحيَّة يتقلَّص ظلُّها ، حتَّىٰ أصبحت نقطةً لا تتَّضح .

الإسلام والعلم متلازمان :

والحمد لله : إنَّ هـٰذا الخطأ لم يقع في عالم الإسلام ؛ لأنَّ الإسلام ، والعلم ظلاَّ متلازمين منذ اليوم الأول ، وقد

قلت في الكلمة التي ألقيتها في جامعة « كراتشي » : إنَّ الدِّين الذي كانت بداية نزول وحيه بكلمة : « اقرأ » ولم يتجرَّد وحيه الأوَّل من ذكر القلم ؛ ما كان ليفارق العلم ، والقلم في أيِّ زمانٍ ، ومكانٍ ، ولا يمكن في دنيا الإسلام أن يتصوَّر أحدٌ مفارقة الدِّين للعلم ؛ لأنَّ الإسلام ، والعلم رفيقان وفيَّان منذ بداية الطَّريق . . . وتعلمون : أنَّ أسرىٰ بدر الكافرين ، كان عددٌ منهم لا يستطيع أن يفكُّوا رقابهم بتقديم الفدية ، وهنالك جُعلت فديتُهم أن يُعلِّم ـ كلٌّ منهم ـ عشرةَ أفرادٍ من أولاد الأنصار ، والمهاجرين .

الإسلام لا يساير الزَّمان فحسب ، بل يوجهه ، ويقوم بإرشاده :

قد كان أكبر واجبات العلماء المسلمين اليوم أن يربؤوا بالإسلام من أن يزعم الشَّباب المعاصر : أنَّه يقوم علىٰ ركيزةٍ من القوَّة ، والحكومة ، ولا يستطيع أن يجاري تقلُّبات الزَّمان ، وتقدُّم العلوم ، والفنون ، وقد تقادم عهده ، وولَّىٰ دوره ، ونفدت بطاريَّته ، قد كان له أن يساير العصور البدائيَّة السَّاذجة المحدودة النِّطاق حينما كانت البشريَّة في عهد طفولتها ، أمَّا في هـٰذا العصر (عصر المدنيَّة المتقدِّمة ، المعقَّدة المتشعِّبة) فلا يملك أن يمثِّل دوراً في الحياة .

كان من أضخم مسؤوليات علماء الإسلام أن يواجهوا هٰذا التَّحدِّي ، وأن ينسِّقوا هٰذه المدنيَّة مع مبادئ الإسلام ، باستخدام ذكائهم ، ودراستهم العميقة ، والمرونة ، والنُّعومة الَّتي يتمتَّع بها أصول الفقه في الإسلام ، بمعونةٍ من مبادئ الكتاب ، والسُّنَّة الَّتي تستطيع أن ترشد الأجيال البشريَّة في كل زمانٍ . . . والتَّقصير في هٰذا الجانب أقلُّ نتيجته هو التَّحرُّر من الحياة الإسلاميَّة ، والتَّجرُّد من تعاليم الإسلام ، وأحكام الكتاب ، والسُّنَّة ، وأسوأ عاقبته هو الإلحاد ، واللادينيَّة ، والثَّورة علىٰ الدِّين ، والخروج علىٰ تعاليمه . ونرىٰ الدُّول الإسلاميَّة تتوزَّعها هاتان العاقبتان الوخيمتان ، اللَّتان تعتبران ثورةً علىٰ الرِّسالة الإلـٰهيَّة ، والتَّعاليم المحمَّدية .

ومن ثمَّ فإنَّ العمل الأوَّل ، والأهمَّ اليوم أن نثبت : أنَّ الإسلام بروحه ، ومقاصده ، ومبادئه العتيدة ، يستطيع أن يساير الحياة ، حاشا للَّه ! بل يستطيع أن يقودها ، ويوجِّهها ؛ لأنَّ مسايرة الإسلام للحياة هي شيءٌ تافهٌ متواضعٌ ، لا يتَّفق وشأن الإسلام ، ومكانه ، ومركزه في الحياة ، والكون ، وإنَّما عبرت بالمسايرة تنازلاً . . . ومكان الإسلام الحقيقيُّ هو : أنَّه وحده يقدر علىٰ أن يرشد الحياة ، وينقذها من الأخطار ، والأهوال . . . والمدنيَّة الَّتي شذَّت عن تعاليم الإسلام ومبادئه مدنيَّةٌ زائفةٌ ، والإمارة ، أو الدَّولة التي

انحرفت عن التعاليم الإلـٰهيَّة عرضةٌ لكلِّ خطر ، ومصيرها الفناء ، والانهيار مهما كانت موطَّدة الأركان شامخة البنيان .

يجب أن نؤثر الإسلام علىٰ جميع المصالح والأغراض :

ومسؤوليَّة العلماء والمفكِّرين المسلمين ثانياً أن يفضِّلوا الإسلام علىٰ كل جماعةٍ ، ومؤسَّسةٍ ، ومدرسةٍ ، وطائفةٍ ، وحزبٍ . أيُها السَّادة ! إذا رأيتم : أنَّ بقاء الإسلام يتطلَّب أن تمحىٰ جميع الأسماء واللاَّفتات ، والشِّعارات ، والشَّارات ، والأحزاب ، والجماعات ؛ فليكن ذٰلك موضع عنايتكم ، ولا يقعن تلكؤٌ منكم ، أو أحجامٌ للحظةٍ واحدةٍ ، ولتكن مصلحة الدِّين ، والعقيدة مفضَّلةً علىٰ كلِّ مصلحةٍ حزبيَّةٍ ، أو جماعيَّةٍ ، وليكن نصب أعيننا هو الدِّين ، والإيمان ، وانتصارهما ، سواءً رجع الفضل إلينا ، أو إلىٰ غيرنا من الإخوان في العقيدة ، والدِّين ، وقد كان من معجزة نبيِّ الإسلام الأعظم سيدنا محمَّد ﷺ : أنه جعل أصحابه لا يطمعون في أن تنمىٰ إليهم مأثرةٌ ، أو يرجع إليهم الفضل في تحقُّق بطولة ، كان همُّهم الوحيد هو تحقيق المأثرة ، والبطولة ، وإرضاء ربِّهم تبارك وتعالىٰ ، ثم لا يبالون بشيءٍ .

وقد كان الصَّحابة يحزنون إذا اضطروا إلىٰ الإشارة إلىٰ

عملٍ قاموا به لوجه ٱلله الكريم ، كأنَّهم قد أفشوا سرَّاً كان الضنُّ به واجباً ، فقد رویٰ الإمام البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسنده عن أبي موسىٰ الأشعريِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : « خرجنا مع النبيِّ ﷺ في غزاةٍ ، ونحن ستَّة نفرٍ ، بيننا بعير نَعْتَقِبُه ، فنقبت أقدامنا ، ونقبت قدماي ، وسقطت أظفاري ، وكنَّا نلف علىٰ أرجلنا الخِرَق ، فسمِّيت غزوة ذات الرِّقاع ؛ لما نعصب من الخرق علىٰ أرجلنا . وحدَّث أبو موسىٰ بهٰذا ، ثمَّ كره ذٰلك ، وقال : ما كنت أصنع بأن أذكره ! كأنَّه كره أن يكون شيءٌ من عمله أفشاه »[1] .

ولٰكنَّ اليوم تغيَّر المقياس ، وتغيَّرت النَّفسيَّة ، والعقليَّة ، فأصبح الهمُّ يتركَّز علىٰ الانتماء إلىٰ مأثرةٍ ، وعملٍ جليلٍ ، وبطولةٍ نادرةٍ بحقٍّ ، وبدون حقٍّ .

وقد ذكرتني المناسبة بقصَّةٍ طريفةٍ : كان خطيبٌ مناظرٌ من إحدىٰ ولايات بلادكم ، اسمه : غازي محمود دهرم بال (Pal Mahmood Ghazi Dharam) سمعته يقول في خطبةٍ : أرىٰ الصُّحف تنشر خبر إسلام امرىءٍ ، فتنشره مقروناً بمن تشرَّف المرء بالإسلام علىٰ يديه الطَّاهرتين ، حتىٰ يتسامع النَّاس

---

(١) صحيح البخاريِّ : كتاب المغازي ، باب غزوة ذات الرِّقاع (٤١٢٨) .

باليدين الطَّاهرتين كما يتسامعون بإسلام فلانٍ ، وربما تكون العناية بالتَّنويه ، « باليدين الطَّاهرتين » أكثر من إسلام فلانٍ ، وأكثر من ذٰلك : أننا رأينا بعض النَّاس يتبادرون إلىٰ إمامة صلاة الجنازة ، إذا كان المُتوفَّىٰ رجلاً له شأنٌ ، ومكانٌ ، لكي تنشر الصُّحف خبر هـٰذه الإمامة لهـٰذه الجنازة العظيمة .

أيُّها السَّادة ! إنَّها عاطفةٌ خبيثةٌ ، قد تعود وبالاً علىٰ صاحبها ، ترون : أن قريباً من أقربائكم إذا ألمَّ به مرضٌ يتمنَّىٰ كلُّ أقربائه أن يعافىٰ المسكين ، بحيلةٍ ، أو بأخرىٰ ، ولا يبالون لمن يرجع إليه الفضل ، إلىٰ أحدهم ، أو إلىٰ الطَّبيب ، فكذٰلك العالم الإسلاميُّ مصابٌ بمرضٍ اليوم ، وبلادكم مريضةٌ ، فلتتركَّز عنايتكم علىٰ الشِّفاء ، والدَّواء ، سواءً وقع الشِّفاء في حسابكم ، أو حساب غيركم ، ولا تكترثوا بما عسىٰ أن يسجِّله المؤرخون ، وأيَّ جماعة يحبذونها ، وأيَّ حزب يعطونه الأوليَّة لدىٰ المدح ، والثَّناء ، لم يستطع رجال التاريخ والمعنيُّون بفلسفته أن يتواصَّلوا بالضَّبط والتَّحديد إلىٰ من كان له الفضل الأكبر في دخولهم في حظيرة الإسلام ؛ لأنَّ المؤمنين المخلصين الَّذين عملوا علىٰ ذٰلك في صمتٍ ، وفي هدوءٍ قد كتموا عملهم من حيث لم يستطع نظر التاريخ النَّفاذ إلىٰ يومنا هـٰذا أن يقع عليه ، ويتوصَّل إليه .

ليكن كلٌّ منكم جندياً صغيراً وفيّاً في المعركة الَّتي تجري

علىٰ ساحة هٰذا البلد من أجل إعادة الإسلام ، والشَّريعة الإسلاميَّة إلىٰ مكانتهما الأصيلة ، ومن أجل صوغ الحياة ، والمجتمع ، والمدنيَّة في قالب الإسلام ، وتخليص المجتمع من المفاسد التي تسرَّبت إليه بفعل المدنيَّة الغربيَّة وعلىٰ أيدي ساستنا ، وأخلِصوا العمل لِلَّه ؛ تسجلْ أسماؤكم في سجِّلاته القدسيَّة النُّورانيَّة ، ولا تبالوا بالثَّناء الحقير ، أو التحبيذ الوضيع ، أو الشُّهرة التَّافهة في هٰذه الدُّنيا الحقيرة الفانية بين هٰذا الخلق الفاني .

وليكن موضع اعتباركم : أنَّ المعركة الحاليَّة ليست بين مدرستين فكريَّتين ، وإنَّما هي بين الإسلام ، والجاهليَّة ، وبين الدِّين واللَّادينيَّة ، فتصوروا كأنَّ هناك مسجداً يجري بناؤه ، فكلُّ من ساهم فيه سينال الجزاء حسب إخلاصه ، واحتسابه ، ولا ينبغي لأحدٍ أن يبحث عمَّا إذا كان اسمه في أوَّل قائمة الَّذين ساهموا في بناء المسجد ، وعن تسجيل كميَّة المساهمة التي قام بها ، يجب أن نحارب مثل هٰذه العاطفة الغير المحمودة ، ونتغلَّب عليها ، ونخضعها إلىٰ حدٍّ مستطاع .

اصرفوا عنايتكم ـ علىٰ اختلاف الطَّبقات ، والمسالك ، والمذاهب ، والمناهج ـ إلىٰ هٰذه الجبهة ، جبهة الدَّعوة الإسلاميَّة ، وجبهة صوغ الحياة في بوتقة الشَّريعة الإسلاميَّة ، وليكن هٰذا البلد الكريم نموذج الحياة الإسلاميَّة ، الَّتي يمكن

أن يراها الإنسان بالعيان ، بل يلمسها بالبنان .

لا بدَّ من الإيثار ، وتقديم التَّضحية :

والأهمُّ من كلِّ ذٰلك أن نعمل بالإيثار ، ونتجنَّب الخصام ، وبقدر ما تكون حياتنا بسيطةً ، ومعيشتنا ساذجةً ، وبقدر ما تكون حياتنا مشفوعةً بالإيثار ، والتَّضحية تأتي النتيجة أحسن ، والثَّمرة أحلىٰ بقدر ذٰلك ، والشَّيء الذي يكمن فيه الخطر العظيم هو التَّخاصم ، والتَّطاحن ، ومن هنالك يتحتَّم أن نتحاشىٰ عن التَّعرض للمباحث الدِّينيَّة ؛ لأنَّ لها محلَّها ووقتها ، وقد صرَّح الإمام أحمد بن عبد الأحد السَّرهنديُّ (المعروف بمجدِّد الألف الثَّاني) في إحدىٰ رسائله : أنَّه قد كان السبب في تقزُّز الإمبراطور المغولي : « أكبر » من الإسلام ، وخروجه من ربقته هو تنافر العلماء كالدُّيوك ، فقد كانوا يناقشون مناقشةً ساخنةً حول المسألة المطروحة ، وكلٌّ منهم كان يحاول جهده أن يثبت تفوُّقه علىٰ الآخرين ، شأن الذين يسعون وراء الجاه ، والمنصب ، وشأن المتهالكين علىٰ زهرة الدُّنيا ، ونعيمها من عبَّاد المادَّة ، والمعدة ، وهنالك فكَّر « أكبر » وقال في نفسه : إنَّهم أخسُّ من وزرائنا ، وملئنا ، ورجال حكومتنا ومن المادِّيين المتهافتين علىٰ حطام الدُّنيا . ولمَّا بلغ الشَّيخَ السَّرهنديَّ : أنَّ الإمبراطور « جهانكير » ابن « أكبر » يريد أن يخصَّ عدداً من العلماء لبلاطه

يستشيرهم ، ويأخذ بنصائحهم ؛ كتب إلىٰ الأمير سيد فريد ، وقال : أشر علىٰ الإمبراطور ألَّا ينتقي لبلاطه إلا عالماً واحداً يخاف ٱلله ، ويخشىٰ حسابه ، وحذار أن يجمع بين عددٍ من العلماء . . . ! وذٰلك إنْ دلَّ علىٰ شيءٍ فإنَّما يدلُّ علىٰ فراسة الشَّيخ السَّرهنديِّ . وألمعيَّته البالغة ؛ حيث أدرك الحقيقية ، وأشار بالصَّواب . ولٰكن لا أقول : إنه يجب الاقتصار علىٰ عالمٍ واحدٍ في كلِّ قضية ، وفي كلِّ مناسبة ، وفي كلِّ موقف ، ولٰكني أريد أن أؤكد أن تخاصم العلماء ، وتطاحنهم يؤدِّي إلىٰ مثل هٰذه النتيجة المكروهة المؤلمة المشار إليها .

إنَّ الخطر ـ يا سادة ـ إذا كان قائماً علىٰ الرَّأس كالسَّيف المصلت ؛ فلكلٍّ حقٌّ أن يحذر منه ، ويشير بأخذ العدَّة الَّتي يقاوم بها الخطر ، حتَّىٰ الطفل له حقٌّ أن يقول : إنَّ الباب ـ مثلاً ـ مفتوحٌ يخاف منه اقتحام السَّارق . . . فأريد أن تكون الأمور المشار إليها موضع عنايتكم ، ولا يشغلنَّكم عنها شيءٌ .

أوَّلاً : أنقذوا الطبقة المثقَّفة بالثَّقافة العصريَّة أن تظنَّ : أنَّ تعاليم الكتاب ، والسنَّة ، والفقه ، وأصول الفقه الإسلاميِّ ، لا تقدر علىٰ مجاراة المدنيَّة المعاصرة ، ولا تستطيع أن تحلَّ القضايا المتجدِّدة ؛ لأنَّ ذاك شيءٌ خطر جدَّاً ، قد يؤدِّي إلىٰ الإلحاد ، واللَّادينيَّة .

ثانياً : لا بدَّ أن يراكم الشَّعب ، ورجال الحكومة أرفعَ من مستواهم أنفسهم ، وذٰلك بالحياة البسيطة الَّتي تحيونها ، وبالقناعة باليسير القليل من متاع الحياة ، ولا يرينَّكم تتطلَّعون إلىٰ المرتَّبات العالية ، والامتيازات الكثيرة ، والمنافع الكبيرة التي يتمتَّع بها الوزراء ، والحكَّام ، ولا يرينَّكم تتحلَّب شفاهكم لما يتقلَّبون فيه من عيشٍ رغيدٍ باذخٍ ، ونعيمٍ خافضٍ ، وما يملكونه من قصورٍ شامخةٍ ، وسياراتٍ فارهةٍ ذات النَّوعية الممتازة . .

أصارحكم أيُّها السَّادة ! أنَّ البلاد اليوم تحتاج الزَّاهدين القانعين الَّذين يفترشون الغبراء ؛ لأنَّ هٰذه الطَّبقة العالية لا تخضع إلا لأمثالهم ، ولٰكن لا أشير عليكم أن تتكلَّفوا الزَّهادة ، وأن تصنعوا صنيع الزُّهَّاد ، لٰكن الواقع أنَّ النَّاس يرتمون في حضن من يرونه زاهداً فيما عند الناس ، قانعاً بما قسم ٱلله له ، ترون : أنَّ الشَّيخ السَّرهندي لماذا خضع له إمبراطور عصره ؟ لأنَّهم رأوا : أنَّ هٰذا الرَّجل الأبيَّ ، لا يتردَّد إلىٰ البلاط ، ولا يطوف علىٰ الأمراء ، والكبار ، ولا يشفع لأحدٍ ، وإنَّما يذكر ربَّه خالياً قابعاً في ناحيةٍ مفردةٍ ، وينصح النَّاس ، ويخلص لهم الودَّ ، ويسدي إلينا بالتَّوجيه والمشورة ، وكذٰلك صنع جميع علمائنا العاملين ، لم يختلفوا إلىٰ الملوك ، ولٰكنَّهم راقبوهم من بعيد ، ووفَّروا للحكومة

رجالاً أمناء ، ودعوا لها ، ولم يبخلوا عليها بمشورتهم الغالية ، ولـٰكنَّهم كانوا يقولون : خيرٌ لكَ أن تصطلي بالنَّار من بعيدٍ ، أما إذا ألقيت يدك فيها ؛ فهي تحرقها .

هـٰذه ملاحظاتي ، وعصارة دراستي وضعتها أمامكم ، وقد تحدَّثت عنها في مناسباتٍ كثيرةٍ ، وعصارتها : أنَّ الوقت هو وقت محنتنا ، ومحنة العالم الإسلاميِّ كلِّه ، يجب أن نثبت جدارتنا ، وصلاحيتنا ، وأخاف أنَّ شعور الناس بضعف صلاحيتنا قد يلحق ضرراً بالإسلام ، ويسجِّل المؤرِّخون ، ويتحدَّث النَّاس : أنَّ هـٰذه الخسارة قد جلبها عدم جدارة العلماء ، وقلَّة كفاءتهم .

ومعذرةً إليكم إذا بدرت منِّي كلمةٌ ساءتكم ! وختاماً أتضرَّع إلىٰ ٱلله العليِّ القدير أن يوفِّقنا لهـٰذه الغاية ، وييسِّر لنا المهمَّة ، ويهدينا سبيل الرَّشاد .

والسَّلام علكم ورحمة ٱلله وبركاته .

✍ ✍ ✍



هٰذه الدُّنيا وقفٌ مقدَّسٌ وليست بدكَّان تاجر

(أُلقيت هـٰذه المحاضرة في حفلةٍ ترحيبيَّةٍ عقدت علىٰ شرف المحاضر في المكتب المركزيِّ لمصلحة الأوقاف بمدينة « لاهور » في ٢٧ / يوليو (١٩٧٨م) ، حضرها العلماء ، والقضاة ، والمحامون ، ورجالاتُ القانون ، والمثقَّفون) .

بعد الحمد والصَّلاة :

أصحاب الفضيلة والسَّعادة ، العلماء ، والمسؤولون عن وزارة الأوقاف والعاملون فيها ، والمستمعون الكرام !

إنِّي أشكر وزارة الأوقاف علىٰ أنَّها شرَّفتني بتوجيه الدَّعوة إليَّ للحضور في هـٰذا الحفل الكريم ، والحديث إليه ، وقد كنت ظننت لمَّا تلقَّيت الدَّعوة : أنَّ الحفل سيكون مشتملاً علىٰ عددٍ محدودٍ من أولـٰئك السَّادة الذين يتَّصلون بإدارة الأوقاف ، وأنِّي سأسعد بالتَّعرُّف عليهم ، والاستفادة منهم ، ولـٰكنِّي لمَّا حضرت ؛ فوجئت بأنَّ المطلوب منيِّ الحديث في الحفل

الكريم حول موضوع « حاجة العالم المعاصر إلىٰ الإسلام » .

وشغلني التَّفكير فيما عسىٰ أن تكون صلة هـٰذا الموضوع بمصلحة الأوقاف الكريمة ، ولم يطل تفكيري ، وتوصَّلت إلىٰ الحقيقة ، وأدركت عمق هـٰذه الصِّلة ؛ حيث إنَّ دنيانا هـٰذه في الواقع هي وقف مقدَّسٌ ، وإنَّما يصلح لتولِّيها أولـٰئك الَّذين يعرفون تمام المعرفة مقاصد هـٰذا الوقف ، ولا يهتمُّون بأهداف الواقف فحسب ، بل يخلصون لها في غاية الأمانة ، والوفاء .

وأصبحت الدُّنيا اليوم وقفاً مظلوماً ، لا يعرف الَّذين يتولَّون أمره ، ويقومون عليه المقاصد التي أريدت من ورائه ، بل إنَّهم يحاربون هـٰذه المقاصد ، ولم يكتشفوا بعد من هو واقف هـٰذا العالم الإنسانيِّ ، وهـٰذا الكون ؟ . . . إنكم تعرفون جيداً عن تجربةٍ : أنَّه لا بدَّ أولاً من الاطِّلاع علىٰ الواقف ، ثمَّ الاطِّلاع علىٰ غايته ، ولا بدَّ ثالثاً أن يكون المتولِّي يشعر نحو الوقف بأنَّه متوليه الأمين الوفيُّ . . . وقد جاء التعبير في القرآن الكريم عن تولية هـٰذا الوقف بألفاظٍ كثيرة ، فجاء في موضع : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد : ٥٧] . . . إنَّ هـٰذا « الاستخلاف » أيضاً نوعٌ من التَّولية ، فقد خلق ٱلله هـٰذا الكون ، وفطر هـٰذه الأرض ، وعمر عليها هـٰذا الإنسان ، وقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ٢٩] ، فكأنَّه ولَّىٰ الإنسان جميع ما في الأرض ، ولـٰكن

أكَّد عليه : أنَّه ليس مالكه الحقيقيَّ ، بل إنَّه خليفته فيه ، فيتصرَّف فيه حسب مشيئة المالك الأصليِّ ، ولا يجوز له أن يتخطَّىٰ رضاه ، ويتعدَّىٰ أوامره ، وإرشاداته في هٰذا الصَّدد . . .

ولكلِّ وقفٍ ـ مهما كان صغيراً ـ قوانين مقرَّرة ، والمنبر الذي نتحدَّث منه إليكم مكتبٌ مركزيٌّ من مكاتب مصلحة الوقف ، الَّتي أساسها الحفاظ علىٰ الأوقاف ، وأرجو أنَّكم جميعاً أوفياء أمناء في عملية الحفاظ ، وتحقيق الأغراض المنشودة من الأوقاف . . . ولٰكن مسكينةٌ هٰذه الدُّنيا ، ومسكينةٌ هٰذه الكرة الأرضيَّة الواسعة ، لأنَّها وقف لا نجد نظيره في تاريخ الأوقاف ، فقد يتصرَّف القائمون عليه كما يشاؤون ، ويعيشون ، ويفسدون . . وقد كان ٱلله سبحانه وتعالىٰ هو الَّذي وقف هٰذا الوقف ، وجعل الأنبياء ، والرُّسل ، وأممهم متولِّيةً ، وقائمةً عليه ، وكان متولِّيه الأخير هو سيِّدنا محمَّدٌ ﷺ ، فدته أنفسنا ، وأرواحنا !

الأمَّة المسلمة ليست كحشائش الغابة ، والشُّجيرات الَّتي تنبت عفواً :

ومزية سيِّدنا محمدٍ رسول ٱلله ﷺ من بين جميع الأنبياء ، والرُّسل : أنَّه لم تكن بعثته بعثة نفسه وحدَها كالأنبياء

الآخرين ، بل كانت بعثة أمةٍ أيضاً ، ومعنىٰ ذٰلك : أنَّ هـٰذه الأمَّة ليست كحشائش الغابة ، أو كالشُّجيرات الَّتي تنبت عفواً ، أو ليست كهوامِّ الأرض . إنَّ القرآن الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة الشَّريفة كلاهما يذكران هـٰذه الأمَّة بكلمات تنبئ عن المسؤولية الجسيمة : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] . . . كلمة : « أخرجت » تدلُّ علىٰ أنَّها أنشئت لغايةٍ : للحفاظ علىٰ الإنسانيَّة ، ولتحقيق أهداف ربِّ العالمين ، فاطر السَّمـٰوات والأرضين ، وكخليفة ٱلله في الأرض ، ووصفها الحديث النَّبويُّ بما يلي : « إنَّما بُعثتم ميسِّرين ، ولم تُبعثوا معسِّرين »[1] ، قد دلَّت كلمة : « بُعثتم » : أنَّ الأمة أسند إليها عمل ، وكلِّفت بتحقيق غاية ، ونصبت لأجل تحقيق غرضٍ كريمٍ ، ودلَّت كلمة « ميسِّرين » : أنَّها خلقت لكي توفر السُّهولة ، لا لكي تخلق الصُّعوبة ، الحكومة مسؤولة عن ضياع وقفٍ مهما كان ضئيلاً ، وسواءً كان الوقف عبارةً عن مسجدٍ ، أو عن دارٍ لليتامىٰ ، والعجزة ، أو عن عقارٍ ، أو ما إلىٰ ذٰلك ؟ فهي تستخدم جميع إمكانيَّاتها ، ووسائلها في سبيل الحفاظ عليه ، ومنعه من أن يقع عرضة

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الوضوء ، والأدب ، والطَّهارة ، وأحمد في المسند ، (ج٢ / ٢٣٩) .

للضَّياع ، والهدر . . . وذٰلك شيءٌ تمرُّون به ليل نهار ، ولـٰكن يا لضياع هـٰذا الوقف ! فإنَّ القائمين عليه يتصرَّفون فيه كما يشاؤون ، وأصبحوا ملاَّكاً له بدون جدارة ، وبدون شرعيَّة ، وعلىٰ الرَّغم من ذٰلك يقفون منه موقف الأعداء الحانقين ، يعاملونه معاملة مقبرةٍ ليس بها داعٍ ولا مجيبٌ ، بل معاملة أشنع منها ، وقد « حوَّله الإفرنج إلىٰ مواطن الميسرة ، والقمار » كما يقول الدُّكتور محمد إقبال رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

هل تستطيعون أن تصبروا وقد حُوِّل مسجدٌ إلىٰ دارٍ للقمار ؟ ! ولـٰكن هـٰذه الأرض التي قال فيها النبيُّ الأعظم ﷺ : « جعلت لي الأرض مسجداً ، وطهوراً » حوَّلها الإفرنج إلىٰ مخبأ للقمار ؛ وأنتم هادئون ساكتون .

أعتقد : أنَّ الَّذين حدَّدوا للكلام هـٰذا الموضوع الَّذي نتحدَّث حوله كانوا أذكياء بعيدي النَّظر ، وقد أصابوا المحزَّ ، حيث لفتوا الأنظار من هـٰذا الوقف إلىٰ الوقف الأعظم .

لو ألقيتَ نظرةً علىٰ هـٰذا العالم ؛ لوجدتَ : أنَّ الَّذين كان عليهم أن يكونوا بناةً أصبحوا معاول الهدم ، والَّذين كان عليهم أن يكونوا أمناء حارسين أصبحوا لصوصاً غاصبين ، وقطَّاعاً شطَّاراً ماكرين ، والذين كان عليهم أن يرعوا ضروريات ساكنيه ، وأهله ، وحوائجهم ، وعواطفهم صاروا يصيدون في

كلِّ ماءٍ عكرٍ ، وجعلوا يقيمون قصور تنعُّمهم علىٰ أنقاض أحلامهم ، وأطلال آمالهم ، وعادوا يفكِّرون في الإطاحة بهٰذا العالم ، ويحفرون قبوراً للأفراد ، بل للأقوام ، والأمم ، والبلاد ، بل للإنسانيَّة ؛ لكي يدفنوها للأبد .

إنَّها لمؤامرةٌ ضدَّ الإنسانيَّة ، مؤامرةٌ ضدَّ الأخلاق ، كما يقول إقبال ، ومؤامرةٌ ضدَّ مصير الإنسان ، ومستقبله ، ولا أدري ما إذا كانت هٰذه مؤامرة ضدَّ حاضر الإنسان قبل مستقبله ، ويومه قبل غده ؟ !

وحقَّاً إنَّ هٰذا الوقف عرضةٌ للضَّياع ، والهدر ، وحقَّ لكلِّ أفراد بني آدم أن يهبُّوا للدِّفاع عنه ، ويحطِّموا أيدي الغاصبين ، والمعتدين عليه ، وأن يقيموا عليه الدَّعوىٰ .

أقيموا محكمة الإسلام :

يحقُّ لجميع الجنس البشريِّ أن يقيم دعواه علىٰ ما يتعرَّض له هٰذا الوقف العظيم الكريم من معاملةٍ قاسيةٍ ، ومن غصبٍ ، ونهبٍ ، ومن إضاعةٍ ، وإهدارٍ . . . إنكم ترفعون قضيَّتكم الشَّخصية إلىٰ المحاكم العاديَّة ، إلىٰ المحاكم العليا ، وإلىٰ محكمة قاضي القضاة ، فأين تقام الدَّعوىٰ ـ يا ترىٰ ـ ضدَّ هٰذه المؤامرة الأليمة العالميَّة ضدَّ الإنسانيَّة ، والنَّوع البشريِّ ؟ اسألوا الحقوقيين ، اسألوا

المعنيِّين بالقضايا الإنسانيَّة ، اسألوا العطوفين علىٰ الإنسانيَّة : أين تقام هٰذه الدَّعوىٰ ؟

إنَّ الذي عقَّد الأمر : أنَّ المدَّعىٰ عليهم هم القضاة ، وإذا كان ا لأمر كذٰلك ؛ فماذا يرجىٰ من النتيجة ؟ ! وماذا ينتظر من العاقبة ؟ ! ولماذا يرجىٰ القضاء العادل ، والحكم الحقيقي الحاسم ؟ ! . . . فلنقم أوَّلاً تلك المحكمة التي ترفع إليها هٰذه القضيَّة ، وتقام فيها هٰذه الدَّعوىٰ ، وتلك المحكمة ستمتاز بميِّزتين بارزتين : الميِّزة الأولىٰ هي : العدل ، والإنصاف ، والميِّزة الثَّانية هي : القوَّة ، والتَّمكين ؛ لأنَّك اليوم لو تقدَّمت بقضيةٍ إلىٰ معنيٍّ بالإنسانيَّة ، إلىٰ محبٍّ للخير ، إلىٰ عاقلٍ نبيلٍ مؤمنٍ ، يقضي فيها بقضائه ، ويحكم فيها بحكمه ، ويبدي فيها رأيه ، لٰكنَّه يكون لا يتمتَّع بالسُّلطة التي تمكِّنه من تنفيذ هٰذا القضاء ، وإمضاء هٰذا الحكم ، فلا تجني منه فائدةً ، ولا تعود منه بطائلٍ .

ولا يملك اليوم بلدٌ من البلاد الإسلاميَّة أن يغيث الإنسانيَّة البائسة ، بل لا يقدر أن يدافع عن الأخطار التي تدقُّ بابه ، ويطرد العدوان عن نفسه ، وأبنائه .

إنَّ مأساة المآسي اليوم : أنَّ الخيانة متحكِّمةٌ في العالم البشريِّ كلِّه ـ الذي هي كوقفٍ مقدَّس ـ أصبح يتحكَّم فيه قانون

الغابات ، يأكل القويُّ فيه الضعيف ، وعاد كل إنسان يرىٰ كلَّ شيءٍ مباحاً له ، بل سائغاً حلواً ، هنيئاً مريئاً ، كَلِبَانِ الأمِّ لدىٰ الطفل الرَّضيع .

كان هـٰذا السُّلوك مع الوقف المقدَّس ، الَّذي أنشأه ٱلله تبارك وتعالىٰ بذٰلك الاهتمام العجيب الَّذي ذكره مراراً ، وتكراراً في كتابه العظيم ، القرآن الكريم ، والكتب الأخرىٰ التي أنزلها علىٰ عباده المرسلين من قبل ، وكان يكفينا ، لتقدير قيمة هـٰذا الوقف المقدَّس تنويه ٱلله سبحانه بشأن ذٰلك مرَّةً واحدةً ، فكيف وهو يكثر من ذكره ، وتفصيل أوصافه ، وملامحه ، ويذكر نوعية إنشائه للأرض ، وطريقة دحيه لها ، ونصبه لخيمة السماء ، ورفعه سقفها علىٰ طريقة هي أعجوبة العجائب ، وأنَّه جعل الشمس سراجاً ، وجعل القمر فيهنَّ نوراً ، وأنبت في الأرض جناتٍ وزروعاً من نباتٍ شتَّىٰ ، وفجَّر الأنهار . . . إلخ . . .

لماذا كلُّ هـٰذا التَّفصيل في الوصف ؟ . . لكي يدرك بنو آدم عظمة هـٰذا الوقف ، ويضعوا في اعتبارهم قداسته . . وذٰلك أنَّكم حينما تعلمون : أنَّ هناك وقفاً له سِجِلٌّ فيه تفاصيل مساحته ، وتحديده الجغرافيَّ ، وأبنيته ، وأنَّ فيه مثلاً مكتبةً عظيمةً ، تحتوي علىٰ عددٍ كذا من الكتب ، حينما تعلمون كلَّ ذٰلك ؛ تحسبون له ألف حسابٍ ، وتعيرونه كلَّ اهتمامٍ ،

فكذٰلك أراد ٱلله ـ جلَّ وعلا ـ أن يثبِّت في قلوبنا أهمِّيَّة هـٰذا الوقف الأعظم ، حينما فصَّل وصفه ، وأكثر ذكره : وحدَّد قسماته وملامحه ، ولـٰكن نراه اليوم يعاني معاملةً قاسيةً ، ففي ناحيةٍ تجري عملية هدمٍ سافرةٍ ، وفي ناحيةٍ توجد الوسائل بأنواعها ، ولا يعرف أصحابها الأهداف ، والغايات ، لا يعرفون فيم يستخدمونها ؟ وكيف يستعملونها ؟ ولأيِّ غرضٍ يسخِّرونها ؟ وبأيِّ طريقٍ يحقِّقون بها سعادة العالم البشريِّ ، ويخفِّفون بها بعض ما يعانيه من آلامٍ مبرحةٍ ، ويصلون بها فيما بين أفراد الجنس البشريِّ ، ويقلِّصون الفجوة الَّتي وقعت فيما بين قلوبهم ، ويزيلون الإحن ، والحقد ، والعداء ، ويحلُّون محلَّه الحبَّ والثِّقة والتَّعاطف ، ويلقِّنون الإنسان درس الإنسانيَّة .

المسيحيَّة واليهوديَّة عاجزتان عن التَّوجيه :

هـٰذه الأغراض الشَّريفة لا يمكن تحقُّقها إلاَّ عن طريق الأنبياء ، ولا يستطيع اليوم أن يحقِّقها ديانةً سوىٰ الإسلام ، أمَّا المسيحيَّة ؛ فهي عاجزةٌ عن ذٰلك عجزاً كلِّيّاً ؛ لأنَّها تعاني الفراغ الهائل ، فرغت جعبتها عن كلِّ ما لديها من إثارة النُّور الإلـٰهي ، وبقايا التَّعليم السَّماوي ، فلا تقدر أن توجِّه أبناءها ، وتحلَّ عقدها ، ومشكلاتها ، وتكبح جماحها ، وتحدَّ من تطرُّفها ، فضلاً عن توجيه العالم ، وقيادة الدُّول ، والأمم ،

لأنَّها مسيحيَّةٌ مشوَّهة تماماً لا تمتُّ بصلةٍ ما إلىٰ المسيحيَّة التي جاء بها المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وأمَّا اليهوديَّة ، فعهدها بالانحراف عريقٌ في القدم ، إنَّها ليست إلا عبارةً عن طقوسٍ ، وتقاليد ، وعنصريةٍ ، وتدور حول سلالة سيِّدنا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وأسباطه ، ولا تبالي بسلالةٍ إنسانيَّةٍ أخرىٰ ، ونوعٍ بشريٍّ آخر ، بل إنَّها تخطِّط لتدمير الأسر الإنسانيَّة ، وتحطيمها خلقيّاً وسلوكيّاً ، يصرِّح أبناؤها : أنهَّم يهدفون إلىٰ إشاعة الفاحشة ، والمنكر في أمم العالم ، وأن يضربوا علىٰ جذور قيمها ، ومثلها ، وأن يوقعوها في الفوضىٰ ، والقلق ، ويجعلونها مفلسةً في الفكر ، والرأي ، والمعنويَّة ، حتىٰ تكون هي كقطع الشَّطرنج بأيديهم يديرونها كيف يشاؤون ، وأن يجعلوها ذليلةً مهانةً ؛ حتَّىٰ تستسلم لهم ، وتخضع لإرادتهم ، وتكون رهن إشارتهم . . تلك هي اليهوديَّة .

فلا رجاء إذاً إلا في الإسلام ، فهو وحده يستطيع أن يوجِّه العالم ، والعالمُ اليوم بأمسِّ حاجةٍ إلىٰ الإسلام ؛ لكي ينقذه من الأزمة الأخلاقيَّة الَّتي تهدِّد كيانه . . . لو عامل هٰؤلاء هٰذا العالم معاملة دار الأيتام ، وظنُّوا أهله يتامىٰ يحتاجون إلىٰ من يمسح دموعهم ، لو وقفوا هٰذا الموقف ؛ لرضيناه ؛ ولو علىٰ غصصٍ ، ومضضٍ ، لرضينا لو وقفت أوربا من هٰذا العالم

وأهله موقف الناس من اليتامىٰ المنكوبين ، فواسته مواساة النَّاس للفقراء ، والمساكين ، وحدبت عليه ، ولو حَدْبَ اللئيمِ علىٰ اليتيمِ الكريمِ .

عاد العالم اليوم مكان قنصٍ ، وصيدٍ :

ولـٰكن للأسف لم يعد العالم داراً للأيتام ، أو العجزة ، والمساكين ، بل تحوَّل إلىٰ مصيدةٍ ، تتدفَّق دفعات الصَّيادين من هنا ، وهناك ويصيدون الأمم ، والأقوام ، ويدوسون الدُّول والبلاد . . . إنَّ الأمم الشَّرقية ، والبلاد الإسلاميَّة أصبحت كبقرة حلوب للقوىٰ العظمىٰ ، والدُّول الكبرىٰ ، إنَّ قيمة البلاد الشَّرقيَّة لدىٰ الدول الكبرىٰ تكمن في استيراد المواد الخام (Raw Material) منها واستيراد البترول ، أمَّا الدُّول الشَّرقية ، أو الإسلاميَّة فلا تنال منها مقابل ذٰلك كلَّه إلا مساعدةً مزعومةً لدىٰ الحروب لمقاومة الأعداء ، إذاً فإنَّها كحطب لمطبخ الدول الكبرىٰ ، أو كوقود لتنُّورها ، ولا تحلم هي عندها قيمةً أكثر من ذٰلك ، قد رأيت كلَّ ذٰلك ، وجرَّبت عن كثبٍ ، ومشاهدة ، فقد زرت الشرق ، والغرب ، كانت أوربا تدعو الدُّول الشَّرقيَّة من قبل : « دولاً متخلِّفة » وبدأت اليوم تدعوها : « الدُّول النامية » ومهما تغيَّرت في إطلاق الأسماء ؛ فإنَّ المسمَّيات عندها لم تختلف عن أنَّها كوقودٍ توقد به موقدها ، وتشعل به نارها ؛ لأنَّها تعلم : أنَّ مصاير الأمم

الشَّرقية كلِّها بيدها ، تقودها كما تشاء ، وتظنُّ : أنَّها قادرةٌ علىٰ أن تعامل هاتي الأمم معاملة العجماوات والبهائم ، بل معاملة الجمادات الصَّمَّاء البكماء ، ومن المؤسف جداً : أنَّه ليس هنا قوَّةٌ تقف في وجهها ، لأنَّ الأمم كلُّها فقدت قوَّتها ، وتماسكها ، وتعوَّدت الخنوع ، والاستسلام ، ونسيت رسالتها ، وقيمها ، وتخلَّت عن سيرتها ، وتجرَّدت من سلوكها ، وانسحبت عن الميدان .

الأمر يتوقف اليوم كلِّيَّاً علىٰ الإسلام ، والمسلمين :

ومن هنا فإنَّ الأمر يتوقَّف تماماً علىٰ الإسلام ، وأبناء الإسلام ، وتشتدُّ حاجة البشريَّة إليهم كحاجة الَّذين وقعوا فريسة الحريق إلىٰ فريق الإنقاذ ، والإسعاف ، ورجال المطافئ ، وذٰلك ما يضخِّم مسؤوليَّتكم أنتم أيُّها السَّادة ! عليكم أن تتداركوا هٰذه البلاد ، وتبذلوا عليها عنايتكم ، وتصرفوا جهودكم إلىٰ إصلاح المجتمع . إنَّ المجتمع في كلِّ بلدٍ إسلاميٍّ قد بلغ اليوم إلىٰ حالةٍ أسوأ من التفسُّخ ، والانهيار ، ويحتاج إلىٰ كلِّ إسعافٍ طبيٍّ سريعٍ . إنَّ عيب المجتمع ليس في أنَّه عاد فاسد الأخلاق ، والسُّلوك ، بل في أنَّه صار فاسد الطَّبيعة ، والعقليَّة . إنَّ المجتمع لو وقع فريسة الفساد الخلقي ؛ يمكن علاجه بآلاف الأدوية ، ومئات الطُّرق ، أما إذا فسدت طبيعته ، ونفسيَّته ؛ فإنَّه لا يؤثِّر فيه

دواءٌ ، ولا تنفع فيه حيلةٌ ، ولا يغني فيه طبيبٌ نطاسيٌّ . . .

إنَّ مصلحة الأوقاف تستطيع أن تقوم بدورٍ كبيرٍ في هٰذا الصَّدد بفضل إمكانيَّاتها ، ووسائلها ، وتستطيع أن تقوم بعمل عملاقٍ عن طريق خطباء المساجد ، وأئمَّتها الَّذين لهم اتِّصال مباشرٌ بالشَّعب ولو بذلت مصلحة الأوقاف عنايتها علىٰ هٰؤلاء الأئمَّة ، والخطباء واستقطبت اهتمامهم إلىٰ جانبٍ واحدٍ : إلىٰ جانب إصلاح المجتمع وحده ، دون تعرضٍ للمسائل المختلف فيها ؛ الَّتي من شأنها أن تثير الخلاف في صفوف المسلمين ، وأن تشتِّت شملهم ، لو صنعت ذٰلك ؛ لتكون قد قامت بعمل جليلٍ جداً ، ولخدمت العالم الإسلاميَّ خدمةً عظيمةً ، ولأنقذت هٰذه البلاد من كثيرٍ من الأخطار ، والويلات .

تعلمون : أنَّ محمَّداً الفاتح لمَّا غزا القسطنطينيَّة وكانت جيوشه تقتحمها ، وتتغلَّب عليها ؛ كان أهلها متشاغلين في نوعية الخبز الَّذي تناوله سيِّدنا المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ في العشاء الرَّبَّانيِّ ، وجرت حول ذٰلك مناقشاتٌ حادَّةٌ ، وتقعيرٌ ، وتنقيبٌ فلسفيٌّ ، في تلك السَّاعة الحرجة الَّتي كانت فيها جيوش محمد الفاتح تقتحم القسطنطينيَّة . . . أخاف أن تدور هناك في بلادكم أمثال هٰذه المسائل الخلافيَّة في وقتٍ تغزو فيه بلادنا الحضارة « الفاتحة » والمدنيَّة الفاتحة . إنَّ الحضارة اليوم تتقدَّم اليوم

فاتحةً تقدُّمها جنونيّاً ، وتزعزع قيمنا ، ومثلنا ، وتفكّك عرىٰ البلاد الإسلاميّة بما فيها بلادكم هـٰذه ، وتؤثر علىٰ المجتمع الإسـلامـيِّ ، وتعـانـي الحضـارة الإسـلاميَّـة الاحتضـار ، والانهيـار ، وأصبـح المسلمـون فـريسـة الـردَّة الفكـريَّـة ، والعقلية ، في مثل هـٰذه السَّاعة الحرجة يجري عندنا البحث في مسائل علم الغيب ، وبشرية الرَّسول ، وملكيَّته ، وعلمه للغيب ، وما كان من المتوقع لدىٰ العقول أن تثار أمثال هـٰذه المسائل في مثل هـٰذا الوقت الحسَّاس ، لـٰكن الدَّهر حبلىٰ ليس يدرىٰ ما يلد ! في هـٰذا العالم ما لا يكون في الحسبان ؛ إذاً كيف يمكن أيُّها السَّادة أن نضيِّع قوانا العقليَّة ، والفكريَّة ، وذكاءنا ، ومواهبنا في أمثال هـٰذه المسائل ، في مثل هـٰذا الوقت الدَّقيق ؟ ! نرجوكم أن تدركوا هـٰذه الأخطار ! إنَّ بلادكم واقفةٌ علىٰ منعطفٍ حساس ، يجب عليكم الآن أن تركِّزوا عنايتكم علىٰ التراث الإسلاميِّ ، والاحتفاظ بأعزِّ متاعٍ في الدُّنيا ، والآخرة ؛ ألا وهو الدِّين ، والعقيدة ، والإسلام ، إذا نجحتم في الاحتفاظ بهـٰذا المتاع العزيز الحبيب الأثير يأتي بعده دور هـٰذه المسائل الفرعية ، والخلافات الجانبيَّة . إنَّ هـٰذه الأبحاث يجب أن تكون رهينة المدارس ، والمعاهد العلميَّة ، والجهات العلميَّة والدِّينيَّة ، يجب أن لا تتجاوزها إلىٰ السَّاحة المكشوفة ، قد قلت في مؤتمرٍ عقدته جماعةٌ ذات

اتِّجاه خاصٍّ من الجماعات الإسلاميَّة في الهند : إن الخلافات لا تزال قائمةً بين المسلمين منذ القديم ، ولا تزال هناك خلافاتٌ في أحكام الصَّلاة فيما بين المذاهب الأربعة وغيرها ، لـٰكنَّها لم تسبب الفوضىٰ في داخل صفوف المسلمين قطُّ في الماضي ، وإنَّما أثارت الفوضىٰ حين جعل العلماء والمثقَّفون يتعرَّضون لها علىٰ الشارع ، وفيما بين الشَّعب ، ورجل الشَّارع ، وتجاوزوا بها حدود المدارس ، والمعاهد العلميَّة . إنَّ من الخطأ الفاحش أن نتعرَّض لهـٰذه المسائل في الأسواق ، وفي الشَّوارع ، وعلىٰ مفترقات الطُّرق ، وأن تحوَّل إلىٰ نعراتٍ وهتافاتٍ نستغلها لمصالح خاصَّةٍ ، وأن نفوضها إلىٰ الجماهير ، حتَّىٰ تتسع فيما بينهم هوَّة الانفصال بدل أن يتقاربوا . . . إنَّ البحث في هـٰذه المسائل لم يزل منذ القديم ، وظلَّت موضع النِّقاش ، والبحث ، وهـٰذا البحث ، والنِّقاش شحذ الأذهان ، وأضاف إلىٰ الثروة العلميَّة إضافاتٍ ، وزاد الذَّكاء حدَّةً وقوَّةً . إنَّ من خصائص الإنسان الحيِّ أن يتباحث ، ويتناقش ، ويتأمَّل ، ويتدبَّر ، وأن يحاول الفهم ، والإدراك ، والوصول إلىٰ الحقيقة ، ولا يمكن أن يفرض حدٌّ علىٰ ذٰلك .

إنَّ ذٰلك كله لا يضرُّ أبداً إلا إذا استُغلَّ لتحقيق الأغراض السِّياسيَّة ، أو الأغراض الحزبيَّة ، أو الجماعيَّة ، أو لإثبات التَّفوُّق الذَّاتيِّ علىٰ الآخرين ، أو استُخدِم كدرعٍ واقيةٍ للمصالح

الذَّاتيَّة ، والشَّخصيَّة . إنَّ هٰذه المسائل فقهيَّةٌ ، أو كلاميَّةٌ علميَّةٌ ، فلنقتصر بها علىٰ مكتباتنا ، وعلىٰ مدارسنا ، وعلىٰ مجالس علمائنا ، ومتعلِّمينا ، ولنتفاد بها من الدَّهماء ؛ لأنَّها إذاً تزيد المجتمع فوضىٰ ، وقلقاً ، واضطراباً ، وتزيد صفوف المسلمين تشتُّتاً ؛ لأنَّ الأمَّة المسلمة إنَّما جاءت لكي تصل الإنسان بالإنسان أيّاً كان ؛ فما بالك بالإنسان المسلم .

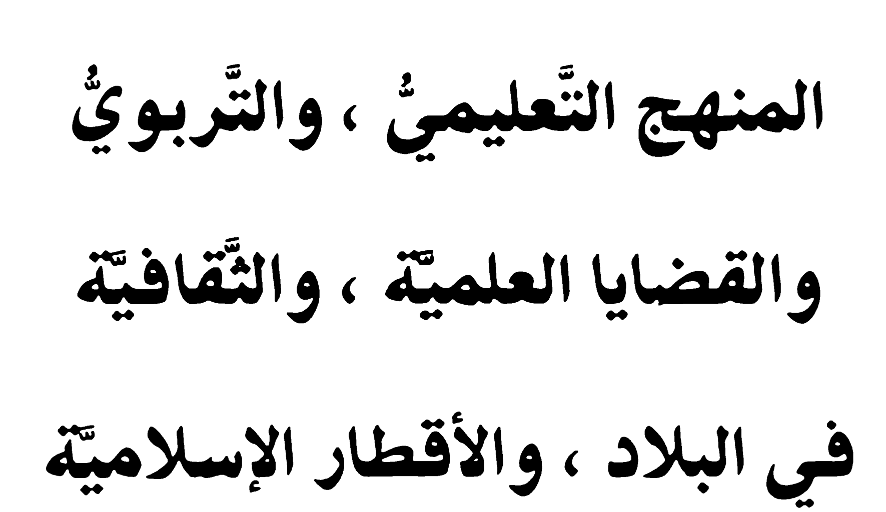
القضايا الَّتي تواجهنا ستقرِّر مصير الأمم ، والبلاد ، فخذوا الحذر ، أمَّا المسائل العلميَّة ، والأبحاث العلميَّة ؛ فلن يضع عاقل قيداً عليها ، ولن يسدَّ أحدٌ في وجهها الأبواب ، وسوف أعارض أنا ـ بصفتي طالباً للعلم ـ من اتَّجه هٰذا الاتِّجاه ، لٰكنِّي أرجو ألف مرَّةٍ ألَّا يستغلَّ ذٰلك لتحقيق غرضٍ سياسيٍّ ، أو حزبيٍّ ، أو جماعيٍّ ، أو لكسب الجاه ، والنُّفوذ ، أو لإثبات التَّفوُّق الشخصيِّ ، إنَّ الوقت يتطلَّب منَّا أن نخلص لِلَّهِ العهد لإصلاح المجتمع ؛ لكي تسلم البلاد من الرِّدَّة الحضاريَّة ، والمدنيَّة .

مصلحة الأوقاف هٰذه الَّتي نحن مجتمعون الآن في مكتبتها تستطيع أن تلعب دوراً هامَّاً ، بل دوراً حاسماً في هٰذا الشَّأن ؛ لأنَّ العلماء ، وأئمَّة المساجد ، وخطباءها لا يزال لهم سلطانٌ علىٰ القلوب ، ولا تزال قلوب المسلمين مفعمةً باحترام المساجد ، ومنابرها ، ومحاريبها ، فإذا انطلق صوتٌ من منابر

المساجد ، ومحاريبها ؛ فَسَيَنْفُذْ في النفوس ، ويدخل في سويداء القلوب ، ويصل إلىٰ موطنٍ سوف لن يصل إليه صوت قادتنا ، وزعمائنا السِّياسيِّين ، وحكامنا الإداريِّين ، مهما حاولوا ، فلنتَّق ٱلله فيما يتَّصل بهـٰذا الصَّوت ، واستخدامه ، ووضعه في غير موضعه .

ونشكركم أخيراً ؛ حيث وفَّرتم لي فرصة الحديث إلىٰ هـٰذه النُّخبة الممتازة من العلماء ، والخطباء ، وأئمَّة المساجد ، والمخلصين من المسلمين .

✍ ✍ ✍

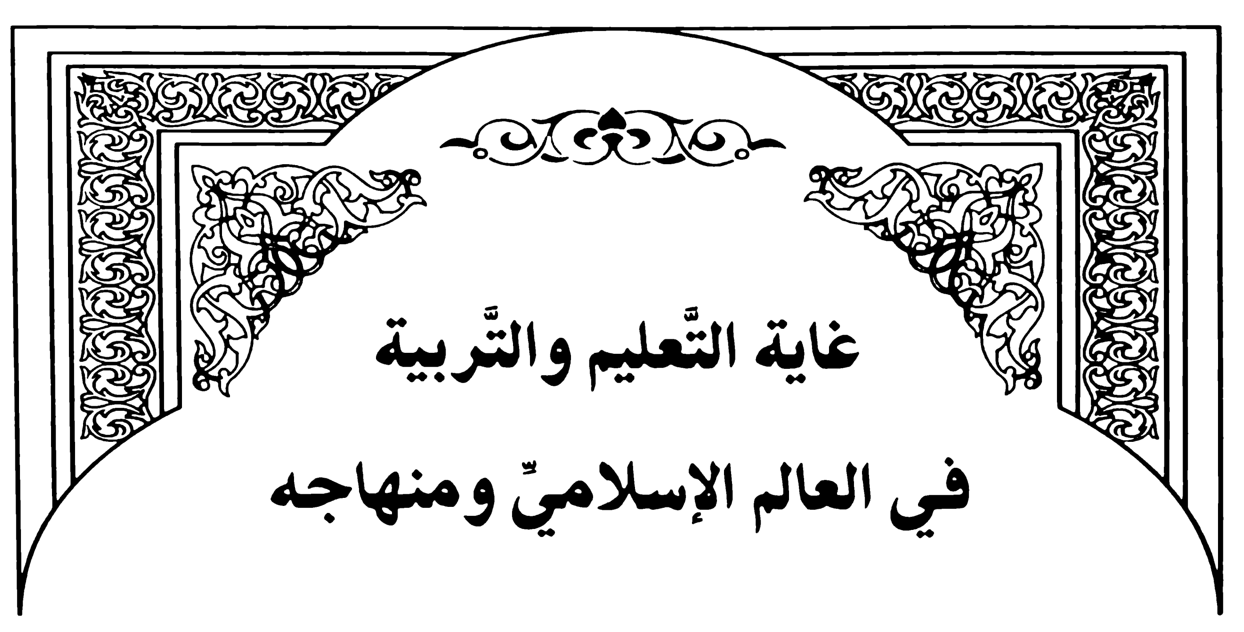


المنهج التَّعليميُّ ، والتَّربويُّ والقضايا العلميَّة ، والثَّقافيَّة في البلاد ، والأقطار الإسلاميَّة

المحاضرات الَّتي ألقيت

في الجامعات ، والمعاهد

العلميَّة ، والثَّقافيَّة



غاية التَّعليم والتَّربية في العالم الإسلاميِّ ومنهاجه

(ألقيت هـٰذه الخطبة في جامعة كراتشي (باكستان) في ١٢ / يوليو (١٩٧٨م) ، وقد استمع إليها أساتذة الجامعة ، وطلاَّبها ، والمسؤولون عنها بالإضافة إلىٰ عددٍ وجيهٍ من خبراء التَّعليم ، والثَّقافة ، والاجتماع ، والسِّياسة ، والصَّحافة ، والقادة ، والزُّعماء ، والمسؤولين عن المراكز التَّعليمية ، والثَّقافيَّة وقدَّم المحاضرَ الدُّكتورُ إحسان رشيد نائب رئيس الجامعة ، وألقىٰ الكلمة الختامية صاحب السَّعادة إسماعيل سعد أمين جامعة كراتشي) .

العلم حقيقة :

صاحب السَّعادة رئيس الجامعة ، وأصحاب السَّعادة ، والفضيلة أساتذة الجامعة ، وطلاَّبها ، وطالباتها ، وإخوتي الأعزَّاء !

علىٰ الرَّغم من أنَّني لا أؤمن بتقسيمٍ في العلم ، وأنَّني

أعتقـد : أنَّ العلـم وحـدةٌ لا تتجـزَّأ ، ولا تقبـل التَّـوزيـع ، والتَّصنيف ، ولا يصحُّ تقسيمه بين قديمٍ ، وجديدٍ ، وشرقيٍّ ، وغربيٍّ ، وعمليٍّ ، ونظريٍّ ، إنِّي أرىٰ - كما يرىٰ الدُّكتور محمد إقبال - : أنَّ التَّوزيع بين القديم ، والجديد لا يقول به إلا قاصرو النَّظر ، ضيقو الفكر ، بل إنَّني لا أؤمن بتقسيم العلم إلىٰ دينيٍّ ، ودنيويٍّ أيضاً ، إنيِّ أرىٰ أنَّ العلم حقيقةٌ ، أو تجربةٌ لا يملكها بلدٌ دون بلدٍ ، أو أمَّةٌ دون أمَّةٍ ، ولا ينبغي أن يكون كذٰلك ، ولن يمكن ذٰلك ، كما إنَّني لا أؤمن بتحديد منابع أخرىٰ في الحياة تحديداً جغرافيَّاً ، أو سياسيَّاً ، أو عنصريَّاً ، أو قوميَّاً .

علىٰ كلٍّ فإنِّي أؤمن بأنَّ العلم وحدةٌ لا تتجزَّأ ، وما يراه النَّـاس كثـرةً ؛ أراه وحـدة ، ووحـديَّـة العلـم هـي صـدقـه ، وواقعيَّته ، وكونه حقيقةً ، وولوعه بالحقيقة ، ونشدان الصِّدق والواقعيَّة .

علىٰ الرَّغم من ذٰلك كلِّه أشكر صاحب السَّعادة رئيس الجامعة ، والمسؤولين عنها إذا اختاروا للتَّحدث إلىٰ هٰؤلاء الطلبة الأعزَّاء ، وإلىٰ هٰذه الأزهار ، والبراعم النَّاعمة في حديقة الإسلام رجلاً يُنْمَىٰ - عن فهمٍ ، وعن قصدٍ ، أو خطأٍ - إلىٰ منهاج التَّعليم القديم ، ومن هنالك أرىٰ لزاماً أن أعترف برحابة صدوركم وسعة أفقكم ، وانفتاح أنظاركم ؛ حيث إنَّكم

ما أبحتم هـٰذا الفرق بين القديم ، والجديد الَّذي يراه قصار النَّظر من النَّاس .

إنِّي لا أؤمن لا في العلم ، ولا في الأدب ، ولا في الشِّعر ، ولا في الفلسفة ، والحكمة ، بأنَّه من تزيَّا بزيِّه الخاصِّ ؛ فهو العالم ، أو الأديب ، أو الشاعر ، أو الفيلسوف ، والحكيم ، وإنَّ من تخلَّىٰ عن هـٰذا الزِّيِّ ، فليس يستحقُّ الخطاب ، ولا يستحقُّ الاهتمام ، والالتفات ، فضلاً عن الاستماع إليه ، ومن سوء الحظِّ أنَّ ذٰلك قد راج رواجاً كبيراً فيما يتَّصل بالأدب ، والشعر ، فيتَّهم بقلَّة الأدب من يحضر ندوةً علميَّة ، أو أدبيَّة ، أو شعريَّة ، ولا يحمل « لافتة الأدب » ولا يتزيَّا بزيِّه الخاصِّ ، وأصبح الناس لا يغتفرون جريمة من لم يرتدوا زيَّ الأدب ، والشِّعر ، ولم يتمكَّنوا من الحصول عليه من « دكَّانه » من الأدباء ، والشُّعراء الموهوبين الَّذين جُبلوا علىٰ فطرة الأدب ، وسليقة الشِّعر .

علىٰ كلٍّ فإنِّي أرىٰ : أنَّها خطوةٌ جريئةٌ منكم أن دعوتموني لإلقاء الكلمة في هـٰذه الجامعة ـ علىٰ الرَّغم من أنَّني أؤمن بآفاقيَّة العلم ، وشموله ، وحيويَّته ، ولا أراه مُلكاً لأحدٍ ، أو لجهةٍ ، أو لبلدٍ ، أو لأمَّةٍ ، فخزائن ٱلله زاخرةٌ ، وهي مفتوحةٌ لكلٍّ من كان مخلصاً في الطَّلب ، صادقاً في العزم ـ إنَّها بادرةٌ تستحقُّ التقليد ، وأودُّ أن تدعو مدارسنا القديمة رجال

المـدارس الجـديـدة ، والمثقَّفيـن العصـريِّيـن ، وأن تـوجـه جامعاتنا ، ومدارسنا العصرية الدَّعوة إلىٰ أولـئك العلماء ، والأفاضل الَّذين أخلصوا في طلب العلم ، ولم يقصِّروا في الاستفادة من التَّجارب الإنسانيَّة العظيمة ، والانتاجات البشريَّة العلميَّة والأدبيَّة .

✍ ✍ ✍

دور الجامعات الإسلاميّة المطلوب في تربية العلماء ، وتكوين الدُّعاة ، وحماية الأقطار الإسلاميّة من التناقض والمجابهة

(مقالة أعدَّت لمؤتمر تكوين الدُّعاة الَّذي عقده رابطة الجامعات الإسلاميّة في القاهرة في ضيافة جامعة الأزهر والتَّعاون مع وزارة الأوقاف المصريَّة في الفترة من ٢٠ ـ ٢٢ شعبان (١٤٠٧هـ) (الموافق ١٨ ـ ٢٠ أبريل (١٩٨٧م)) .

بقلم

أبي الحسن علي الحسني النَّدوي

أمين ندوة العلماء العام لكناؤ (الهند)

وعضو مجلس رابطة الجامعات الإسلاميّة

سادتي الأجلاءَ ، وزملائي العاملين في مجال التَّعليم

والتَّـربيـة ، وإخـوانـي المعنيِّيـن بحـاضـر الأمَّـة الإسـلاميَّـة ومستقبلها ، ورسالتها ، وشخصيَّتها .

أنتهز هـٰذه الفرصة الكريمة الَّتي لا تسنح إلا بعد آجالٍ طويلةٍ ، للتَّحدُّث في موضوعٍ أعتقد : أنَّه بالنسبة إلىٰ الأمَّة الإسلاميَّة ، والعالم الإسلاميِّ قضية الحياة ، أو الموت ، وقضيَّة الوجود أو العدم ، وأؤمن بإخلاصٍ وفي حماسٍ : أنَّه إذا لم تكن لهـٰذا الالتقاء العلميِّ التعليميِّ الإسلاميِّ العالميِّ الكريم قيمةٌ ، ونتيجةٌ غير هـٰذا البحث ، والوصول إلىٰ نتيجةٍ فيه ؛ كان التقاءً مباركاً حاسماً يملي تاريخاً جديداً ، ويفتتح عهداً سعيداً للأمَّة الإسلاميَّة بإذن ٱلله تعالىٰ ، ويزيد هـٰذا اللِّقاء قيمةً ، ومكانةً وجود عددٍ كبيرٍ ، أو أكبر عددٍ متيسِّرٍ ـ إذا لم أكن مبالغاً ، أو متفائلاً أكثر ـ من أصحاب الاختصاص في التَّعليم الإسلاميِّ ، والأساتذة الكبار ، والمشرفين علىٰ الجامعات الإسلاميَّة ، وقادتها وموجِّهيها ، ويحقُّ لي لذٰلك أن أخاطب نفسي بما قاله الشاعر العربيُّ القديم ، وأنشد :

حمامَةَ جَرْعىٰ حَوْمَةَ الجَنْدلِ اسْجَعِي
فَـأَنْـتِ بِمَـرْأىٰ مِـنْ سُعَـادِ ومَسْمَـعِ

الغاية الأولىٰ والأساسيَّة من التَّعليم :

أيُّها السَّادة ! وفقني ٱلله أن اقرأ كثيراً وكثيراً فيما يتَّصل

بالتَّعليم ، والتَّربية وغايتهما المنشودة ، والفائدة الَّتي يجب أن تُجني منهما ، لـٰكنِّي اكتفي بهـٰذه المناسبة بتقديم شهادةٍ واحدةٍ فيما يتعلَّق بتعريف العلم ، وتحديد غرضه لخبيرٍ تعليميٍّ بريطانيٍّ معروف (Sir Percy Nienn) من مقال له كتبه لدائرة المعارف البريطانيَّة :

« لقد سلك النَّاس مسالك مختلفةٍ في التَّعريف بالتَّربية ، ولـٰكن الفكرة الأساسيَّة الَّتي تسيطر عليها جميعاً : أنَّ التَّربية هي الجُهد الَّذي يقوم به آباء شعب ، ومربُّوه لإنشاء الأجيال القادمة علىٰ أساس نظريَّة الحياة ؛ الَّتي يؤمنون بها ، إنَّ وظيفة المدرسة أن تمنح للقوىٰ الرُّوحية فرصة التأثير في التِّلميذ تلك القوىٰ الرُّوحية الَّتي تتَّصل بنظرية الحياة ، وتربِّي التِّلميذ تربيةً تمكِّن من الاحتفاظ بحياة الشَّعب ، وتمدُّ يدها إلىٰ الأمام [١] .

إنَّ هـٰذا التَّعريف بالتَّعليم ، والتَّربية هو أروع ، وأجمع ، وأكثر تواطؤاً مع العمل والتَّطبيق من بين جميع المحاولات الَّتي بذلت في سبيل التَّعريف بالتَّعليم ، والثَّقافة .

ما هي غاية التَّربية ؟ وماذا يراد من ورائها ، ولماذا تبذل المواهب الفنِّيَّة علىٰ التَّعليم ، ولماذا تنفق قوىٰ الأمَّة بسخاءٍ

---

(١) دائرة المعارف البريطانيَّة ، بند « التَّعليم » (EDUCATION) .

وعلىٰ طريقةٍ منظَّمةٍ ؟ ألكي يُوجد التَّعليم فجوةً بين الأمَّة وبين ما تعتزُّ به ، وتتبنَّاه من معتقداتٍ ، وأغراضٍ ، وتراثٍ حضاريٍّ وعلميٍّ ، وتصوُّراتٍ ، وسواءٌ أكان كل ذٰلك ممَّا ينبغي الاعتزاز به ، أم لا ؟ لـٰكنَّ الشَّيء الَّذي تحبُّه ، والمعتقدات الَّتي تعتزُّ بها ، والتَّصوُّرات ، والقيم ، والمُثل (Values) والعقائد (Conceptions) والأفكار (Ideas) الَّتي تتغنَّىٰ بها ، والتُّراث الَّذي توارثته من آبائها ، وأسلافها : من وظيفة التَّعليم الأولىٰ أن يربط بين الأمَّة وبين هـٰذه الأشياء ، وينقل هـٰذا التُّراث إلىٰ الأجيال القادمة ، والنَّشء الجديد ، ذٰلك التُّراث الَّذي أفرغ عليه سلفها خير قواهم ، ومواهبهم ، وبذلوا مدَّةً طويلةً من وقتهم ، وربما قاتلت تلك الأمَّة في سبيله ، وحاربت ، وجاهدت ، وضحَّت بعزِّها ، وشرفها ، ومجدها التَّليد . ومن الفضول أن نتعرَّض بهـٰذه المناسبة لما إذا كانت القيم الَّتي حاربت الأمَّة من أجلها قيماً صالحةً ، أم لا ، لـٰكن مسؤولية التَّعليم أن ينقل هـٰذا التُّراث إلىٰ الأجيال المتلاحقة ، ولا يقتصر علىٰ النَّقل ، والتَّصدير فحسب ، بل يعمِّقه في القلوب ، والأذهان ، ويجعل القلوب ، والعقول تسيغه ، وتتذوَّقه ، ولا يعود نابياً لديها ، أو أجنبيَّاً عندها ، بل يعود مألوفاً لها ، ومحبوباً عندها ، ويصير طبيعةً لها .

أمَّـةُ محمَّـدٍ ﷺ أمَّـةٌ ممتـازةٌ فـي خصـائصهـا ، ومزاياها ، وصياغتها ، وعناصر تركيبها :

أرىٰ : أنَّ هـٰذا التَّعريف بالتَّربية بقلم خبيرٍ بريطانيٍّ تعريفٌ جامعٌ جدَّاً ، لـٰكن إذا كان الأمر أمر أمَّةٍ عقائدها ، وقيمها ليست من عند نفسها ، بل نابعةٌ من الوحي الإلـٰهيِّ ، والكلام الإلـٰهيِّ ، والنُّبوَّة ، والرِّسالة ، والعلم اليقينيِّ الغيبيِّ الأزليِّ الَّذي لا يحول ، ولا يزول ، ولا يتغيَّر قليلاً ، أو كثيراً ، فهنالك تتضاعف المسؤولية وتتضخَّم .

فإذا كان هناك تعليمٌ يزعزع عقائد تلاميذه ـ من شعورٍ ، أو من غير شعورٍ ، عن قصدٍ أو عن غير قصدٍ ، عن خطإٍ ، أو عن خطَّةٍ مدبَّرةٍ ـ ويزعزع جذور قيمهم في قلوبهم ، ويفكِّك عراها ، ويمزِّقها : ويثير في قلوبهم شكوكاً ، وشبهاتٍ لا تزول ، وصراعاً نفسيَّاً (Mental Conflict) ويتجاوز هـٰذا الصِّراع الأفراد إلىٰ الحياة الاجتماعيَّة للأمَّة ، ويتحوَّل الصِّراع إلـىٰ حـربٍ داميـةٍ شعـواء بيـن تلـك القيـم ، والمفـاهيـم ، والتصوُّرات ، والمعتقدات ، والأفكار ، والعقائد ، وبين ذٰلك الجيل المثقَّف بذٰلك التَّعليم ، وتلك الثَّقافة ؛ فالأمر أدهىٰ ، وأمرُّ . أيُّها السَّادة ! إنِّي لا أؤمن بالإسلام كتراثٍ (Legacy) ولا أرىٰ ذٰلك تعريفاً رائعاً بالإسلام ، ولذٰلك فإنِّي

لست معجباً بالكتب الَّتي وضعت بعنوان (Legacy of Islam) و(Heritage of Islam) إنِّـي أرىٰ الإسـلام رسـالـةٌ للحيـاة ، لا أراه قادراً علىٰ مسايرة الزَّمان فحسب ، بل أراه قائداً للزَّمان ، وموجِّهاً له ، لا أراه رفيقاً للزَّمان في رحلة الحياة ، بل أراه محاسباً للزَّمان ومراقباً له (Guardian) فإذا كان هناك مثقفٌ بالتَّعليم العالي يقع فريسة الشَّكِّ ، والارتياب في جميع قيمه ، وتصوُّراته ، ومعتقداته ، أو يعود يراها دمىً يُسلِّي بها الصِّبيـان ، والأطفـال ، أو أسطـورة يتعلَّـل بهـا السُّـذَّج ، والجهَّال ، أو يصبح لا يتحمَّس لها ، ولا يقاتل في سبيلها ، ولا يدافع عنها ، ولا يغامر من أجلها إذا مست الحاجة إلىٰ ذٰلك ، إذا كان ذٰلك ؛ فإنَّ هـٰذا التَّعليم عدوٌّ لدودٌ لمن يحصِّله ، يجب أن يفرَّ منه فرار الإنسان من الأسد ، بل أكثر من ذٰلك .

قضيَّة البلاد الإسلاميَّة أهمُّ وأكبر خطراً :

أيُّها السَّادة ! وحين أتحدَّث إليكم في هـٰذا الحفل الكريم ، وفي رحاب الجامع الأزهر الشَّريف ، إنَّ الأمر يصبح ذا خطورةٍ ، وحساسيَّةٍ ، وتعقيدٍ إذا كان يتعلَّق ببلدٍ إسلاميٍّ ، تعيش فيه أمَّةٌ ذات شخصيَّةٍ (Personality) وذات خصائص ، ومميِّزات ، ذات دعوةٍ ورسالةٍ ، ومكلَّفةٍ بقيام دورٍ فريدٍ في العـالـم البشـريِّ ، تنبـع معتقـداتهـا ، وقيمهـا ، ومثلهـا ،

وتصوُّراتها ، وأفكارها ، ووجهاتُ نظرها من الوحي الإلٰهيِّ ، فإذا كان التَّعليم يحدث صراعاً في مثل هٰذا الجيل ، ويجعله يخلع معتقداته ، وتصوُّراته العريقة بعد ما يتخرَّج مِنْ جامعةٍ عصريَّةٍ ، ويصبح وكأنَّه أمَّةٌ جديدةٌ ، أو أمَّةٌ أجنبيَّةٌ تبدو نابيةً قلقةً فيما بين الشَّعب المسلم ، ويحصل من ذٰلك كلِّه تعقيدٌ جديدٌ ، وتحدث مشكلةٌ جديدةٌ (Problem) ويحدث صراعٌ مريرٌ ـ وقد يكون صراعاً دموياً ـ بين هٰذا الجيل المثقَّف وبين عائلته الإسلاميَّة ، وآبائه ، وأمَّهاته ، وبين المجتمع الَّذي هو عضوٌ فيه ، وبين تاريخه ، وتراثه ، وقيمه ، ومآثر أسلافه ، وبين منصبه ، ومكانته الَّتي حباها ٱلله إيَّاه ، وبين رسالة الإسلام ، والعمل الإسلاميِّ ، وآمال الأمَّة الإسلاميَّة ، وأحلامها ، إذا كان كل ذٰلك ، فإنِّي لا أرىٰ في هٰذا التَّعليم خيراً ، ولا أراه خدمةً للإنسانيَّة ، بل إنَّه سوء خدمةٍ .

المسؤوليَّة الأوَّليَّة للجامعات في بلدٍ إسلاميٍّ :

ومعذرةً إليكم فإنِّي لا أشير إلىٰ جامعةٍ بعينها ، ولا إلىٰ المسؤولين عن جامعةٍ محدَّدةٍ ، وإنَّما أتعرَّض لأمرٍ مبدئيٍّ ، وأريد أن أقرِّر : أنَّ المسؤوليَّة الأولىٰ والأهمَّ ، والأقدم لجامعةٍ تقوم في بلدٍ إسلاميٍّ ، هي أن تؤكِّد إيمان الأمَّة بالعقائد ، والأفكار الَّتي تؤمن بها ، والحضارة الَّتي تحتضنها ، والدَّعوة ، والرِّسالة الَّتي تتبنَّاها ، والخصائص ،

والمزايا الَّتي تحملها ، حتىٰ لا يعود هٰذا الإيمان إيمان رجلٍ عاديٍّ (Layman) أو إيمان رجل الشَّارع (Man of Street) بل يكون إيمان عالمٍ ، إيمان مثقَّفٍ ، إيمان دارسٍ ، ويطمئنُّ عقله كما يطمئنُّ قلبه ، ولا يعود كما يقول الدُّكتور محمد إقبال « قلبه مؤمن ، وعقله كافر » مشيراً إلىٰ فيلسوفٍ غربيٍّ . . .
وإذا كان الصِّراع لا يجوز بين الفرد ، والجماعة ؛ فإنَّه كذٰلك لا يجوز بين القلب ، والعقل في حياة المرء الانفرادية ، فإذا كانت هناك جامعةٌ تسبِّب هٰذا الصِّراع ، أو يسبِّبه منهاجها التَّعليميُّ ، ومنهجها العمليُّ ، ونظامها الإداريُّ ، وبيئتها العلميَّة ، فذٰلك شؤمٌ لا شؤم بعده للبلد الَّذي تقوم فيه الجامعة .

لا بدَّ من اطمئنان القلب ، والعقل معاً :

إنَّ الغاية الأساسيَّة للجامعات الإسلاميَّة أن توجد الإيمان بتلك الأشياء الَّتي أشرت إليها ، الإيمان الَّذي يأتي عن طريق العلم ، والثَّقافة ، والدِّراسة ، وعن الشُّعور ، والتَّفكير ، وعن طريق اقتناع العقل ، وعن الدِّراسة المقارنة ، وإذا كان هناك رجلٌ إنَّما يؤمن قلبه ولا يطمئنُّ عقله ، وهو يعلِّل عقله ، ويسلِّيه ، ويحاول ألَّا يستيقظ عقله ، كشأن الأمم غير المسلمة العديدة الَّتي ترىٰ بقاء دياناتها ، ورقيَّها في عدم يقظة الشُّعور ، وتحاول أن يظلَّ أتباعها سادرين في سبات الغفلة ، ومسدوداً

عليهم منفذ النُّور ، والهواء ، ومن هنا وقع بين الـكنيسة والعلم (Church 2 NO Science) ذٰلك الصِّراع الدَّمويُّ الَّذي تقرؤون قصَّته المؤلمة المفجعة في كتاب « الصِّراع بين الدِّين والعلم » (Conflict Between Religion AND Science) للعالم الأمريكيِّ المعروف « درابر » (John William Draper) وإنَّما وقع هـٰذا الصِّراع لأنَّ الـكنيسة كانت ترىٰ : أنَّ الخير كلَّ الخير في تبلُّد الشُّعور الإنسانيِّ بل كانت تعمل فعلاً علىٰ تجميده ، وإماتته ، وكانت تؤمن بأن من الخير ، والسَّعادة أن يكون الإنسان محدود العلم ، قاصر المعرفة ، بل عديم العلم جاهلاً ، وما دام الحال علىٰ هـٰذا المنوال ؛ كان الإيمان بالكتاب المقدَّس راسخاً قويّاً ، وكانت المسيحيَّة عميقة الجذور ، بعيدة الغور في المجتمع ، ذٰلك : أنَّ العهد العتيق كان يشتمل علىٰ كثيرٍ ممَّا لا يؤيِّده العلم الحديث ، بل ينفيه ، ويفنِّده ، فكانت الـكنيسة رأت من المصلحة ألاَّ يتيقَّظ شعور المسيحيِّ ، ولا يتفتَّح وعيه ، ولا يتَّسع أفقه ، ولا يتقدَّم العلم ، فحاولت أن تقف في وجه العلم ؛ لأنَّها ظنَّته عدوّاً لها لدوداً ، وخصماً محارباً حانقاً فأنشأت محاكم التفتيش الدِّيني العقائديِّ ، (Courts of inquistion) وانتشرت في ربوع العالم المسيحيِّ وعواصمه ، ومراكزه ، ومنحت الحريَّة المطلقة في محاكمة أصحاب النَّظريات العلميَّة ، والاكتشافات في عالم الطَّبيعة ،

والفلك ، والعلوم الحديثة ، وإجراء العقوبات القاسية الوحشيَّة ، علىٰ معتنقيها ، أو معلنيها ، وقد أثبت بعض المؤرِّخين : أنَّ ضحايا هٰذه المحاكم يربو عددها علىٰ عدد المصابين والقتلىٰ في الحرب الكونيَّة الأولىٰ [1] وقد جرَّ هٰذا الحَجْرُ العلميُّ ، والفكريُّ ، وكذا فرض إطارٍ خاصٍّ ، ودائرةٍ محدودةٍ من الدِّراسات ، وكتب المطالعة علىٰ الشَّباب ، والدَّارسين ضرراً كثيراً علىٰ مستقبل الدِّين ، وعقليَّة الجيل الصَّاعد ، وأحدث حركة ردٍّ فعلٍ عنيفةٍ ضدَّ هٰذا الاحتكار العلميِّ ، والاستبداد الدِّيني ، والنَّظر الضَّيِّق المتزمِّت .

وقد أثبت علم التَّربية ، وعلم النَّفس : أنَّ الحجر علىٰ الشَّباب في القراءة ، والاطِّلاع كالحَجْرِ علىٰ الأَطفال القاصرين الَّذين لم يبلغوا سنَّ الرُّشد تجربةٌ مخفقةٌ ، وعمليَّةٌ مثيرةٌ فيهم التَّساؤلات ، والشُّكوك ، والنَّهامة بالممنوع المحظور ، وأنَّ هٰذا الصِّنف من الدَّارسين غير جديرٍ بالثِّقة في مواجهة الأفكار الغربيَّة ، والتَّحدِّيات العلميَّة ، والعقائديَّة . إنَّ المنهج التَّربويَّ المتَّزن السَّليم هو الاطِّلاع علىٰ وجهات النَّظر ، والمدارس الفكريَّة المختلفة مرفقاً ذٰلك بتوجيه الأساتذة الرَّاسخين في العلم ، والدِّين ، مع مناقشتها ، وعرضها علىٰ

---

(١) John Dave

المحكِّ العلميِّ ، والدِّينيِّ وتقرير الصَّحيح ، وتزييف الزَّائف .

ولٰكنَّ المسيحيَّة اضطرت أخيراً أن تضع السِّلاح أمام مدِّ العلم وسيلهِ الجارف ، وتياره العنيف ؛ لأنَّه حاجة الإنسانيَّة ، ومقتضاها الطَّبيعيِّ ، وعاطفة الإنسان الدَّاخليَّة ، ونعمة ٱلله الغالية ، وضرورة العالم البشريِّ ، جعله ٱلله لكي يخضرَّ ، وينمو ، ويورق ، ويثمر ، لا لكي يذوي ، ويذبل ، ويموت ، وهل تموت الحقائق ؟ !

علىٰ كلٍّ فإنَّ العلم كسب المعركة ، وذاقت الكنيسة هزيمةً ، وعاراً ، وشناراً منقطع النَّظير أمام العلم ، وتطلَّع الإنسان إليه ، وطلبه ، وأصبح الجامع له .

وتلك هي قصَّةٌ مشؤومةٌ وقعت في العالم المسيحيِّ ، ولٰكنَّها تركت آثارها علىٰ دنيا البشر كلِّها ، وعلىٰ جميع الدِّيانات تقريباً ، وقد جعلت النَّاس يفهمون أنَّه لا يمكن أن يتقدَّم العلم ، والعقل معاً ، وأن يساير الدِّين العلم ، ولا بدَّ هنا ـ بصفتي دارساً للتَّاريخ ـ أن أعترف ـ مع الأسف ـ : أنَّ هٰذا التَّصوُّر الخاطئ قد نال بعض نصيبه من المفعول في بعض الدُّول الإسلاميَّة ، ولو لبعض الحين ، لٰكنَّه ما لبث أن لقي حتفه ؛ لأنَّه يتنافىٰ مع روح الإسلام ، وطبيعته ، ولم يدم هٰذا

الصِّراع المصطنع في العالم الإسلاميِّ طويلاً ، وذٰلك : لأنَّه لم يكن وليد خطأ في داخل العالم الإسلاميِّ ، وإنَّما كان قد نشأ عن طريق أوربا المسيحيَّة ، ولٰكنَّه غاب ، وانقشع كسحابة صيف ، أو بسرعةٍ أكثر منها .

مصير العالم مرتبطٌ بالقلم :

أرىٰ : أنَّ من واجبات الجامعات الإسلاميَّة أن تحاول ألَّا تقع فجوةٌ بين العلم ، والدِّين كما وقعت بينهما في العالم المسيحيِّ ، أو في دنيا الدِّيانات الَّتي لم تكن فيها رابطةٌ بين العلم ، والعقل ، بل إنَّ نشوءها كان مديناً للجهل ، فقد تولَّدت ، وازدهرت بمعزلٍ عن العلم ، والعقل بل علىٰ غفلةٍ من العلم ، والعقل ، ففيها مجال لنشوء الفجوة ، والجفوة بين العلم والدِّين ، وبين العلم ، والعقل ، ولٰكن لا يُتصوَّر ذٰلك في الدِّين الذي أعلن دعوته منذ اليوم الأوَّل بل منذ اللَّحظة الأولىٰ بما يلي :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] .

الدِّين الَّذي لم ينس هٰذا القلم المتواضع ؛ حتَّىٰ في الحلقة الأولىٰ من وحيه ، ولم ينسه لدىٰ هبوب النَّفحة الأولىٰ من النَّفحات الربَّانيَّة ، لم ينس : أن يؤكِّد : أنَّ مصير العلم

مرتبطٌ بالقلم ، لم ينسه في خلوة غار حراء الَّتي ارتادها نبيٌّ أميٌّ يتلقَّىٰ الرِّسالة الإلـٰهيَّة لهداية البشريَّة ، ذٰلك النبيُّ الَّذي لا عهد له بالقلم ، ولم يعرف من ذي قبل كيف يحرِّك القلم ، ولم يتعلَّم فنَّ الكتابة ، والقراءة بتاتاً ، شيءٌ لن يجد الإنسان نظيره في تاريخ العالم البشريِّ ، ولا يمكنه أن يتصوَّر هـٰذا المكان العالي ، لا يمكنه أن يتصوَّر أن ينزل وحيٌ علىٰ نبيٍّ أميٍّ بين أمَّةٍ أميَّةٍ في منطقة لم تعرف القراءة ، والكتابة معرفةً تذكر ، فضلاً عن المدارس ، والمعاهد ، ودور التَّعليم ، والجامعات ، في الوقت الذي لأوَّل مرَّة تمَّ فيه اتِّصال السَّماء بالأرض بعد عدَّة قرون ، ولا يبتدئ هـٰذا الوحي بكلمة : « أعبد » ولا بكلمة « صلِّ » أو ما إليهما من الكلمات المتجانسة ، وإنَّما يبتدئ بكلمة : « اقرأ » يخاطب المنزل عليه بالقراءة ، ولا عهد له بها ، لكي يقرِّر ، ويؤكِّد له : أنَّ الأمَّة الَّتي يكلَّف بهدايتها ، وتربيتها ، وتعليمها هي أمَّةٌ ليست ولوعاً بالعلم فحسب ، بل ستكون معلِّمة العلم ، ومولعةً بنشره ، وتصعيده ، وترقيته ، والعهد الَّذي يقوم فيه بوظيفة الهداية ، والتَّبليغ ، والتَّربية ، والتَّعليم ، إنَّه ليس عهد الأميَّة ، والوحشة ، والجهل ، وعهد الظُّلمة ، والهدم ، والتَّخريب ، وإنَّما هو عهد العلم ، والعقل ، والتَّفكير ، وعهد النَّظر ، والحكمة ، وعهد البناء ، والتَّعمير ، وعهد حبِّ الإنسانيَّة ، وعهد الرُّقيِّ ، والتَّقدم .

كانت التَّجربة الفريدة الطَّريفة ـ لو صحَّ التَّعبير ـ في تاريخ الدِّيانات ، وتاريخ العالم : أنَّ الوحي الأول الَّذي نزل علىٰ النَّبيِّ الأميِّ بين الأمَّة الأميَّة كانت بدايته بكلمة : ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ ، ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ كان من الخطأ الفادح أن انقطعت صلة العلم بالرَّبِّ ، فحاد عن الصراط المستقيم ، فجاء الوحي الإلـٰهي الَّذي نزل علىٰ النَّبيِّ الأميِّ يصله بٱلله ، ويربطه بالربِّ تبارك وتعالىٰ ، حيث جاء ذكر العلم مقروناً باسم الربِّ ، لكي يعلم البشر ضرورة بداية العلم ، والتَّعليم ، والقراءة باسم الرَّب ، الَّذي وهب هـٰذه النِّعمة الغالية ومنَّ بها علىٰ عباده ، وهو الَّذي خلقه ، فلا يتقدَّم تقدُّماً متَّزناً إلَّا تحت توجيهه ، وهدايته ، إنَّ الآية الَّتي تتحدَّث عنها : إنَّها ذات ثورةٍ ، وانقلابٍ عظيمٍ في التَّفكير ، والعقليَّة والنَّفسيَّة ، قرعت الآذان البشريَّة في بداية الإسلام ، وكان ذٰلك شيئاً لم يخطر من أحدٍ علىٰ بالٍ ، ولم يتصوَّره في حال من الأحوال ، لو سئل الأدباء ، والحكماء ، والفلاسفة ، والعلماء في العالم البشريِّ عن افتتاحية هـٰذا الوحي الَّذي سينزل علىٰ النبيِّ الأميِّ ، لم يكن أحدٌ منهم ـ يعرف طبيعة تلك الأمَّة الَّتي نزل بينها الوحي ، ويعرف عقليَّته ـ ليقول : إنَّه سيبتدئ بكلمة : ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ كان لهم أن يتنبؤوا بكلِّ شيءٍ ولـٰكن لم يكن لهم ليتكهَّنوا : أنَّ الوحي سيكون استهلاله بكلمة : ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ ثم : إنَّه لم يبتدئ بكلمة

« العلم » وإنَّما بالقراءة ، والقراءة تتضمن : الكتابة ، والقلم ، والورق ، بينما العلم قد يكون وهبيّاً لا يحتاج إلىٰ القلم ، والقراءة ، والكتابة ، والورق ، ممَّا دلَّ علىٰ : أنَّ هٰذا العلم سيكون وليد القلم ، وليد الورق ، وليد الكتابة ، وليد المكتبات ، والكتب ، والمؤلفات ، والصُّحف ، وليد التَّجارب ، وليد الذَّكاء ، ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ .

هٰذا الدِّين لن يفارق العلم :

ممَّا يجب الانتباه له : أنَّ الوحي الإلٰهيَّ أكَّد : أنَّ طبيعة هٰذا الدِّين : أنَّه لن يفارق العلم ؛ لأنَّ الرِّسالة الأولىٰ الَّتي وجَّهته إلىٰ البشريَّة تأمر بالقراءة ، فكيف يسوغ أن يبقىٰ المسلمون جاهلين لا يعرفون القراءة ، والمسلم الَّذي قطع صلته عن العلم ليس بمسلمٍ حقيقيٍّ ، ولا يجوز له أن يدَّعي : أنَّه ممثلٌ صحيحٌ للإسلام ، ثمَّ يجب الانتباه لهٰذه الدَّعوة الثَّوريَّة : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ كيف ينبه الوحي الإلٰهيُّ علىٰ أن تكون هٰذه المرحلة ـ رحلة العلم ـ في هداية هادٍ كاملٍ ، وليس هو إلا ٱلله العليم الكريم ؛ لأنَّ الرِّحلة طويلةٌ شاقَّةٌ معقَّدةٌ خطرةٌ ، والطَّريق وعرةٌ ذات منعطفاتٍ تعترضها بحارٌ ، وأنهارٌ ذات عمقٍ سحيقٍ ، وتتخلَّلها غاباتٌ كثيفةٌ فيها سباعٌ مخوفةٌ ، وحيَّاتٌ ، وعقاربُ سامَّةٌ ، وكلُّ حيوانٍ ضارٍ .

لـٰكنَّه ليس مجرَّد علمٍ ، ليس عبارةً عن معرفةٍ بالدُّمىٰ ، واللُّعب ، وليس عبارةً عن التَّسلية ، وليس ممَّا يحرش فيما بين الإنسان ، والإنسان ، والأمَّة ، والأمَّة ، وليس عبارةً عن معرفة طرق ملء البطون ، وعبارةً عن تحريك اللسان ولوك الكلمات بل هو ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

فهل رفع من قيمة القلم أحدٌ في التَّاريخ البشريِّ أكثر من ذٰلك ، حيث يذكر بهـٰذه الأهميَّة ، وبهـٰذا التَّمهيد الكريم في خلوة غار حراء ، وفي الوحي الأوَّل الَّذي ينزل من السَّماء ، ذٰلك القلم الَّذي ربَّما لم يكن بالإمكان تواجده في بيتٍ من بيوت مكَّة ، لا أكاد أدري لئن رحتم تبحثون عنه ؛ رجعتم بفائدة ، أم لا ، ربَّما وجدتموه في بيت ورقةَ بنِ نوفل ، أو أيِّ رجلٍ تعلَّم الكتابة في ديار العجم ، القلم الَّذي ربَّما لا تجدون ذكره في دواوين الشُّعراء العرب الجاهلين المعاصرين مهما قلَّبتم الصَّفحات ، وأعدتم القراءة .

عصارة كلِّ علمٍ ، وثقافةٍ : ﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ :

ثمَّ دلَّ علىٰ حقيقةٍ خالدةٍ ذات انقلابٍ عظيم ، وهي : أنَّ العلم لا حدَّ له ولا نهاية ، فقال : ﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، وليس العلم الحديث (Science) إلا انعكاساً لـ : ﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ

مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وكذٰلك التِّكنولوجيا ليس إلا مظهراً لـ : ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، وينزل الإنسان علىٰ القمر ، ولا يعني ذٰلك إلَّا : ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، ويغزو الفضاء ، ويقلِّص سعة العالم ، ويطوي أرجاءه طيّاً ، ويسخِّر أشعة الشمس ـ كما يقول الدُّكتور محمد إقبال ـ ويشقُّ طريقه بين النُّجوم ، والكواكب ، ويحلم بالنُّزول بين السِّماكين ، إنَّ كلَّ ذٰلك ليس إلا عبارةً عن : ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ .

علىٰ كلٍّ فإنَّ الأمَّة الَّتي كان أساسها الأوَّل علىٰ القراءة ، وخاطبها الوحي الإلـٰهي الأوَّل بذكر القلم ، إنَّ تلك الأمَّة لن تفارق العلم ، والمعرفة ؛ لأنَّها تلازمه ملازمة الظلِّ ، أو ملازمة الغريم .

ثمَّ يجب أن يكون في الاعتبار لدىٰ إقامة كلِّ مدرسةٍ ، أو جامعةٍ ، أو اتِّخاذ منهجٍ تعليميٍّ لتعليم هـٰذه الأمَّة أن يكون الهدف من كلِّ ذٰلك ترسيخ الإيمان بالعقائد ، والحقائق الَّتي آمنت بها من ذي قبل ، وأن يتأتَّىٰ هـٰذا التَّرسيخ عن طريق القلب ، والعقل معاً ، ولا يكفي اطمئنان القلب ، أو العقل فقط ؛ لأنَّه حينئذٍ سيحدث صراعٌ بينهما في الحياة الفرديَّة للإنسان ، وسيتدرج هـٰذا الصِّراع إلىٰ الحياة الجماعيَّة . . . وعلىٰ ذٰلك فيتخرَّج جيلٌ يتصارع مع مجتمعه ، ويتصارع مع دينه ، وعقيدته ، وتضيعُ كلُّ القوىٰ في إزالة « الأنقاض » ،

فقد رأىٰ بعض قادة بعض الأمم الإسلاميَّة : أنَّه يجب أوَّلاً إزالة الأنقاض ، وركَّزوا كلَّ عنايتهم علىٰ إزالة الأنقاض من العقائد ، والحقائق ، واستنفدت هـٰذه العمليَّة كلَّ قواهم ، واستغرقت فرصة أعمارهم ، ولم يتمكَّنوا من عرض دعوتهم ، ونشر رسالتهم ، وزرع أفكارهم الَّتي كانوا بصدد نشرها .

فإذا كان هناك منهاجٌ تعليميٌّ يعمِّق إيمان الأمَّة بالعقائد ، والحقائق الَّتي تحتضنها فهو منهاجٌ موفَّقٌ ، ولا سيَّما بالنِّسبة إلىٰ الإنسان المسلم الَّذي جاء يحمل رسالةً ، ويحتضن دعوةً ، فيجب أن يكون منهاجنا التَّعليميُّ ، والثَّقافيُّ بحيث يرسخ الإيمان في قلب المثقَّف ، وقلب الدَّارس ، وقلب الطَّالب الجامعيِّ ، وقلب الفيلسوف ، وقلب المفكِّر ، ويجعلهم جميعاً توفِّر لهم عقولهم دلائل لذٰلك ، ويستخدمون الثَّروة العلميَّة القديمة ، والجديدة المنتشرة علىٰ ظهر البسيطة في تحقيق هـٰذا الغرض الأكبر لتقرير هـٰذه الدَّعوىٰ الكريمة . . . أيُّها السَّادة ! إذا استطاعت جامعةٌ أن تصنع ذٰلك ؛ فهي الجامعة الَّتي تستحق أن تسمَّىٰ : جامعة ، وأعتقد : أنَّ ذٰلك خير تعريفٍ بجامعةٍ ما .

حمايةُ الدِّين من التَّحريف ، والمسلمين من الانحراف :

وعلىٰ حملة علوم الدِّين ، وأصحاب الرُّسوخ ،

والاختصاص فيها من المتخرِّجين في الجامعات الإسلاميَّة ، والمدارس الدِّينيَّة وعلىٰ الدُّعاة عهدة صيانة الإسلام عن التَّحريف ، والمسلمين عن الانحراف ، والحفاظ علىٰ الدِّين ـ والذبِّ عن حوزته ، ويحتاجون من أجل القيام بذٰلك ـ إلىٰ الصِّفات الدَّقيقة السَّامية المثاليَّة ، والقوَّة الروحيَّة الداخليَّة ، والثِّقة بخلود الدِّين ، والغيرة عليه ، والقدرة علىٰ التَّمييز الدَّقيق بين الجاهليَّة ، والإسلام ، والإشراك ، والتَّوحيد ، والسُّنَّة ، والبدعة ، والامتياز بالاشتغال بالحديث الشَّريف [1] ومطالعة تاريخ المصلحين المجدِّدين للدِّين في عصورٍ مختلفةٍ [2] إلىٰ ما لا يحتاج إليه بطبيعة الحال إلَّا من يستعمله ٱلله في نشر دينٍ من الأديان ، ولذٰلك فإنَّ هٰذا الواجب وضع علىٰ عاتق العلماء ، ونائبي الرَّسول ﷺ وخصَّ به العلماء الربَّانيُّون المتفقِّهون في الدِّين الغيارىٰ عليه ، المميِّزون بين الإسلام ، والجاهلية ـ لجميع أنواعها ، وألوانها ـ المطَّلعون

---

(١) والتفصيل في رسالتنا « دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته » فليراجع . طبع المجمع الإسلامي العلمي ، ندوة العلماء لكناؤ .

(٢) ليرجع إلىٰ سلسلة « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » طبع دار القلم ، الكويت ١ ـ ٢ ـ ٣٤ .

علىٰ تاريخ الدِّيانات ، والصُّحف الَّتي تعرَّضت لتحريفات المحرِّفين ، وأغراض المغرضين ، وقد جاء في حديثٍ صحيح : « يحمل هٰذا العلم من كلِّ خلفٍ عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » [1] .

وما كانت لتجري هٰذه الكلماتُ العميقة المعاني ، والدَّقيقة الدَّلالات إلاَّ علىٰ لسان نبيٍّ مرسلٍ صادقٍ مصدوقٍ . فلو قرأتم تاريخ الإصلاح ، والتَّجديد في الإسلام ، والمساعي ، والمجهودات الَّتي قام بها العلماء ، والأئمَّة ، والقائمون بحفظ الدِّين ؛ لوجدتم جميع الجهود المبذولة في سبيل الحفاظ علىٰ الدِّين تأتي تحت هٰذه العناوين الثلاثة :

إنَّ للكلمات أعماقاً ، وآفاقاً هي أوسع ، وأعمق ممَّا تبلغ إليه فهوم الرِّجال ، وتحدُّ بحدود النَّماذج والأمثال .

العناية بتربية السِّيرة :

والوظيفة الثَّالثة للجامعات هي تربية السُّلوك ، والسِّيرة ، فلتوجد الجامعات سيرةً يربأ صاحبها عن أن يبيع ضميره بحفنة من شعيرٍ ـ كما يقول الدُّكتور محمد إقبال ـ إنَّ الفلسفات ،

---

(١) مشكاة المصابيح ، الفصل الثاني ، (ص : ٢٦) .

والنُّظم المضادَّة للإسلام ترىٰ : أنَّ إنسان اليوم يمكن شراؤه في السُّوق بقيمةٍ ، أو بأخرىٰ ، فإن لم يرض بهٰذه الكميَّة من الثَّمن ، فسيرضىٰ بكميَّةٍ أكثر منها . . . وسرُّ النَّجاح الحقيقيِّ لجامعةٍ ما أن تربِّي السِّيرة ، فتخرِّج رجالاً من المثقَّفين لا يرضون أن يبيعوا ضمائرهم بأيِّ قيمةٍ ، مهما كانت رفيعةً غاليةً ، ولا تستطيع فلسفةٌ هادمةٌ ، أو دعوةٌ منحرفةٌ ، أو حكومةٌ ذات سياسةٍ خاطئةٍ ، أو قوَّةٌ مدمِّرةٌ مهما كانت لَبِقَةً ذات دهاءٍ أن تشتريهم بأيِّ ثمنٍ غالٍ ، ويقولون بملء أفواههم بلسان المقال ، أو بلسان الحال : « نرىٰ العنقاء أكبر من أن تُصادا » .

ويقول بلسان الدُّكتور محمَّد إقبال :

« إنَّ حرِّيَّة القلب هي سيادةٌ ، وسلطانٌ ، أمَّا العناية الزَّائدة بالبطن ، فهي مدعاةٌ للموت ، والخيار بيديك ، فإمَّا هٰذا ، وإمَّا ذاك » : « يا أيُّها الطَّائر اللاَّهوتيُّ (يخاطب الإنسان المسلم) اعلم : أنَّ الموت خيرٌ من القوت الَّذي يَقُصُّ جناحك ، ويمنعك من التَّحليق » .

والمسؤولية الثَّالثة للجامعة الإسلاميَّة أن تخرِّج شباباً يقفون حياتهم لخدمة الأمَّة ، ويستعدُّون للتَّضحية والفداء ، ينعمون بالجوع بما لا ينعمون بالشَّبع ، والرِّيِّ ، والتَّنعُّم ،

والتَّمتُّع بالحياة ، ويطيبون نفساً بالحرمان ما لا يطيبون بالوجدان ، ويصرفون أوقاتهم ، وقواهم الخيِّرة ، ومؤهَّلاتهم الفكريَّة ، والعلميَّة ، والرَّصيد العلميَّ ، والفكري الَّذي زوَّدتهم به جامعاتُهم في رفع رأس الأمَّة عالياً ، وفي إعلاء كلمة ٱلله ، وتعزيز البلد ، وإنقاذ الوطن ، وفي صنع أمَّةٍ ذات رسالةٍ ، وبناء بلدٍ مسموع الكلمة ، مرهوب الجانب .

فهٰذان أمران لا بدَّ منهما ، الأمر الأوَّل : أن توفِّر الجامعات الإسلاميَّة غذاءً يشبع العقل ، والقلب معاً ، وضوءاً ينير لهما الطَّريق في وقتٍ واحدٍ ، حتَّىٰ يتَّجها جنباً إلىٰ جنبٍ ، وبتعاونٍ متبادلٍ (Co_operation) إلىٰ تعزيز الإيمان بالحقائق ، والعقائد الَّتي آمنت بها الأمَّة .

ولا بدَّ أن يكون نصب أعينكم هو تخريج الرِّجال ذوي القدرات العالية ، وأريد أن أصارحكم بهٰذه المناسبة : أنَّ قيمة بلدٍ من البلاد ليست في كثرة جامعاتها ، ومعاهدها ، إنَّها نظريةٌ باليةٌ ، قد تقادم عهدها ، وأصبح أصحابها يُعرفون بالرَّجعيَّة ، وقصر النَّظر ، بل القيمة في كثرة أبنائه الَّذين يقفون حياتهم للبحث ، والدِّراسة ، ونشر العلم ، والثَّقافة ، وتثقيف الأمَّة ، والشَّعب ، ورفع معنويات أمَّتهم ، وصنعها أمَّةً ذا قلبٍ ، وضميرٍ أبيٍّ ، وفي كثرة الشَّباب الَّذين ينقطعون إلىٰ خدمة الدِّين ، والعلم ، والأمَّة ، والبلد ، ضاربين الشُّهرة

الكاذبة ، ورقيِّهم الشَّخصيِّ عرض الحائط ، وذٰلك هو المقياس الحقيقيُّ الأصيل ، الَّذي يقاس به البلد ، والأمَّة ، وليكن هـٰذا هو المقياس الوحيد في الشَّرق ، والغرب ، فلا نقيم لبلدٍ قيمةً إلاَّ نظراً إلىٰ عدد الشَّباب الَّذين يتسامَوْن عن لذائذ الحياة الرَّخيصة ، والمناصب ، والجاه ، والتَّقدُّم الشَّخصيِّ ، ويتوفَّرون علىٰ العمل الجادِّ البنَّاء ، وعلىٰ العمل العلميِّ الإيجابيِّ النَّافع ، علىٰ رفع مستوىٰ الأمَّة عقليَّاً ، وفكريَّاً ، علىٰ التَّوصُّل إلىٰ نظريَّة علميَّةٍ ذات أهمِّيَّةٍ ، علىٰ بحثٍ علمي مضنٍ يتطلَّب الصَّبر ، والتَّحمُّل ، علىٰ تعزيز البلاد من جميع النَّواحي .

تلك هي أهداف حقيقيةٌ ، يجب أن نصبوا إليها ، ونضعها في اعتبارنا ، ونجعلها نصب أعيننا ، أمَّا مجرَّد التَّعليم ، والتَّثقيف ، والتَّأهيل لشغل الوظائف ، والمناصب ؛ فليس ممَّا يثنىٰ به علىٰ جامعة ، وليس أبداً ممَّا يجلب الحمد ، ويستخرج الإعجاب .

الغرض الأصيل من العلم هو التَّوصُّل إلىٰ الإيمان واليقين :

يجب أن يكون هدف الجامعة ـ الَّتي قامت في هـٰذا العهد العصيب ، وفي هـٰذه البلاد المتأزِّمة ـ أن تعمل علىٰ إزالة

الاضطراب ، والقلق الَّذي يسود جميع الدُّول الإسلاميَّة منذ مئة عامٍ تقريباً . . . تفكَّكت عرىٰ عقائدنا منذ بدء الغزو الفكريِّ ، والحضاريِّ الغربيِّ ، وحدث صراعٌ نفسيٌّ ، وفكريٌّ استنفذت مقاومتُه معظمَ القوىٰ العقليَّة ، والفكريَّة ، والعلميَّة لدىٰ الدُّعاة . إنَّ ذٰلك لوضعٌ غير طبيعيٍّ يجب أن يزول في أقرب وقتٍ ، لكي تتوجَّه هٰذه القوىٰ ، والقدرات إلىٰ الأهداف البنَّاءة ، وإلىٰ إنقاذ البلد ، ودفع عجلته إلىٰ الأمام .

الحقيقة : أنَّ الأدب ، والشِّعر ، والفنون الجميلة ، والحكمة ، والفلسفة ، والتأليف ، والتَّصنيف ، ليس من وراء كلِّ ذٰلك إلاَّ غرضٌ واحدٌ ، وهو أن تتولَّد في صاحبه حياةٌ جديدةٌ ، وإيمانٌ جديدٌ ، وبالتَّالي في الأمَّة الَّتي هو عضوٌ فيها ، والمجتمع الَّذي هو جزءٌ منه .

وأودُّ أن أنشد لكم أبياتاً قالها الدُّكتور شاعر الإسلام محمَّد إقبال ، وهو يخاطب الأديب ، والشَّاعر ؛ لأنَّه ينطبق علىٰ الوضع الَّذي نعيشه جميعاً :

« يا أهل الذَّوق ، والنَّظر العميق أَنْعِمْ ، وأَكْرِمْ بنظركم ! ولٰكن أيُّ قيمةٍ للنَّظر الَّذي لا يدرك الحقيقة ؟ لا خير في نشيد شاعرٍ ، ولا في صوت مغنٍّ إذا لم يفيضا علىٰ المجتمع الحياة ، والحماس ، لا بارك ٱلله في نسيم السَّحر إذا لم تستفد

منه الحديقة إلا الفتورَ ، والخمولَ ، والذَّوِيَّ ، والذُّبول » .

إنَّ الأوضاع الَّتي نمرُّ بها نحتاج فيها إلىٰ أن نأتي بأعجوبةٍ ، وتلك الأعجوبة سوف لن تتحقَّق إلاَّ عن طريق الرِّسالة الإسلاميَّة ، لأنَّها وحدها الَّتي تجعل حاملها يصنع المعجزات ، ويأتي بخوارق العادات ، ويبطل المقاييس ، ويحطِّم المعايير التَّقليديَّة ، ويسخر من كلِّ الموازين الَّتي آمن بها العالم الجاهليُّ . يقول الدُّكتور محمد إقبال :

« أنا لا أعارض التَّذوُّق بالجمال ، والشُّعور به ، فذاك أمرٌ طبيعيٌّ ، ولٰكن أيُّ فائدةٍ للمجتمع من علمٍ لم يكن تأثيره في المجتمع كتأثير عصا موسىٰ في الحجر ، والبحر ، وذٰلك : أنَّ الأمم لا يرتفع شأنها ، ومكانها في خريطة العالم حتَّىٰ تقدر علىٰ صنع المعجزات » .

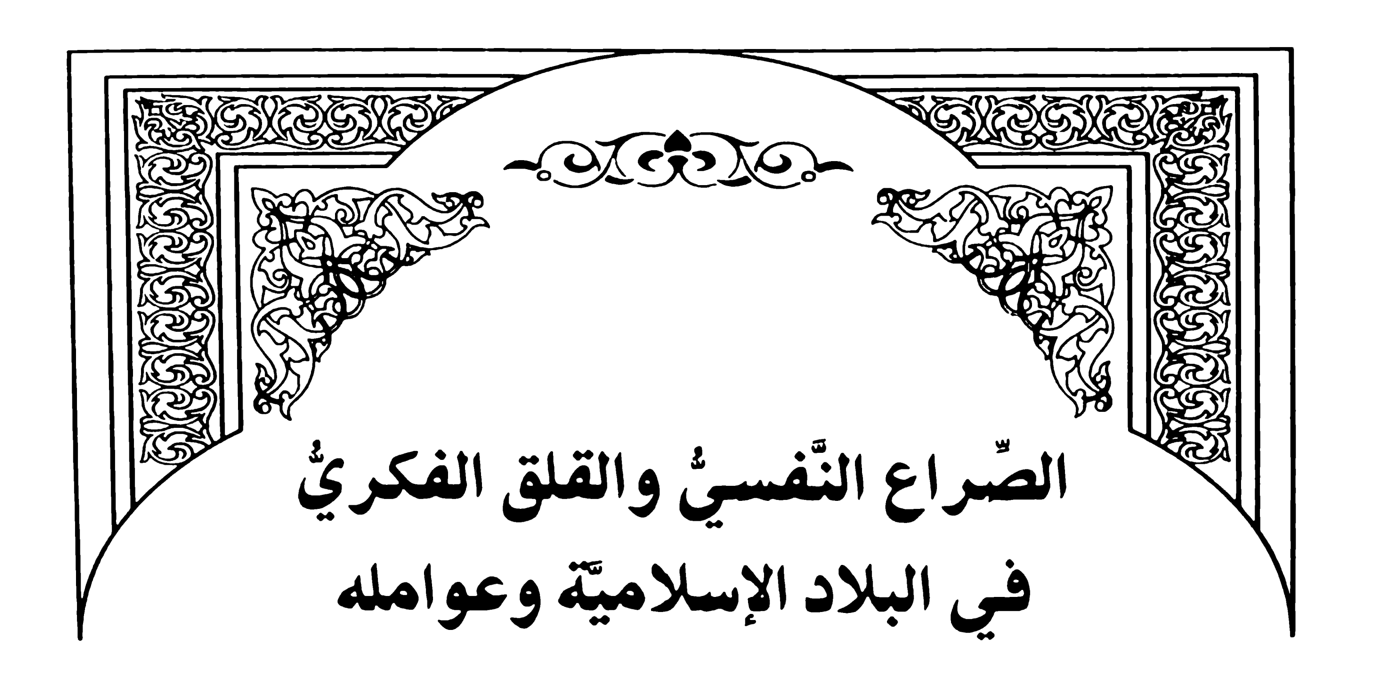
إنَّ مصر الإسلاميَّة اليوم تحتاج بصفةٍ خاصَّةٍ إلىٰ هٰذه القدرة علىٰ صنع الخوارق ، والتَّأثير في المجتمع كتأثير عصا موسىٰ في الحجر ، أو البحر ، لأنَّ عليها تعود مسؤوليَّة بعث الدُّول العربيَّة الإسلاميَّة كلِّها بعثاً جديداً ، إنَّ عليها أن تنفخ روحاً جديدةً في البلاد العربيَّة الإسلاميَّة ، وتوجد لديها ثقةً جديدةً ، وإيماناً جديداً ، ونشاطاً جديداً ، وانتعاشاً جديداً ، وطموحاً جديداً ، وقلباً خفاقاً جديداً ، يتحرَّق علىٰ بؤس

الإنسانيَّة ، وشقائها ، وشجاعةً جديدةً تبعث علىٰ المغامرة والاقتحام ، وجرأةً خلقيَّة تستطيع بها أن تنفخ الحياة في هـٰذه الأمم ، والأقوام المشرفة علىٰ الهلاك ، الَّتي تزلُّ أقدامها ، وترتعش أعصابها ، وتخفق قلوبها ، وتعثر عقولها .

ومن هنالك فإنَّ مسؤوليتكم مزدوجةٌ ، فتقدَّموا إلىٰ الأمام للقيادة الفكريَّة للعالم الإسلاميِّ ، واعملوا علىٰ إيجاد الثِّقة بالإسلام ، وأكِّدوا عمليّاً : أنَّ الإسلام يتمشَّىٰ مع عهد العلم ، والتِّكنولوجيا ، ومصر اليوم « معمل » سيقرِّر : أنَّ النَّظريات الإسلاميَّة تستطيع بكلِّ جدارةٍ أن تساير الزَّمان .

والسَّلام عليكم ورحمة ٱلله وبركاته !

✍ ✍ ✍



الصِّراع النَّفسيُّ والقلق الفكريُّ في البلاد الإسلاميَّة وعوامله

(ألقيت هـٰذه المحاضرة في « جامعة العلامة محمد إقبال المفتوحة » (Iqbal Allama University Open) في ١٨ / يوليو (١٩٧٨م) واستمع إليها أساتذة الجامعة ، وطلاَّبها ، وأعيان المدينة ، ورجالات العلم ، والثقافة ، والسِّياسة ، وقضاة المحكمة العليا ، قدَّم المحاضرَ صاحبُ السَّعادة الدُّكتور محمد صديق شبلي ، وألقىٰ الكلمة الختامية رئيس الجامعة صاحب السَّعادة الدُّكتور شير زمان) .

قال بعد الحمد لله والصلاة علىٰ رسول ٱلله ﷺ :

صاحب السَّعادة رئيس الجامعة ! وأصحاب الفضيلة : أساتذة الجامعة ! وإخوتي الكرام ! قد غمرني بزيارة هـٰذه الجامعة ، والحضور فيها علىٰ دعوة منها ـ بحكم انتمائها إلىٰ شخصيَّةٍ عظيمةٍ عزيزةٍ حبيبة ـ سرورٌ ربَّما لم يحصل لي مثله

لدىٰ زيارة مؤسَّسةٍ علميَّةٍ ، وكنت أفكِّر أن أبدأ حديثي بشطر بيت فارسيٍّ معناه :

« إنَّ للغريب حقَّ المقال » .

لٰكنَّها إذا كانت تنتمي إلىٰ الدُّكتور محمد إقبال ، فإنِّي أستهلُّ حديثي بشطر بيتٍ أرديٍّ للشَّاعر الأرديِّ الكبير الشهير « جكر » المراد آبادي :

« أستحقُّ أن أجلس علىٰ أيِّ فرع من فروع الحديقة أنشئ عليه وكري ؛ لأنَّ لي حقّاً ثابتاً علىٰ فصل الرَّبيع كلِّه » .

إذا كانت هٰذه حديقة « إقبال » فإنِّي بلبلٌ شادٍ من حديقتها ، ولي حقُّ التَّحليق في أجوائها ، والتَّغريد في كلِّ أنحائها ، والتَّمتُّع بكلِّ أجزائها ، ولست إذاً غريباً ، بل كأنِّي أحد سكَّان هٰذه المدينة .

إقبال قدوةٌ لطلاَّب العلوم الغربيَّة في الاحتفاظ بخصائصه الإسلاميَّة مع خوضه في بحر علوم الغرب :

أيُّها السَّادة ! تعرفون جميعاً ما قاله الدُّكتور محمد إقبال حول التَّعليم ، والتَّربية ، ورجائي من المسؤولين عن الجامعة أن يضعوا آراء إقبال حول التَّعليم في مقرَّراتها الدِّراسيَّة ، وأن يجعلوها مادَّةً من الموادِّ الدِّراسيَّة ، ولئن كان الكتَّاب ، والعلماء ، والمفكِّرين قد أفردوا كتباً في موضوع وجهة نظرِ

لإقبال عن التَّعليم ، والتَّربية ، وآرائه ، وأفكاره و وملاحظاته علىٰ الموضوع ؛ فإنِّي أودُّ أن تعيرها الجامعة بالغ اهتمامها ، وأن تتناولها بالدِّراسة ، والبحث كفنٍّ مستقلٍّ ، وموضوعٍ بذاته . . . لقد كان الدُّكتور محمد إقبال ـ كما صرَّح بنفسه في أبياته الفارسيَّة ـ من السُّعداء المعدودين الذين خاضوا بحر نظام التَّعليم الغربيِّ الجديد ، فلم يخرجوا من قعره سالمين فقط ، بل محتفظين بشخصيَّتهم ، وخصائصهم الإبراهيميَّة ، وازدادوا إيماناً بخلود الرِّسالة الإسلاميَّة ، ومضمراتها الواسعة . يقول في شعره الفارسيِّ :

« كسرت طلسم العصر الحاضر ، وأبطلت مكره ، والتقطت الحبَّة ، وأُفلت من شبكة الصَّياد ، يشهد ٱلله أنِّي كنت في ذٰلك مقلِّداً لإبراهيم ، فقد خضت في هٰذه النار واثقاً بنفسي ، وخرجت منها سليماً محتفظاً بشخصيَّتي » .

كان شباب الشَّرق يتوافدون إلىٰ أوربا ، ولا سيما إلىٰ إنكلترا ، ولم تكن الرحلة إلىٰ أوربا ، أو إلىٰ إنكلترا سهلةً ميسورةً كعصرنا هٰذا ، فكان لا يحلم بهٰذه « الكرامة » إلا الَّذين كانت تحالفهم سعادة الجَدِّ ، وحسن الحظِّ ، وكانت الرحلة إليها تعتبر أعظم كرامةً ، وأجلَّ نعمةً ، كان الفائز بها محطَّ أنظار النَّاس يشار إليه بالبنان ، ويقال : ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ .

بلغت سنَّ الرُّشد ، والوعي حين وضعت الحرب العالميَّة الأولىٰ أوزارها ، ورأيت « حركة الخلافة » عن كثبٍ ، وكانت للإنكليز في البلاد دولةٌ ، وصولةٌ ، وكانت البيوتات الارستقراطية ترىٰ أعظم مفخرةٍ أن يقوم أحد أبنائها برحلةٍ تعليميَّةٍ إلىٰ أوربا ، وكان شباب شبه القارة الهنديَّة لهم نصيبٌ أوفر في هٰذه الرِّحلات بالنِّسبة إلىٰ مصر ، والشَّام ، وغيرها من البلاد الشَّرقيَّة . . . رحل إلىٰ أوربا خيرة الشَّباب في شبه القارَّة الهنديَّة الَّذين كانوا يمتازون بمواهبهم ، وذكائهم ، وتعلَّموا في جامعاتها ، ولا سيَّما في جامعة « أكسفورد » وجامعة « كمبردج » (Cambridge) .

إقبال ومحمَّد علىٰ جوهر من خرِّيجي المدرسة الغربيَّة لٰكنَّهما رمزان للصُّمود في وجه الغزو الحضاريِّ الغربيِّ :

ويحقُّ لنا نحن المسلمين الهنود أن نقدِّم في اعتزازٍ ، وافتخارٍ شخصين عظيمين كمثالٍ كريمٍ للسُّعداء الَّذين تعلَّموا في أوربا ، وعاشوا في محيطها الفاسد المفسد ، ومجتمعها الفاسق الفاجر ، الهادم للأخلاق ، والمروءة ، والعفاف ، وعادوا منها حانقين عليها ، ناقمين منها ، ثائرين عليها ، محتفظين بشخصيَّتهم الإسلاميَّة ، وبثقتهم بالذَّات ، بل داعين

متحمِّسين إلىٰ الثِّقة بالذَّات ، والاعتماد علىٰ النَّفس ، ألا وهما : الدُّكتور محمَّد إقبال ، ومولانا محمَّد علي جوهر . . . ولئن كانت هناك أسماءٌ كثيرةٌ يمكن أن نقدِّمها في هٰذا الصَّدد ، ولٰكنِّي اكتفي بهٰذين الاسمين الكريمين اللَّذين لا يمكن أن يتحدَّاهما أحدٌ في هٰذا الجانب الخاصِّ الَّذي نتحدَّث عنه .

حقّاً إنَّنا لا نعرف رجلاً مثل المرحوم مولانا محمَّد علي جوهر في ثورته علىٰ السِّياسة الغربيَّة ، كما لا نعرف رجلاً مثل الدُّكتور محمد إقبال في ثورته علىٰ الحضارة الغربيَّة ، لا نعرف لهما مثلاً في أيِّ بلدٍ من بلاد الشَّرق الإسلاميَّة ، أمَّا الحقيقة والسَّرائر ؛ فلا يعلمها إلا ٱلله العليم الخبير الَّذي يعلم السِّرَّ ، وأخفىٰ ، لٰكنَّنا حينما نقرأ شعر إقبال ، وكتابات محمَّد علي جوهر في صحيفتيه : « كامريد » (Camrade) و« همدرد » وحينما ندرس مواقفهما من الدِّين ، والعقيدة ، ودورهما في خدمة الإسلام والعمل الإسلاميِّ ، ونرىٰ محمَّد علي من خلال الدَّور الَّذي لعبه علىٰ مسرح حركة الخلافة ، ونقرأ خطاباته الَّتي تتأجَّج بالغيرة الإسلاميَّة ، والثَّورة العارمة علىٰ السِّياسة الإنجليزيَّة ، والغربيَّة . . . لا نجد أحداً يعدلهما في ذٰلك ممَّن تخرَّجوا في جامعات أوربا ، وعاشوا في المجتمع الأوربيِّ ، وقضوا فيه مدَّة طويلةً . . . وحقَّ لإقبال أن ينشد :

« ما رأيت يوماً أنحس ، وأشقىٰ في حياتي من اليوم الَّذي جالست فيه أعيان الإفرنج ، وعقلاءهم » .

ويقول : « رغم أنَّ شتاء إنجلترا كان قارساً جداً ، وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السَّيف ، ولٰكنِّي لم أترك في « لندن » التبكير في القيام » .

ذٰلك : أنَّ إقبال رأىٰ الغرب عن كثبٍ ، وسبر غوره ، وعجم عوده ، واطلع علىٰ مواضع الضَّعف ، والسَّقطة فيه ، فاستفاد من ذٰلك كلِّه . . . ومفخرةٌ أيُّ مفخرةٍ لجامعتكم الكريمة هٰذه : أنَّها تنتمي إلىٰ الدُّكتور محمَّد إقبال .

يا سادة ! إنَّ الوقت قصيرٌ لا يسمح بأن آتي علىٰ كلِّ ما يجيش في خاطري ، ولٰكنِّي أريد أن أطرح أمامكم قضيَّةً ذات أهميَّةٍ قصوىٰ ، تستحقُّ لفتةَ التَّفكير من جميع رجال الفكر ، والعلم من أولي التَّجارب الحكيمة الَّذين يخطِّطون « الاستراتيجيَّة » التعليميَّة لجامعاتنا ، ومعاهدنا العلميَّة .

ما هو مصدر الشَّقاء ، والاضطراب في العالم الإسلاميِّ ؟ :

إنَّه لحديث عامين ، أو ثلاثة أعوامٍ ، كنت في زيارة بيروت ، وكان هناك صديقٌ لي من أهل العلم ، والذَّكاء ، يجول بي في أنحاء بيروت علىٰ سيارته لكي أشاهدها ، فقال

لي خلال الجولة : أستميحكم السُّؤال عن قضيَّةٍ هامَّةٍ ، وأريد منك إجابةً مقنعةً . . . إنَّ ما يموج في الدُّول الإسلاميَّة من القلق الفكريِّ ، والاضطراب السِّياسيِّ ، والصِّراع النَّفسيِّ لماذا لا يوجد في غيرها ؟ لماذا لا يوجد مثلاً في الهند ، واليابان ، وسيلان ؟ لماذا لا يوجد في الدُّول غير الإسلاميَّة ما نعهده في الدُّول الإسلاميَّة من جبهتين متعارضتين : جبهة الحكَّام ، والقادة ، وأولي الحلِّ ، والعقد ، وجبهة الشَّعب السَّاذج الَّذي لا يعرف المكر ، والخداع ، ممَّا يسبِّب الانقلابات المتكرِّرة ، وتحول أزمة الحكومات من أيدٍ إلىٰ أيدٍ ، وقد فقد الشَّعب ثقته بحكَّامه ، وقادته بتاتاً ، كما يعيش الحكَّام دائماً في جوٍّ من سوء الظَّنِّ وذعرٍ من الشَّعب !

والواقع أنَّني لم أستطع أن أعطي إجابةً مشبعةً علىٰ هـٰذا السُّؤال الهامِّ ، وشغلت صاحبي بحديثٍ ، وبآخر في الموضوع ، لـٰكنَّ هـٰذا السُّؤال قد أثار في نفسي تساؤلاً لا عهد لي به : ورحت أتساءل في نفسي : لماذا هـٰذا الواقع المرير ؟ وما هو السَّبب في هـٰذه الظاهرة المشؤومة ؟ ما هو العامل الحقيقيُّ في هـٰذا الاصطراع النَّفسيِّ ، والتَّبلبل الفكريِّ ، نسمع كلَّ يوم عن ظاهرة الصِّراع ، والصِّدام في الدَّولة الفلانيَّة ، ونتسامع بأنَّ هناك تصارعاً فيما بين الحضارات ، وفلسفات الأخلاق ؟

وبعد تفكيرٍ هادئٍ توصَّلت إلىٰ الإجابة ، وأريد بهـٰذه المناسبة أن أعرضها عليكم ؛ لأنَّها قد تثير في قلوبكم ، وفي قلوب المسؤولين عن هـٰذه الجامعات شعوراً بضخامة المسؤولية الَّتي تعود عليكم .

إنَّ الفلسفات التَّعليميَّة ، والتَّربويَّة الَّتي استوردتها هـٰذه البلاد غير الإسلاميَّة ما كانت تتصادم مع قيمها ومعتقداتها ؛ لأنَّ هـٰذه القيم أوَّلاً كانت باردةً ميِّتةً ، وثانياً : إنَّها كانت مرنةً جدَّاً ، رقيقةً مائعةً جداً ، تستجيب لكلِّ فلسفة ، وتخضع لكلِّ نظريَّةٍ ، فها هو « جواهر لال نهرو » رئيس وزراء الهند الأسبق حينما سئل عن « الهندوكي » وتعريفه ، فقال بعد ما أطال التَّفكير : « كلُّ من ادَّعىٰ أنَّه هندوكيٌّ فهو هندوكيٌّ » ، وقد حكىٰ لي صديقٌ لي ـ وكان أستاذاً في كليَّةٍ حكوميَّةٍ ـ قال : كنا جالسين في حجرة الأساتذة نتجاذب أطراف الأحاديث ؛ إذ تطرَّق الحديث إلىٰ الدِّيانة الهندوكيَّة ، فقلت لصديقٍ لي هندوكيٍّ ، وكان بروفيسوراً : لو طلب منا أحد أن نوجز له تعريف الإسلام ، لقلنا : إنَّه الإيمان بـ : « لا إلـٰه إلا ٱلله محمَّد رسول ٱلله » . . . . وإذا ما سألكم أحدٌ أن توجزوا له التَّعريف بالهندوكيَّة ؛ فماذا تقولون ؟ وقلت له : لا أريد منك فلسفةً متعمِّقةً متعقِّدةً ، فلدي مكتبةٌ أستطيع أن أطالع فلسفات الدِّيانات ، وأوسع دراستي لنظريَّاتها ، ومعتقداتها ، وإنَّما

أريد منك تعريفاً بالهندوكيَّة بكلمةٍ موجزة ! فقال بعد ما أجهد الفكر ، يا أخي ! الواقع : أنَّ الَّذي لا يعتقد في شيءٍ فهو هندوكيٌّ ، والَّذي يعتقد في كلِّ شيءٍ هندوكيٌّ كذٰلك .

إلىٰ هـٰذا المبلغ يبلغ نظام عقائدهم من المرونة ، والميوعة ، تنسجم مع كلِّ فلسفةٍ ، وتقبل كلَّ نظريَّةٍ مستوردةٍ ، ولا تتصارع معها في قليلٍ ، أو كثيرٍ ، ومن هنالك حينما غزا نظام التَّعليم الغربيُّ الهند ، لم يحدث قلقاً ما في المجتمع الهندوكيِّ ، اللَّهم إلا بعض الهنادك المتزمِّتين الَّذين قد لا يعدو عددهم رؤوس الأصابع ، كانوا يرون فيه معارضةً خفيَّةً لأمورٍ تافهةٍ من معتقداتهم . . . وإنَّما حدث القلق في المجتمع الإسلاميِّ ؛ لأنَّه يؤمن بوحدانيَّة ٱلله جلَّ وعلا ، لديه مفهومٌ معلومٌ محدَّدٌ للتَّوحيد ، لا يسمح بأن يخلص الإنسان ولاءه في وقتٍ واحدٍ لدياناتٍ شتَّىٰ ، ويجمع بين الإشراك ، والتَّوحيد ، ثمَّ لا يجمع بين الإيمان بأن الغرب مرجع كلِّ شيءٍ ، ومصدر كلِّ تقدُّم ، وازدهار ، وهو وحده الجدير بالإمامة ، والسِّيادة ، والقيـادة ، والـوصـايـة ، وبيـن الإيمـان بـأنَّ النَّبـيَّ الأعظـم محمَّداً ﷺ هو هادي السُّبل ، وخاتم الرُّسل ، وإمام الكلِّ ، لكلِّ الأجيال البشريَّة في كلِّ عصر . . . نعم لا يمكن له أن يؤمن بكلِّ ذٰلك ، ويؤمن ـ في ذات الوقت ـ بأنَّ الحضارة الغربيَّة هي منبع كلِّ سعادة ، وخير ، وأنَّ العلم هو آخر

ما وصل إليه الإنسان من التقدُّم ، وأنَّها نقطة الرُّقيِّ الأخيرة الَّتي لا يمكن أن يتعدَّاها أحدٌ . . .

النُّور والظَّلام لا يجتمعان :

علىٰ كلٍّ فَلِمَ لَمْ يقع اضطرابٌ ما في المجتمع الَّذي كان متميِّعاً ، سيَّالاً ، رقيقاً ، ناعماً ، يتفاعل مع كلِّ نظريَّة ، ويتلاحم مع كلِّ غريبٍ مستوردٍ من الأفكار ، والفلسفات ، والآراء ، والاتِّجاهات ، والقيم ، والحضارات ، ولم يحدث قلقٌ في الدُّول الَّتي لا تحمل نظاماً إيجابيَّاً أبيَّاً ، شامخاً مستقلاًّ ، ولا تعرف طريق الرَّحمان من طريق الشَّيطان ، ولا تلتزم بمبدأ ، ولا تصرُّ علىٰ حقيقةٍ ، ولا تفرِّق بين الضَّلالة ، والهداية : ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس : ٣٢] ؟ يرىٰ الإسلام : أنَّ النُّور فردٌ ، والظُّلمات لا حدَّ لها ، ولا عدَّ ، ويلحُّ علىٰ أنَّه هو الحقُّ وحده ، وما سواه كفرٌ ، وطغيانٌ ، وبغيٌ ، وعدوانٌ ، وإلحادٌ ، وجاهليَّةٌ ، ويحدِّد الإيمان ، والكفر ، ويعيِّن الخطَّ الفاصل بينهما ، وَيُصِرُّ علىٰ أنَّه يحمل حضارةً خاصَّةً ، وليس هو مجرَّد عقائد معدودةٍ ، وأحكامٍ مرسومةٍ .

فلمَّا غزت الحضارة الغربيَّة المجتمع الإسلاميَّ بكلِّ ما عندها من تصوُّرات ، وقيمٍ ، وأغراضٍ ، وأهدافٍ ؛ وقع

بينها ، وبينه صدامٌ ، وصراعٌ شديدٌ ، عنيفٌ ، وكان هٰذا الصِّراع طبيعياً . . . ثمَّ حدثت كارثةٌ أخرىٰ ، وهي أنَّ الشَّباب الأذكياء من بيوتات الأغنياء ، والأسرياء ، والطَّبقة الارستقراطيَّة في هٰذه البلاد الإسلاميَّة ، قد تثقَّفوا بالثَّقافة الغربيَّة ، وبقي الشَّعب علىٰ حاله ، فنشأ من ذٰلك : أنَّ هٰذه الطَّبقة المثقَّفة بالثَّقافة العصريَّة عادت لا تعرف ما يعيش فيه الشَّعب من عواطف ، وتصوُّراتٍ ، وآمانٍ ، وآمالٍ ، ومشاعرَ ، وأحاسيسَ ، كما يكون شأن أمَّةٍ جديدةٍ بأمَّةٍ أخرىٰ جديدةٍ ليس بينهما سالفُ تعارفٍ ، ولا سابق لقاءٍ . وممَّا زاد الطِّين بِلَّةً ، والطنبور نغمةً : أنَّ الطَّبقة العصريَّة شعرت شعوراً قويّاً ملحّاً ـ أو علمت بعد تجاربها « المريرة » ـ : أنَّه لا بدَّ من أجل الإبقاء علىٰ العقيدة ، والزَّعامة ، وحتَّىٰ من أجل أن تستطيع أن تعيش عيشة هدوءٍ ، وسلامٍ ، لا بدَّ من القضاء علىٰ ما يتحلَّىٰ به الشَّعب من العواطف الدِّينيَّة ، والغيرة الإسلاميَّة ـ أو علىٰ الأقلِّ ـ لا بدَّ من توهينها إلىٰ حدٍّ يجعلها لا تقف حجر عثرةٍ في طريق تحقيق أغراضهم الدِّينيَّة .

فركزوا عنايتهم علىٰ القضاء علىٰ الحميَّة الدِّينيَّة ، والغيرة الإسلاميَّة ، والوعي ، والإيمان ، والذَّكاء الدِّينيِّ في الشَّعب المسلم عن طريق الثَّقافة ، والصَّحافة ، ووسائل الإعلام ، والشِّعر ، والأدب ، وهنالك خاضت قياداتُ هٰذه البلاد ،

والأقطار الإسلاميَّة معركةً حاميةً مع الشَّعب ؛ لأنَّها رأت سرَّ حياتها ، ونموِّها ، وازدهارها في إماتة الوعي الدِّينيِّ لدىٰ الشَّعب ، ولأنَّها أدركت : أنَّ الشَّعب قد يكوِّن جبهةً متَّحدةً لمحاربتها ، ويشكِّل العقبات في طريق مطامعها . . .

الوضع في العالم الإسلاميِّ وضعٌ متناقضٌ : شعوبٌ تغمرها روح الفداء للإسلام ، وحكوماتٌ تؤمن بتفوُّق الغرب ، وعظمته :

أيُّها السادة ! إنِّي أحكي لكم قصَّة هٰذه البلاد الإسلاميَّة : قصَّة مصر ، والشَّام ، وقصَّة العراق ، وتركيَّا ، ولا أقول : إنَّ هٰذه القصَّة قد حدثت في كلِّ بلدٍ من البلاد الإسلاميَّة ، ولا قدَّر ٱلله ذٰلك ، ولا رماكم ٱلله بهٰذه المصيبة ، ولا تعرض فصولها علىٰ مسرح هٰذا البلد الكريم أبداً . . . لٰكنَّها علىٰ كلٍّ قصَّة الدول الإسلامية المتقدِّمة ؛ حيث نشأت طبقةٌ لم تكن زاهدةً في الدِّين فحسب ، بل تنكَّرت له ، واستوحشت منه ، وكانت تنعىٰ علىٰ الشَّعب تمسُّكه بالشَّريعة ، وعضَّه علىٰ جميع أجزائها ، وأحكامها بالنَّواجذ ، وكانت ترىٰ : أنَّه إذا كان هناك أفرادٌ في المجتمع يعاقرون الخمر ، ويشاهدون علىٰ الشَّاشة الصغيرة ، والكبيرة ، والتِّلفاز كلَّ غثٍّ ، وسمينٍ ، ويقع بعض التحوُّل في أخلاقهم وسلوكهم ، أو يتأثَّر جانبٌ من سيرة الصِّغار ؛ فماذا يضرُّهم ، وأيُّ شيءٍ ينقصهم ، وأيُّ خسارة

تلحقهم ؟ ! . . . ما لهم ولهٰذه القضايا ؟ ! لهم أن يأكلوا ، ويتمتَّعوا ، ويعيشوا ، وينعموا ، ويكسبوا المعاش ، ويحوزوا الثَّروة ، ويجرِّبوا نصيبهم في الحياة ، وقد علَّم هٰذه الطَّبقة أساتذتُها من الغَرب الَّذين تتلمذوا عليهم ، والجامعات الأوربيَّة الَّتي تخرَّجت منها : أنَّ الدِّين قضيَّةٌ شخصيَّةٌ ، وخيرٌ لهٰذا الدِّين ـ إذا أراد البقاء ، والحياة ـ أن يظل علىٰ صفته هٰذه . . . قد تلقَّنت هٰذا الدَّرس من أساتذتها ، وأساغته إساغةً كاملةً ، واقتنعت به ، فلمَّا عادت إلىٰ بلادها هٰذه الشَّرقيَّة ؛ وجدت : أنَّ أفراد الشَّعب يتدخَّلون في شؤون الحكومة ، وينتقدون القيادات ، ويؤاخذونها ، ويحسبون لكلِّ شيءٍ حساباً دقيقاً ، وحين يرون شيئاً لا يوافق ما يعتقدونه ؛ يستشيطون غضباً ، ويتَّقدون حنقاً . . . .

الطَّبقة الحاكمة ترصد كلَّ إمكانيَّاتها لقهر شعوبها ، وكبت عواطفها :

لمَّا شاهدت هٰذه الطبقة كلَّ ذٰلك ، ورأت : أنَّ أحلامها ستتبعثر ؛ فتحت جبهةً مستقلَّةً لتوجيه الهجوم منها علىٰ الشَّعب ، قد كان ذٰلك في مصر في عهد جمال عبد الناصر ، فتوجَّهت القوىٰ الرَّسمية بخيلها ، ورجلها ، وبكلِّ أجهزتها ، ووسائلها ، وطاقاتها ، لتصبَّ الويلات علىٰ الشَّعب المصريِّ البريء ، وحلَّت القوَّات محلَّ الشُّرطة ، ورصدت كلَّ

إمكانيات مصر ، وثرواتها ، وخيراتها ، وقواها ، وذكاء الطبقة الحاكمة لكبت عواطف الشَّعب ؛ الَّتي كانت القيادة ترىٰ : أنَّها قد تكون كنارٍ في الهشيم ، لا تبقي ، ولا تذر فتأتي علىٰ اليابس ، والأخضر من أمانيهم ، وأحلامهم . . وعلىٰ ذٰلك فعاش العهد النَّاصريُّ في مصر في الجهاد في غير عدوٍّ ، في محاربة الشَّعب الهادئ الوادع ، والقضاء علىٰ الحرَكات الإسلاميَّة ، والمؤسَّسات الدِّينيَّة ، مكان محاربة الإلحاد ، والشُّيوعيَّة ، ومحاربة إسرائيل ، والقوىٰ الصُّهيونيَّة ، وإلىٰ أيِّ مدىٰ تركت هٰذه « الحرب السَّلبيَّة » مفعولها ، وإلىٰ أيِّ حدٍّ استطاع « ناصر » أن يحرز النَّجاح في مقصده ؟ لا يمكن الحديث عنه بالتَّحديد ، والضَّبط ، ولٰكن هٰذه الحرب هي الَّتي استنفدت كلَّ وقته ، وجهده ، ورصيد فكره .

وهٰذه الحرب نفسها قائمةٌ اليوم في معظم البلاد العربية : وليبيا ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب ، وغيرها ، لا تختلف معركة اليوم عن معركة الأمس في النوعية ، نعم إنَّها حاميةٌ في مكانٍ ، وهادئةٌ في مكانٍ آخر ، ولن أسمِّي لكم بلداً غير عربيٍّ ، فقد كفتني في ذٰلك البلاد العربيَّة ، وليكن ملحوظاً : أنَّ هٰذه المعركة « المصطنعة » هي من صنائع الفلسفتين المتنافستين المتقابلتين ، والنِّظامين الممتازين للتَّعليم ، والتَّربية ، فإنَّ التَّعليم الَّذي يتلقَّاه طلاَّبنا ، وأفلاذ

أكبادنا في المدارس الدِّينيَّة يمحوه ـ كحرفٍ مكرَّرٍ ، أو كلمةٍ خاطئةٍ ـ ذٰلك النِّظام الغربيُّ للتَّعليم .

ما فات فرعون تداركه قادة التَّربية الغربيُّون :

ومن هنالك لما اقتحم النِّظام الغربيُّ التعليميُّ شبه القارة الهنديَّة علىٰ أثر نفوذ الإنجليز ، وسيطرتهم السِّياسيَّة علىٰ الهند غير المنقسمة ، قال السَّيد اكبر حسين الشاعر الأردي العظيم بيته الخالد السَّائر الَّذي لم يقل أحدٌ بيتاً أدقَّ منه في التَّنديد بنظام التَّعليم الغربيِّ الإلحاديِّ ، والدَّلالة علىٰ فعله البعيد المدىٰ ، فإنِّي لا أعرف نثراً أو نظماً يعبِّر هـٰذا التَّعبير البليغ ، البارع الدَّقيق ، الرَّائع العميق عن نظام التَّعليم اللَّادينيِّ ، وبهـٰذه الكلمات البسيطة الخفيفة يقول أكبر :

« لو فتح فرعون كلِّيَّةً في مصر (أراد بها نظام التَّعليم الغربيِّ) . . . لم يكن هدف المَلام ، والتُّهم من بني إسرائيل ، فقد كان مستغنياً بذٰلك عن قتل أطفالهم جسدياً ، ولـٰكن المسكين لم يتفطَّن لهـٰذه النُّكتة » .

إنَّ « أكبر » يشير إلىٰ حقيقةٍ كبيرةٍ ، إنَّه يقول :

إنَّ فرعون بغباوته ، وبلاهة ذهنه ، وقلَّة عقله جرَّ عليه هـٰذه اللَّعنات ، وخلق لنفسه هـٰذه المشكلات ، ومهَّد الطَّريق لدعاياتٍ غير متناهيةٍ ضدَّه ، حتَّىٰ صار رمزاً للظُّلم ،

والوحشيَّة ، وقساوة القلب ، وسجَّلت له الصُّحف السَّماويَّة صفحاتٍ سوداء من استكبارٍ ، وإفسادٍ ، واستعلاءٍ ، ولو أنه غيَّر نظام التَّعليم ؛ لكفاه عن التَّقتيل ، والتَّشريد ، ولكسب سمعةً طيبةً ، ولعدَّ المربِّيَ الجليل الأكبر ، ووليَّ العلم ، والثَّقافة ، ولأُسِّست باسمه جامعاتٌ ، ومجامع علميَّة .

يا سادة ! قد بدأ هـٰذا الصِّراع ـ الَّذي نتحدَّث عنه ـ في المملكة العربيَّة السُّعودية أيضاً ، بفعل هـٰذا النِّظام التعليميِّ الغربيِّ اللَّادينيِّ . . . وكلُّ دولةٍ تريد أن تخدم الإسلام ، وتعلي كلمته ، يجب عليها أولاً أن تتجنَّب هـٰذا الصِّراع النَّفسيَّ الخبيث ؛ لأنَّه يستهلك كلَّ القوىٰ العقليَّة ، والفكريَّة ، وكلَّ نصيبٍ من الذَّكاء ، والقدرة ، ولا يدع هـٰذه القوىٰ والطَّاقات ، والمواهب ، والقدرات تقبل علىٰ تعمير البلاد ، وتدعيمها ، وصيانتها من القلق ، والاضطراب ، واللَّاأمن ، وتعود كلُّ طبقةٍ تفكِّر أن تتغلَّب هي وحدها ، وأن يكون المسيطر علىٰ البلاد ، والمقبول المتداول في أرجائها ما لديها من فلسفة الأخلاق ، وفلسفة الحياة ، أو فلسفة ما بعد الطَّبيعة ليس إلَّا . . . .

التَّعليم العصريُّ حامضٌ يذيب الشَّخصيَّة ، ويكوِّنها من جديد :

وإنِّي أتوقَّع من هـٰذه الجامعة الموقَّرة : أنَّها ستخطو هـٰذه

الخطوة الإصلاحيَّة قبل أيِّ جامعةٍ أخرىٰ ؛ لأنَّها تنتمي إلىٰ ذٰلك المفكِّر الإسلاميِّ العظيم الَّذي كان عظيم الكراهية لهـٰذا النِّظام التَّعليميِّ الغربيِّ العصريِّ ، شديد المقت له ، كثير التنديد به ، وكان كثير الخوف من تطبيقه في الأقطار الإسلاميَّة ، وأعتقد : أنَّه لو كان بقيد الحياة ؛ لركَّز أوَّلاً علىٰ تغيير النِّظام التعليميِّ الحالي ؛ لأنَّه كان يرىٰ : أنَّ نظام التَّعليم الحديث هو « كحامضٍ » يذيب شخصيَّة الإنسان . يقول في أبياته :

« إنَّ التَّعليم هو « الحامض » الَّذي يذيب شخصيَّة الكائن الحيِّ ، ثم يكوِّنها كما يشاء ، إنَّ هـٰذا « الحامض » هو أشدُّ قوَّةً ، وتأثيراً من أيِّ مادةٍ كيميائيَّةٍ ، هو الَّذي يستطيع أن يحوِّل جبلاً شامخاً إلىٰ كومة تراب » .

الشَّخصيَّة الإسلاميَّة لن تتكوَّن إلا بنظامٍ تعليميٍّ يتطابق مع طبيعة الشُّعوب الإسلاميَّة ، وعقيدتها :

انعقدت ندوةٌ علميَّةٌ في عمَّان في عام (١٩٧٣م) كان يديرها الأستاذ محمَّد إبراهيم شقرة ، وشارك فيها كاتب هـٰذه السُّطور ، وسعادة الأستاذ أحمد محمد جمال ، ومعالي الأستاذ كامل الشَّريف ، وكان الحوار الَّذي يجري في هـٰذه النَّدوة تذيعه محطَّات الإذاعة ، وقد وُجِّهَ إليَّ السُّؤال عن سبب

الحيرة المردية الَّتي يعيشها العالم الإسلاميُّ كلُّه بصفة عامَّةٍ ، والشَّباب المسلم بصفةٍ خاصَّةٍ .

فقلت فيما بعد :

« من أعظم أسباب الحيرة التي يعانيها الشَّباب المسلم اليوم هو التناقض في المجتمع الَّذي يعيش فيه ، تناقض بين ما ورثوه ، وبين ما يعيشونه ، وبين ما يُلَقَّنونه تلقيناً ، وبين ما يطلبه علماء الدِّين ، هٰذا التَّناقض العجيب الَّذي سُلِّط عليهم ، ومنوا به هو السِّرُّ في هٰذه الحيرة المردية . . . هنالك عقائد آمنوا بها كمسلمٍ ولد في بيتٍ إسلاميٍّ ، في أسرةٍ إسلاميَّةٍ ، ونشأ علىٰ كثيرٍ من العقائد ، وتلقَّاها بوعيٍ ، أو بغير وعيٍ ، ثمَّ إنَّه نشأ في بيئةٍ دينيَّةٍ تؤمن بمبادئ الإسلام ، وقرأ التَّاريخ الإسلاميَّ ـ إذا أكرمه ٱلله بذٰلك ، وتسنَّت له هٰذه الفرصة الكريمة ـ وكان سعيداً بوجوده في بيئةٍ واعيةٍ دينيَّةٍ ، ثمَّ سيق ـ ومعذرتي علىٰ اختيار هٰذه الكلمة ؛ لأنَّه لا يزال في سن مبكِّرة ، وليس له خيارٌ ـ إلىٰ دور ثقافةٍ يسمع فيها من أولٰئك الأساتذة الَّذين يجلُّهم كلَّ ما ينقض ما أبرمته البيئة ، وكلَّ ما غرسته في قلبه ، وعقله من التربية الإسلاميَّة ، أو يقلِّل قيمته علىٰ الأقلِّ فيقع في تناقضٍ عجيبٍ ، وصراعٍ فكريٍّ عنيفٍ ، وفي ارتباكٍ نفسيٍّ ، (Confusion) .

إنَّه يتلقَّىٰ هٰذا الصِّراع من مؤسَّسة الإعلام ، ومن التِّلفزيون ، ويسمع إذاعات ، وأحاديث ، وبرامج تقضي علىٰ البقيَّة الباقية من آثار التَّربية القديمة ، ومن الصَّحافة الَّتي هي « صاحبة الجلالة » تقدِّم إليهم في أول النَّهار الغذاء الفاسد العفن ، والموادَّ المثيرة المهيجة للعواطف . . . إنَّه يقع في أيديه كتبٌ علميَّةٌ من أناسٍ آمنوا بفضلهم ، وعبقريتهم ، فيرون ما يشكِّككهم في الدِّين .

إنَّ مثل ذٰلك أيُّها السَّادة ! كمثل عجلةٍ ، أو مركبةٍ ركب فيها فرسٌ في الأمام وفرسٌ في الوراء ، وكلاهما قويان ، فكما أنَّ هٰذه العجلة من المعقول جداً أن يكون رُكَّابُها في حيرةٍ من أمرهم ، هٰذا يجرُّها إلىٰ الأمام ، وهٰذا يجرُّها إلىٰ الوراء ، فكذٰلك الشَّباب يتأرجحون في أرجوحةٍ يميناً ، وشمالاً .

لا بدَّ من تضييق الفجوة بين رغبات الشُّعوب الإسلاميَّة ، وأجهزة التَّربيَّة والسِّياسة :

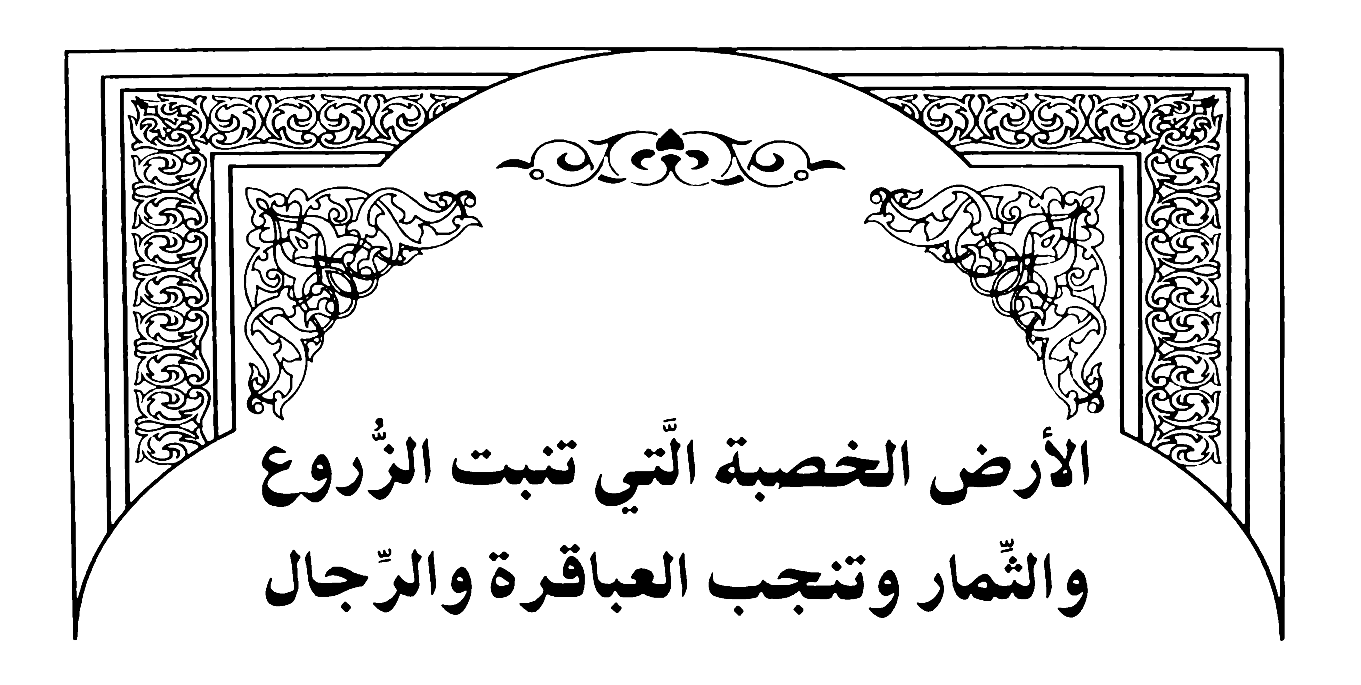
وحلُّ هٰذه المشكلة هو إزالة هٰذا التناقض « الَّذي يعبِّر عنه لسان الشَّريعة ، ولسان القرآن بكلمة « النِّفاق » وأنَّ ذٰلك يحتاج إلىٰ قلب نظام التَّربية ، والإعلام ، ومؤسَّسة الصَّحافة بالمعنىٰ العامِّ ، والتِّلفزيون ـ الذي جاء حديثاً ـ رأساً علىٰ عقب ، ويحتاج إلىٰ ثروةٍ عارمةٍ دقيقةٍ شاملةٍ ، وإلىٰ أناسٍ

عندهم الأصالة الفكريَّة ، وإلىٰ الاجتهاد في الموادِّ الدِّراسيَّة ، ويحتاج إلىٰ أن تتبنىٰ هٰذه القضيَّة الحكومات الإسلاميَّة الكبيرة ، وإلىٰ ملء الفجوة بين الكهول والشَّباب ، وبين الدُّعاة إلىٰ الدِّين ، والشَّباب الجامعيِّين ، ويحتاج إلىٰ مكتبةٍ جديدةٍ ، وأسلوبٍ جديدٍ في الحديث مع الشَّباب » .

أيُّها السَّادة ! أختم حديثي بهٰذه الكلمات ، وأوجِّه شكري ، وتقديري لصاحب السَّعادة رئيس هٰذه الجامعة ، وصاحب السَّعادة رئيس القضاة « أفضل جيمه » اللَّذَيْن وفَّرا لي فرصة الحديث إلىٰ هٰذه المجموعة الكريمة . . . وإنِّي علىٰ يقينٍ كاملٍ بأنكم مهما تنسوا كلمتي هٰذه ؛ فإنكم لن تنسوا رسالة « إقبال » ويحلو لي أن يكون بعض أبيات إقبال هو مسك الختام لحديثي هٰذا :

« حيَّا ٱلله شبيبتك يا مربي الجيل الجديد ! ألق عليهم درس التَّواضع ، وهضم النَّفس مع الاعتزاز بالنَّفس ، والاعتداد بالشَّخصية ، علِّمهم كيف يشقُّون الصُّخور ، ويدكُّون الجبال ، فإنَّ الغرب لم يعلمهم إلا صنع الزُّجاج ، إنَّ عبودية قرنين متواليين قد كسرت خاطرهم ، وأوهنت قلوبهم ، فانظر كيف تعيد الثِّقة إلىٰ نفوسهم ، وتحارب الفوضىٰ الفكريَّة » .

✍ ✍ ✍



الأرض الخصبة الَّتي تنبت الزُّروع والثِّمار وتنجب العباقرة والرِّجال

(أُلقيت هٰذه المحاضرة في ٢٣ ، يوليو (١٩٧٨م) بجامعة الزِّراعة (Agriculture University) بفيصل آباد ، واستمع إليها كبار المسؤولين عن الجامعة ، وأساتذتها ، وطلَّابها ، بالإضافة إلىٰ أعيان المدينة ، ووجهائها ، وعددٍ وجيهٍ من رجال العلم ، والفكر ، والمثقَّفين ، وقد تحدَّث المحاضر إلىٰ الطلَّاب العرب في الجامعة علىٰ طلبٍ منهم باللُّغة العربيَّة في نفس الموضوع) .

المقياس الحقيقيُّ لعظمة البلد :

قال بعد ما حمد ربَّه ، وصلىٰ علىٰ نبيِّه الكريم وسلم :

أصحاب السَّعادة ، والفضيلة أساتذة هٰذه الجامعة ، وإخوتي الطَّلبة والمستمعين الكرام !

يسرُّني جدًّا ، ويسعدني : أنِّي وفقت للحضور ، وإلقاء

الحديث في هٰذه الجامعة الموقرة ، الجليلة في وظيفتها ، وبخصائصها ، فشكري ، وتقديري للمسؤولين عن الجامعة علىٰ هٰذه الحفاوة ، والوفادة .

يا سادة ! إنَّ البلد لا تقاس عظمته بكثرة الجامعات الَّتي تقوم في رحابه ، ولا يقوم بخصبة أراضيه ، وقوَّة إغلالها ، وكثرة إنتاجها ، وحسن إنباتها ، أو بكميَّةٍ كبيرةٍ من أصحاب الملايين ، وأولي الثَّراء ، والرَّخاء ، والتَّرف ، والسَّرف ، أو بارتفاع مستوىٰ المعيشة في أهله ، بل المقياس الحقيقيُّ الَّذي يقاس به بلد ، وتقدَّر به قيمته ، هو نسبة وجود ذوق العلم ، وروح البحث ؛ الَّذي يتَّصف به رجال العلم ، والبحث من أبنائه ، ونسبة عدد الجامعات ، ومراكز العلوم ، والثقافة الَّتي تقوم علىٰ هٰذا الأساس ، وتحقِّق هٰذا الغرض ، فلو كان هناك بلدٌ يزخر بأنواع النِّعم ، والخيرات ، ويحفل بالذَّخائر الطَّبيعية للثَّروات الهائلة ، وتدرُّ أرضه وسماؤه عسلاً ، ولبناً ، وبكلِّ نوعٍ من الوسائل ، والإمكانيَّات ، ولٰكن ينقصه الذَّوق الصَّحيح للعلم العميق ، والبحث الدَّقيق ، والدِّراسة ، والتَّحقيق ، ولا يوجد فيه ـ في كميَّةٍ وجيهةٍ ـ أولٰئك الذين وقفوا حياتهم علىٰ العلم ، وانقطعوا إلىٰ الدِّراسة المضنية الجادَّة ، المثمرة المنتجة ، مستغنين عن كلِّ إشادةٍ ، وتحبيذٍ ، راغبين في رضا ٱلله (وهو جوهر المقصود لدىٰ

المؤمن) ساعين في سبيل ترقية البلاد ، وتقديمها إلىٰ الرَّخاء ، والنُّموِّ ، والازدهار ، لا يدفعهم إلىٰ ذٰلك طمعٌ في جائزةٍ رسميَّةٍ ، أو في وسام التَّقدير ، والاعتراف من مؤسَّسةٍ ، يجدون في التَّعب ، والعناء لذَّةً لا يجدونها في الرَّاحة ، والجمام ، يرون في التَّعطيل ، والبطالة تعذيباً لروحهم ، وخنقاً لمواهبهم ، ويرون فيمن يحول بينهم ، وبين العمل العلميِّ الجادِّ المضني ألدَّ ، وأحنق عدوٍّ لهم ؛ لأنَّه قد أصبح لهم بمنزلة الماء للسَّمك ، والغذاء للجسم ، بل بمنزلة الرُّوح للجسد .

ترنَّحتْ جوانحي حينما زرت هٰذه الجامعة :

وقد خامرني سرورٌ بالغٌ حينما رأيت : أنَّ هناك جامعة زراعةٍ راقيةٍ ، يؤمُّها الطلاَّب ، والمعنيُّون بالموضوع من خارج البلاد أيضاً ، ولا سيَّما شباب العرب . وتأكَّدوا : إنِّي لم أكن لأشعر بهٰذه الفرحة الغامرة ـ الَّتي شعرت بها عند زيارة هٰذه المؤسَّسة العلمية العزيزة ـ بزيارة متحفٍ مهما كان عظيماً ، وراقياً ، أو استضافتي في بلاطٍ رسميٍّ عظيمٍ مهما توفَّرت فيه وسائل الحفاوة ، والإكرام .

أنفقوا خير مواهبكم في تعمير هٰذه البلاد :

وأرجو : أنَّ الشَّباب الَّذين ينهلون اليوم من هٰذا المنهل

الكريم سوف يبذلون خير ما يتمتَّعون به من مواهبَ ، وصلاحياتٍ في صالح هٰذه البلاد ، ويفضِّلون خدمة الوطن علىٰ المرتَّبات العالية ، والمناصب السَّامية ، والجاه العريض في أوربا ، أو الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ، الَّتي أصبحت من سوء الحظِّ كعبة الطَّامحين إلىٰ المادَّة ، والمعدة . قد رأيت بِعَيْنَيْ رأسي لدىٰ زيارتي لأمريكا ، وكندا (Canada) : أنَّ خيرة شباب الشرق ـ الذين يتمتَّعون بمواهب غنيَّةٍ ، والَّذين كان بوسعهم أن يغنوا بلادهم ، ويجعلوها تدرُّ لبناً ، وعسلاً ، وتفيض بكلِّ نوعٍ من الثَّروات ، والخيرات ـ لو ركزوا بعض عنايتهم عليها ـ قد اختاروا مجال العمل ، والنَّشاط في خارج بلادهم ، ومهما كانت لهم بمصالح بلادهم ، حيث هاجروها إلىٰ بلاد الأجانب ، بل الأعداء بعد ما بلغوا طور العمل ، والإنتاج في حين كانت هي بأمسِّ حاجةٍ إلىٰ صلاحياتهم ، وعلىٰ ذٰلك ، فأصبحوا يخدمون الأجانب ، ويثرون بلادهم بنتائج أعمالهم ، وثمرات قوَّتهم العلميَّة ، والعقليَّة ، والفكريَّة . . . ولذٰلك أرجو إخواننا شباب هٰذا البلد ، والشباب العربيَّ ـ وأظنُّ أنهم يفهمون حديثي ، فربما قد تعلموا الأرديَّة بطول مكثهم هنا ـ أنَّهم سيضعون بلادهم في عين الاعتبار ، وسيرونها هي المستحقُّ الوحيد لمواهبهم ، وذكائهم ، ودراستهم ، ونتائج تفكيرهم . . . ومن المؤسف

جداً ، بل وبلاهة العقل ، وفقدان الغيرة علىٰ الدِّين والوطن أن نضع مواهبنا في خدمة البلاد الَّتي استعبدت الدُّول الإسلاميَّة .
إنَّ الدُّول الإسلاميَّة كلَّها اليوم خاضعةٌ لأمريكا ، أو روسيا ـ مباشرةً ، أو غير مباشرة ـ لا في مجال السِّياسة ، والاقتصاد وحدهما ، ولٰكن فيما يتعلَّق بمجال العلم ، والثَّقافة ، والفنِّ أيضاً ، فلو صرف شبابنا مواهبهم في صالح بلادهم وحدها ؛ لاستطاعوا أن يكسبوها شيئاً كثيراً من الغناء والاكتفاء الذَّاتيِّ ، ولاستطاعوا أن ينالوا ـ بهٰذا الطَّريق ـ جزاءً موفوراً ، وعطاءً غير منقوصٍ من ربِّهم وخالقهم .

الفلسفات ، والنَّظريات ، والبحوث العلميَّة لا يزال لها سلطانٌ علىٰ النُّفوس ، والعقول :

إنَّ لي في هٰؤلاء الشَّباب رجاءً كبيراً ، آمل : أنَّهم سيقفون ببحوثهم العلميَّة ، ودراستهم الموسعة العميقة الشاملة وطموحهم العلميِّ في وجه تلك البلاد الَّتي تغزو قلوب المسلمين عن طريق العلم ، والثَّقافة ، والدِّراسة . إنَّه قد ولَّىٰ العصر الَّذي كانت تستعبد فيه دولةٌ دولةً ، فإذا كانت هناك دولةٌ تحلم بذٰلك ؛ فإنَّها تعيش في عالم الأساطير ، والأوهام ، ولٰكن الغزو العلميَّ ، والفكريَّ ضدَّ الإسلام ظلَّ قائماً علىٰ امتداد التَّاريخ ، وسيظلُّ .

لقد مضىٰ علىٰ الإسلام حينٌ من الدَّهر قد هجمت عليه الفلسفة الإغريقيَّة بكلِّ ما عندها من رصيد الحيويَّة ، والفتوَّة ، والنَّشاط ، فقام لها رجال من أبناء الإسلام ـ الذين كانوا قد سبروا أغوارها ، وخاضوا في أعماقها ، وعجموا عودها ـ فجعلوه هباءً منثوراً ، أمثال الأئمة : الغزاليُّ ، والباقلانيُّ ، وشيخ الإسلام ابن تيميَّة ، والرَّازي ، وغيرهم .

ثمَّ جاء دور غزو الاستعمار الغربيِّ للإسلام عن طريق التَّاريخ ، وعمَّ في طول العالم ، وعرضه الرأي القائل بأنَّ مكتبة الإسكندرية أحرقها المسلمون ، وقد قدَّمته أوربا كحقيقةٍ تاريخيَّةٍ مقرَّرةٍ ، فخضع له كلُّ مثقَّفٍ ، وكلُّ دارسٍ ، وكلُّ من كان يكابر فيه ، أو يشكُّ ، أو يراه موضع جدالٍ ، ونقاشٍ ؛ كان هدف التُّهم ، وموضع الملام ، ويعيَّر بالجهل ، وبالبلاهة ، وقد وقف العالم الإسلاميُّ كلُّه مسحوراً مبهوراً أمام هٰذا الرأي ، وبدأ الناس يقولون : أنَّىٰ للمسلمين أن يكونوا رائدي العلم ، والثَّقافة ، وعاملين في سبيل إنعاشه ، وتصعيده ، فقد بلغوا من محاربتهم للعلم : أنَّهم قد أحرقوا مكتبة الإسكندرية بأمر خليفتهم عمر بن الخطاب ؛ لأنَّهم رأوا : أنَّ هٰذه المكتبة لم يكنْ ما فيها من علمٍ ، وفنٍّ مطابقاً للوحي الإلٰهي ، والحديث النبويِّ ، وقالوا : لنا غناءٌ في كتاب ٱلله ، وسنَّة رسول ٱلله ، فلا حاجة إلىٰ غيرهما ، وأمَّا إذا

كان معارضاً لهما ؛ فليكن رماداً تذروه الرِّياح في مكانٍ سحيقٍ . . .

وكان ذٰلك نقعٌ قد أثاره الكتَّاب ، والمؤلِّفون المسيحيُّون في أوربا شفاءً لبعض ما في صدورهم من البغضاء البغيضة للإسلام . . . وكان العلاَّمة المؤرِّخ شبلي النُّعمانيُّ أوَّل من قام في شبه القارة الهندية لتفنيد هٰذا الزَّعم الباطل ، فعرَّاه ، وفضحه في قارعة الطريق ، وأثبت بدلائل علميَّة لامعةً ، أنَّ مكتبة الإسكندرية قد سبق إحراقُها خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي ٱلله عنه ـ ودخول المسلمين إلىٰ مصر ، وجلَّىٰ للعالم : أنَّ هٰذا الفعل الشَّنيع قد قام به المسيحيُّون المتعصِّبون . . . وكذٰلك كانت هناك آراء ، وأفكار خاطئةٌ ، روَّجها أعداء الإسلام عن طريق التَّاريخ ؛ لكي ينالوا من الإسلام ، وأهله ، فلم يرجعوا بطائل ، وقد جعل ٱلله كيدهم في نحورهم ، فمثلاً : قالوا : إنَّ الجزية في الإسلام تقوم علىٰ أساسٍ ظالم ، وقد كشف العلاَّمة النُّعمانيُّ اللِّثام عن الحقيقة في هٰذا الصدد في رسالة مستقلَّةٍ أسماها : « الجزية وحقوق الذِّمِّيين » .

العلم لا يتوقَّف ركبُه علىٰ مرحلة :

حينما توجَّهت الضَّربات علىٰ الإسلام عن طريق

السِّياسة ، والاقتصاد ، وما إليهما ؛ برز في الميدان الأساتذة الكبار ، والعلماء الأجلاَّء في شبه القارة الهنديَّة ، وحاسبوا هٰذه الفلسفات الخرافيَّة محاسبةً علميَّةً ، ووقفوا قدرتهم الكتابيَّة علىٰ هٰذا الجهاد المشرِّف لٰكن العلم ـ أيُّها السَّادة ـ لا يتوقَّف علىٰ منزلٍ ، إنَّه يتَّصف باستمراريَّةٍ ، ورقيٍّ دائمٍ ، وتطوُّر قائمٍ ، لا يعرف الكَلالَ ، ولا السآمة ، فلا يمكن لأحدٍ أن يقول : إنَّه وصل إلىٰ النقطة الأخيرة ، أو المرحلة النِّهائية ؛ لأنَّ ذٰلك يعني الجهل بمكانة العلم ، ومركزه السَّامي .

فمن واجبكم اليوم أن تبطلوا النَّظريات الخاطئة الَّتي تهاجم الإسلام عن طريق علم الزِّراعة ، والَّتي تتصادم مع القرآن الكريم ، وتعاليمه ، وأن تقرِّروا حقيَّة أمورٍ كثيرةٍ كشف القرآن الكريم عنها لأوَّل مرَّة ، ولا أعلم أحداً سبق القرآن في الإشارة إلىٰ تلك الحقائق ، مثلاً يقرِّر القرآن زوجيَّة كلِّ شيءٍ ـ وقد دخل في « شيءٍ » ـ النكرة طبعاً ـ الزِّراعةُ ، والنَّباتات ، والأشجار ـ إذاً فمن وظيفة أمثالكم أن تؤكِّدوا صدق هٰذه الحقيقة القرآنية ، وتبرزوا من خلال ذٰلك إعجاز القرآن ، وبالتَّالي إعجاز النبيِّ الأمِّيِّ العربيِّ ﷺ ، وهناك حقيقةٌ عجيبةٌ جلاَّها القرآن الكريم في سورة الرَّعد تجدر بالدِّراسة المستقلَّة ، يقول ٱلله تبارك وتعالىٰ :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ

جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد : ٣ ـ ٤] .

وأرجو : أنَّ جامعتكم الموقَّرة هـٰذه ستقوم بهـٰذه الدِّراسة خير قيامٍ ، وتقدِّم نتائجها إلىٰ دنيا النَّاس .

يا ليته تمَّ هـٰذا العمل المشرِّف الجليل في الدُّول الإسلاميَّة :

إنَّ نظرية داروين (Darwin) للنشوء والارتقاء قد تركت ـ كما تعلمون ـ هزَّةً عنيفةً لا في الأوساط العلميَّة بل في الأوساط الدِّينيَّة أيضاً ، قد كانت لهـٰذه النَّظرية صولةٌ ، وجولةٌ في أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ؛ حتىٰ كان الناس يرون : أنَّ التَّجرُّؤ علىٰ المحاسبة العلميَّة لهـٰذه النَّظرية يعني : الجهل ، وقلَّة العقل ، فخضع لها أناسٌ كثيرون في الشَّرق ، والغرب ، وعاد كثيرٌ من الناس يرون : أنَّه ليس هناك أيُّ تصادمٍ بين ما يراه القرآن ، وبين هـٰذه النَّظريَّة ، وبدؤوا يطبِّقون بينهما علىٰ أساس كون نظرية النُّشوء ، والارتقاء ، وتنازع الأصلح للبقاء هي الأصل ، فأوَّلوا الآيات القرآنيَّة تأويلاً بارداً ، وحمَّلوها من المعاني والمفاهيم ما لا تحتمل . . . غير أنَّها أخيراً انهارت ، ولم يبق لها من

السُّلطان ما كان في نهاية القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين بفضل الدِّراسات العلميَّة الَّتي تمَّت في أوربا ، ويا ليتها قد قامت بها البلاد ، والأقطار الإسلاميَّة ! يا ليتها قد قامت بها مصر ، والعراق ، والشام ، والهند ! ولٰكنه مع الأسف : أنَّ الأفاضل العرب إنَّما كان موضع اهتمامهم التَّاريخ ، أو الأدب فقط ، وما بذلوا عنايتهم علىٰ العلوم التَّجريبيَّة من العلم (Sciences) والكيمياء (Chemistry) والفيزياء (Physics) إلا قليلاً جداً ، ومن ثمَّ فلم ينبغ عبر البلاد الإسلاميَّة رجلٌ يبتكر نظريَّةً علميَّةً ، أو تسلِّم له الأوساط العلميَّة بالسَّبق ، والفضل في أيِّ مجال ، أو يكون محطَّ أنظار ، وموضع إعجابٍ في المحافل الدَّوليَّة ، والمجالس العلميَّة العالميَّة .

أحرزوا جائزة نوبل :

أيُّها الشباب ! إخوتي الطلبة الأعزاء ! اجتهدوا أنتم في مجال علم الزِّراعة (Agriculture) وأحرزوا فيه قصب السَّبق ؛ حتىٰ تستطيعوا أن تبتكروا نظريةً جديدةً ذات قيمةٍ تستأهلكم لجائزة نوبل (Nobel Prize) . . . . أنتم لا تستطيعون أن تقدِّروا مدىٰ السُّرور الذَّي سيغمر الشباب الإسلاميَّ ، ومدىٰ التَّشجيع ، وهزة الافتخار الَّتي يشعرون بها إذا ما يتسامعون بمسلم ينال جائزة نوبل مقابل عملٍ علميٍّ تحقيقيٍّ ، يا سادة !

إنِّي ـ علىٰ الرَّغم من أنَّني أنتمي إلىٰ طبقة علماء الدِّين ـ أترقب ذٰلك اليوم السَّعيد الذِّي يستحقُّ فيه أحدٌ من أبناء الدُّول الإسلاميَّة جائزة نوبل في داخلها علىٰ عملٍ عملاقٍ قام به في مجال الزِّراعة ؛ لأنَّ ذٰلك شيءٌ سيبعث الأمل ، والطموح في الشَّباب المسلمين ، وهـٰذا ما لا يلام عليه أحدٌ ، إنَّه لا يتَّصل بالسِّياسة ، ولا يتعلَّق بما يحطُّ من شأن أمَّةٍ ، أو دينٍ ، ولا تعارضه حكومةٌ ، ولا تعترض عليه دولةٌ . . . إنِّي أَلِفْتُ أنظار الفتية المسلمين في كلِّ أنحاء الأرض ـ ولا سيَّما في البلاد ، والأقطار الإسلاميَّة ـ إلىٰ ذٰلك ، وأستقطب اهتمامهم إلىٰ أن يقوموا بعملٍ عظيمٍ ذي أصالةٍ (Originality) وثورةٍ تسترعي انتباه العالم ، وتجعله يؤخذ به ، ويعترف بأنَّ في المسلمين من يتمتَّع بالمؤهِّلات العقليَّة ، وقدرة الابتكار ، والإنتاج ، والعبقريَّة (Genius) والذَّكاء العجيب . . .

الأرض الخصبة في قلوب الأمَّة الإسلاميَّة :

أنتم أفلاذ أكباد المسلمين ، والبراعم النَّاعمة الَّتي لم تتفتَّح بعد ، تقومون بدراسة هـٰذه الأرض ، ومدىٰ صلاحيَّتها للإنبات ، والإنتاج ، والإغلال ، ونوعيَّة جدارتها ، وتجانسها لنوعٍ من الحبوب والزُّروع ، وكيف يمكن تضعيف الحاصلات ، وتنمية قوَّة الإنبات ، وما إلىٰ ذٰلك ، أريد أن ألفت أنظاركم إلىٰ أرضٍ غير هـٰذه الأرض ، قلَّما حظيت من

البلاد الإسلاميَّة باهتمامٍ ، وعنايةٍ ، ألا وهي أرض قلوب أمَّتنا الإسلاميَّة ، إنَّها ذات ثرواتٍ زاخرةٍ ، وخزائن ثرَّةٍ ، وقوىً ، وطاقاتٍ مكنونةٍ لا يعلم مداها إلا ٱلله ، ومن الواجب أن نعرف قدرها ، ونبرزها ، ونستخدمها ، ونهيِّئ لها فرصة العمل ، والتأثير . . . إنَّ زعماءنا السِّياسيِّين ، وقادتنا القوميِّين ما أعاروها عنايةً منهم ، ولم يدركوا بعد مدىٰ عاطفة الحبِّ ، والحنان ، وقوَّة الدِّين ، والإيمان ، وروح التَّضحية ، والفداء ، والإيثار ، والوفاء ، والإخلاص ، والولاء ، والحماس ، والسَّذاجة ، والتقشُّف ، والجلادة ، الَّتي تمتاز بها هٰذه الأمَّة الَّتي يقودونها .

يا سادة ! أفلا تستحقُّ هٰذه الأرض القلبيَّة القيِّمة أن تقام لها جماعاتٌ تقوم بدراستها ، والبحث عن مضمراتها ، ومكنوناتها ، وأبعادها ، وأعماقها ، وما تخفيه من خزائن لا تنتهي ، وأن تكشف وسائل إيقاظها ، وإنمائها ، وحرثها وحرسها ؟ ! تأكَّدوا : أنَّه لو تمَّ هٰذا العمل ؛ لأتىٰ بانقلابٍ عظيمٍ في العالم ، يندهش أمامه كلُّ من هو فوق البسيطة .

إنَّكم لا تستطيعون أن تقوموا بهٰذا الانقلاب العظيم في الأخلاق ، والسُّلوك ، ووضعية العالم ، وأن تنفعوا العالم نفعاً حقيقيّاً عن طريق أيِّ عملٍ بمثل ما تستطيعون بهٰذه العمليَّة ، وإنِّي بهٰذه المناسبة أبث شكواي ـ من خلال إنشاد بيت من

بيوت إقبال - لا إلىٰ إيران وحدها ، بل إلىٰ شبه القارَّة الهنديَّة هٰذه ، وإلىٰ العالم الإسلاميِّ كلِّه .

« لم ينهض روميٌّ [١] آخر من ربوع العجم ، مع أنَّ أرض إيران لا تزال علىٰ طبيعتها ، ولا تزال « تبريز » [٢] كما كانت » .

وأسلِّي قلبي ، وأعزِّي نفسي ، وأبشِّركم ، وأرجِّيكم بقوله :

« ألا إنَّ إقبال ليس قانطاً من تربته ، فإذا سقيت بالدُّموع ؛ أنبتت نباتاً حسناً ، وأتت بحاصلٍ كبير » .

الأرض المخصبة المنتجة للزُّروع ، والمنجبة للرِّجال :

يا سادة ! قد متَّعكم ٱلله بباكستان ، تلك الَّتي أراضيها مخصبةٌ ، وأبناؤها ذوو أهليَّاتٍ منجبةٍ ، وعقولٍ مبتكرةٍ ، وقلوبٍ عامرةٍ زاخرةٍ ثرَّةٍ .

وتلك هي حال جميع أراضي البلاد الآسيوية الَّتي توافد

---

(١) إشارة إلىٰ مولانا محمد جلال الدين الرومي (٦٠٤ - ٦٧٢ هـ) .

(٢) مدينة في إيران ، نهض منها شمس الدين التبريزي شيخ الرُّومي في التَّزكية ، والتَّربية الرُّوحية .

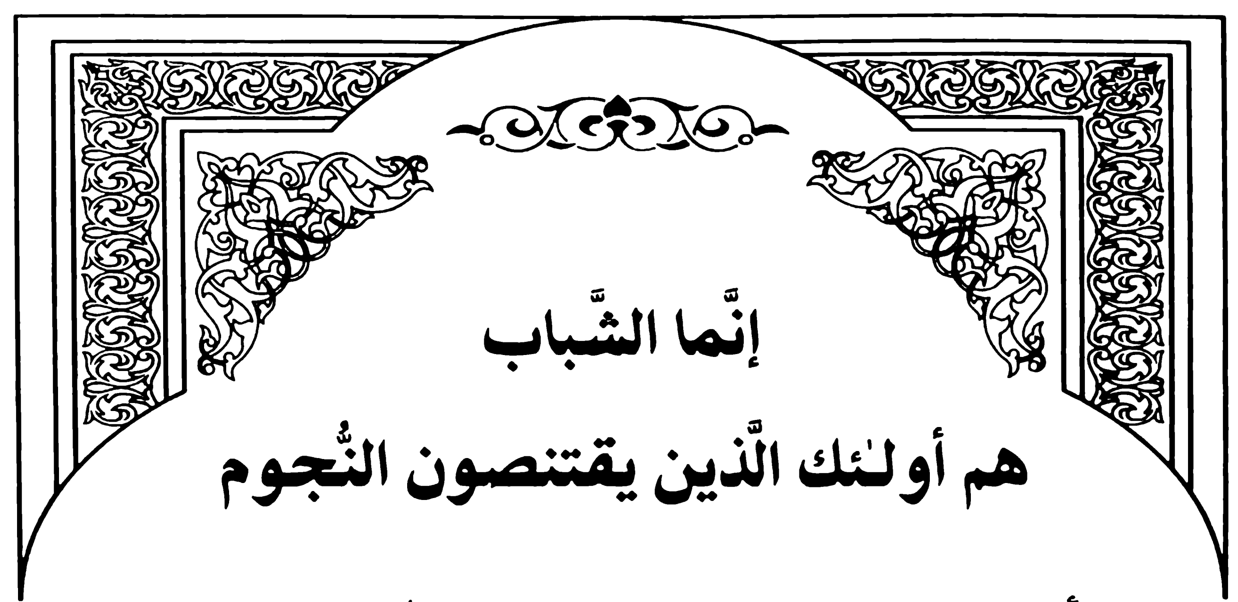
منها هـٰؤلاء النُّجباء من الإخوة التلاميذ ، إنَّها حال العراق الَّتي تقع في وادي دجلة ، والفرات ، وحال السُّودان الَّتي هي منبع النِّيل ، وأنتم تعرفون مدىٰ خصبها وقوَّتها للإغلال ، ولـٰكنَّكم أسفاً لا تعرفون تهيُّؤها لإنجاب الرِّجال ، ومن هنا توجَّهت العناية إلىٰ الاستغلال ، واستنتاج الحاصلات ، والأموال ، ولـٰكنَّها ما توجَّهت إلىٰ استنجاب العباقرة ، والرِّجال ، والعظماء ، والأبطال .

أنتم اليوم تلاميذ في هـٰذه الجامعة ، جامعة الزِّراعة في فيصل آباد ، وربما تكونون غداً وزراء زراعة في بلادكم ، إنَّ العهد عهد الدِّيمقراطيَّة ، وعهد الثَّورة ، والانقلاب ، فمن الممكن جداً أن يكون بعضكم وزير زراعةٍ ، أو قائداً سياسيَّاً ، أو زعيماً لحزبٍ من الأحزاب ، أو رئيس جمهوريةٍ ، فأريد أن أحمِّلكم رسالةً ، وهي ألَّا تفوتنَّكم العناية باستنجاب الرِّجال بجانب استغلال الأراضي . . . الفتوا أنظار المواطنين في بلادكم : أنَّ المواهب الغنيَّة التي حباها ٱلله الأمَّة الإسلاميَّة ، حُرِمَتْها الأممُ الأوربيَّة ، والأمريكيَّة كلَّها ، إنَّها لا تتمتع بعشر معشار الإخلاص والسَّذاجة ، والإيثار الذي يتميَّز به المسلمون في كلِّ مكان ، وليس عليكم أيُّها القادة ، والسَّادة ! إلا أن تستغلوا هـٰذا الإخلاص ، وهيِّئوا المناخ لنموِّ روح الإخلاص الذي يلتقي به المسلم مع المسلم ، وعاطفة الحبِّ ،

والحنان ، والإيمان بالحديث ، والقرآن ، الَّتي تحرك ساكن قلوبهم أكثر من أيِّ شيءٍ آخر في الحياة ، إذا فعلتم ذٰلك ؛ فسيكون بلدكم بلد العباقرة ، والأبطال ، وبلد الثَّورة ، والانقلاب ، وبلد الرَّبيع ، والأزهار ، ويندهش أمام خصبه العالم كلُّه .

وبهٰذه الكلمة أُنهي حديثي شاكراً لمن وجَّهوا إليَّ الدَّعوة للحضور والزيارة لإلقاء الكلمة في هٰذه الجامعة ، متمنِّياً من ٱلله للجامعة كلَّ رقيٍّ ، وازدهارٍ ، وعزٍّ ، وافتخارٍ ، وشرفٍ ، واعتبارٍ ، لا بالنسبة إلىٰ باكستان فقط ، ولٰكن بالنسبة إلىٰ العالم الإسلاميِّ كلِّه .

✍ ✍ ✍



إنَّما الشَّباب
هم أولـٰئك الَّذين يقتنصون النُّجوم

(ألقيت هـٰذه المحاضرة في ٢٥ / يوليو (١٩٧٨م) بجامعة بنجاب بمدينة لاهور ، وكان هـٰذا المخيَّم مخيَّم جمعية الطلبة الإسلاميَّة التَّربويِّ قد ضمَّ خيرة الطلاب في مختلف الكلِّيات المنبثَّة في ولاية بنجاب ، والمسؤولين عن المخيَّم) .

بعد أن حمد الله تعالىٰ وصلىٰ علىٰ رسوله قال :

إخوتي الأعزَّاء ! قد شعرت بوجودي بينكم ، وحضوري في مجلسكم هـٰذا بسرورٍ ، لا يشعر به إلا العامل في مجال الدَّعوة الإسلاميَّة ، أو المدرِّس ، والأستاذ في مدرسة إسلاميَّة ، الَّذي استهلك مهجه في بناء الشباب الإسلاميِّ وعلىٰ تربية البراعم في حديقة الإسلام ، ويتمنَّىٰ أن لو أتيح له أن يقرَّ عينيه برؤية شباب وصفه الدُّكتور محمَّد إقبال في بيته البليغ :

« إنِّي إنَّما أحبُّ الشَّباب الَّذين يقتنصون النُّجوم ، والكواكب » .

وإنِّما طبت نفساً بهـٰؤلاء الشَّباب الكرام ؛ لأنَّي أرىٰ فيهم خيراً كبيراً ، أرىٰ : أنَّهم سوف يقفون حياتهم لخدمة الإسلام ، ولإعلاء كلمة ٱلله ، ويلتزمون الصِّراط المستقيم .

الصِّراط المستقيم في دقَّته وحدَّته كالصِّراط الذي يواجهه الجنُّ والبشر يوم القيامة :

الصِّراط المستقيم ـ أيُّها السَّادة ـ قد يتحوَّل إلىٰ « الصِّراط » الَّذي هو أحدُّ من السَّيف ، وأدقُّ من الشَّعرة ، فالحمد لله الَّذي اختارنا لهـٰذا العمل العظيم ، وأراد أن يكرمنا بنعمه ، وأن يشملنا بآلائه عن طريق هـٰذا « الصِّراط » . . . وقد جاء في الحديث الشَّريف : أنَّه ـ حينما يكرم العبد المؤمن بالجزاء الأوفىٰ ، والثَّواب المستوفىٰ من ربِّه الكريم الرَّحيم علىٰ ما لاقاه من الشَّدائد في سبيله في الدُّنيا ـ يتمنَّىٰ كلُّ من يشهد هـٰذا المشهد أن لو وفِّق إلىٰ مُعَاناة أمثال هـٰذه المشاقِّ ، وقطعت جلودهم بالمقاريض ، ونشرت رؤسهم بالمناشير . . . فلنحمد ٱلله ـ عز وجل ـ علىٰ أنَّه جعلنا موضع اهتمامه ، وانتقانا من بين عباده ، لكي يغطِّينا بجميل كرمه .

وقد جرَّبتم ـ يا إخوتي التَّلاميذ ـ : أنه إذا كان هناك طالبٌ مجدٌّ ، وصل اللَّيل بالنَّهار ، وعاش في مراجعة المواد الدِّراسيَّة واستظهارها ، واستوفىٰ ظمأ اجتهاده في الدِّراسة ،

ثمَّ حضر قاعة الامتحان ، ففاجأته أسئلة سهلةٌ لا تحتاج الإجابة عليها إلىٰ اجتهادٍ ، وإجهادٍ ، فيقلِّب كفَّيه ، ويتحسَّر علىٰ سوء حظِّه ؛ لأنه يرىٰ في ذٰلك ضياعاً لجهده ، واستهانةً بقيمة سهره ليل نهار ، ويتمنَّىٰ أن لو علم بحيلةٍ من ذي قبل : أنَّ الأسئلة ستكون بهٰذه المكانة من السُّهولة . وأمَّا إذا استقبلته أسئلةٌ صعبةٌ تتطلَّب أعمال الجهد ، والفكر ، والإمعان ، والتقليب ؛ فيرىٰ كأنَّه استوفىٰ قيمة جهده .

إنَّ التسهيلات تسبب العقبات في طريق الحياة :

ومن فتور الهمَّة أن نشكو صعوبة الحياة ، وأن نقول : نحن نعيش في عصرٍ متأزِّمٍ ، ونسير في طريقٍ مفروشٍ بالأشواك ، ومن بُعْدِ الهمة ، والطُّموح أن يشكو الإنسان السُّهولة ، ويظنُّ في نفسه كأنَّه حطَّ من شأنه ، وغضَّ من مكانه ، ولم ير أهلاً لمواجهة الشدائد ، ومنازعة العقبات ومصارعة الجنادل والصُّخور . . . ولو حفلت الحياة بالسُّهولة ؛ لغابت لذتها ، وفقد رواؤها ، ولقد صدق الشَّاعر الأرديُّ ؛ الذي قال :

« إنِّي أمضي في طريق حياتي أهزؤ بالشَّدائد المتموِّجة والمشاقِّ المتلاطمة ، ولو كانت الحياة كلُّها سهولةً ؛ لكانت كلاًّ ، وعبئاً ثقيلاً لا يطاق » .

ربُّكم يخاطبكم :

يا سادة ! إنِّي سأتلو عليكم آيةً من سورة الكهف وثبت إلىٰ لساني عفواً : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : ١٣] و« الفتية » جمع : فتىً ، وهو الشَّبابُ الحدث النَّاهض . يقول ٱلله تبارك وتعالىٰ : إن هٰؤلاء الشَّباب الطَّيبين الطاهرين أحكموا إيمانهم بٱلله ، وأوثقوا رباطهم مع ربِّهم ، فلمَّا أتمُّوا هٰذه المرحلة الأولىٰ من عند أنفسهم ، زدناهم نحن هدىً ، وقوَّينا قلوبهم ، وربطنا عليها .

إنَّ الآية الكريمة تحدِّد مسؤوليتنا نحن ، وتشير إشاراتٍ كبيرةً إلىٰ أنَّه إذا ما قمنا بما يجب علينا إلىٰ حدٍّ مستطاعٍ فهنالك يأتي نصر ٱلله ، وتستقبلنا رحمته . . . وهٰذا المعنىٰ تؤكِّده كثيرٌ من الآيات القرآنيَّة ، والأحاديث النَّبويَّة الشَّريفة : ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ ، ﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ ، ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ . وقد شكوا إلىٰ النَّبيِّ ﷺ قلَّة الماء ، وكان له ﷺ أن يتضرَّع إلىٰ ٱلله ، ويستمطره رأساً ، لٰكنَّه لم يصنع ذٰلك ، بل دعا بالبقيَّة الباقية من الماء ، فوضع فيه أصبعه ، فإذا به يفور فوراناً . وقد شكي إليه قلَّة الغذاء ، فاستدعىٰ بما بقي من ثمالة الطعام ، وتجمَّع لديه شيءٌ من التَّمر اليابس ، وَكِسَرُ الخبز

البائتة ، وشيءٌ من الشَّعير ، وما إليه من الطعام ، فدعا ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ وتمسَّح به بيده المباركة ، فزاد زيادة ملموسةً ، حتىٰ كفىٰ الجيش كلَّه ، وقد كان له أن يدعو ٱلله تبارك وتعالىٰ كسيدنا عيسىٰ عليه السلام : ﴿رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لٰكنَّه ﷺ إنما لم يصنع ذٰلك ؛ لأنَّ أمَّته كانت مكلفة بإعمال مواهبها الذَّاتية ، وقوَّتها الإراديَّة ، وعزيمتها الشَّخصية ، قد كتب عليها ٱلله أن تمرَّ بمراحل الحياة المتنوِّعة ، وأن تواجه من وضعيَّة الدَّعوة والزَّمان ما لم تواجهه أمةٌ قبلها ، فلم يمكنها أن تجلس ضائعةً عاطلةً ، وألَّا تحرِّك يديها ، ولا تمشي برجلها ، ولا تفكِّر بعقلها ، ولا تستخدم ساعدها ، ولا تحكَّ جلدها بظفرها .

ومن ثمَّ ألقىٰ عليها هٰذا الدَّرس الحكيم ، وقيل لها : تقدَّمي بما عندك ، نَزِدْهُ من عندنا ، وقد تجلَّت هٰذه الحكمة الدَّقيقة العميقة في بعض ما ظهر علىٰ يديه ﷺ من المعجزات ، فواجه بثلاثمئةٍ وثلاثة عشر نفراً (وهم عزَّلٌ عن الوسائل المادِّيَّة) جحافل الكفار في ميدان بدر ، وقد كان له غناء في أن يردَّ الكفار بقوَّته المعنويَّة ، ويهزمهم بدعائه المستجاب ، وأن يقذف عليهم الحصىٰ المقروء عليها ، وأن ينفثهم بالآيات القرآنيَّة ، لٰكنَّه لم يجرِّب هٰذه الوسائل ، بل قطع مسافةً شاسعةً ، مسافة (٧٠ ـ ٨٠ ميلاً) ، ونزل ببدرٍ ، وصَفَّ جيشه

كعادة القواد في الحرب في عصره . . . فَلْنَعِ هـٰذا الدَّرس ، ولنكن علىٰ ذكرٍ منه دائماً .

كانت القضيَّة قضيَّة الرُّبوبيَّة :

كانت الحكومة قد أحكمت قبضتها علىٰ موادِّ التَّموين ، وعلىٰ كلِّ وسائل الحياة والاقتصاد ، فما كان أحدٌ من الشَّعب يفوز منها بشيءٍ إلاَّ الذي كانت تتكرَّم عليه الحكومة بعطفها ، وهي التي كانت توزِّع الوظائف كما تشاء ، وتوزع الثروة كما تشاء ، وتتصرَّف في وسائل الحياة كما تشاء ، كأنها صارت « ربّاً صناعيّاً » . . . فيقول ٱلله تبارك وتعالىٰ كان هناك فتيةٌ طموحون قد نهضوا وأعلنوا كفرهم بربوبيتها ، وأفردوا ٱلله بالرُّبوبيَّة ، وأخلصوا له العبوديَّة ، وقالوا بملء أفهواههم في نشوةٍ ، واعتزازٍ : لن نخضع إلا لله الواحد القهَّار ؛ لأنَّه هو الذي يربِّينا ، ويرزقنا ، وهو الذي يهيئ لنا وسائل الحياة ، وطريق المعاش ، وهو الذي يعزُّ ، ويذلُّ ، فينصر من يشاء ، ويخذل من يشاء ، ويعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء .

فلما عبروا هـٰذه المرحلة في كلِّ توفيقٍ ونجاحٍ ، زادهم ٱلله هدىً . . . وقد دلَّت الآية : أنَّ الهداية مصدرها واحدٌ ، وهو ٱلله الأحد الصمد ، ولا يمكن أحداً أن يكسب الهداية بذكائه ، أو قوَّته الفكريَّة ، والعقليَّة ، أو عن دراسته ،

وكتاباته ، أو عن طريق خوضه في المكتبات ، وسيل المعلومات ، فقد نسب ٱلله تعالىٰ الهداية إلىٰ نفسه ، واختار صيغة المجموع في الخطاب كالعظماء والسَّلاطين . . . علىٰ كلٍّ فإن هـٰؤلاء الفتية الموفقين السُّعداء الصَّالحين قد بلغوا إلىٰ هـٰذه الذِّروة السَّامقة بلفتةٍ حانيةٍ من ربِّهم الكريم ، وما استحقُّوها إلا بعد ما أسلموا وجوههم له ، وانقطعوا إليه ، وكفروا بكلِّ الأرباب ، وضربوا معبودية كلِّ الآلهة الكاذبة عرض الحائط ، واجتهدوا في معرفة ٱلله وحده ، وتعمَّقوا في معرفة صفاته السَّامية ، وأسمائه الحسنىٰ ، وأعملوا في ذٰلك جهدهم ، وفكرهم . . .

طموح الشَّباب وفعاليتهم :

وقد حدث ذٰلك عندما نزحت النَّصرانيَّة لأوَّل مرَّةٍ من سيناء مركزها الأصيل إلىٰ روما ، الَّتي كانت تحكمها حكومةٌ وثنيَّةٌ متزمِّتةٌ ، لما وصل إليها هـٰؤلاء الفتية الدُّعاة بدأ الشَّباب يتأثَّرون بدعوتهم . ويدلُّنا التَّاريخ علىٰ أنَّ الشَّباب في كثيرٍ من الأحيان كانوا هم السَّابقين الأوَّلين في الإساغة لدعوةٍ ، والتَّأثر بفكرةٍ ؛ لأنَّ الشُّيوخ ، والكهول ربَّما يكونون مثقلين بأعباءٍ ، وأحمالٍ ، وقيودٍ ، وأغلالٍ ، أغلال التقاليد ، والأعراف ، وأغلال العلاقات ، والصِّلات بالبِّلاد ، والشَّعب ، وأغلال القيم العائليَّة ، فكلُّ ذٰلك يقف حجر عثرة في طريقهم إلىٰ منزلٍ

آخر ، وعبورهم إلىٰ شاطىء الصَّواب ، وذٰلك مثل من يكون مشدوداً بالأحجار ، أو يحمل الأمتعة ، والعروض لا يمكنه أن يسبح في الماء ، أو يعبر إلىٰ الشَّطِّ في السُّهولة الَّتي يعبر بها الرَّجل الأعزل الخفيف .

أمَّا الشَّباب ، فلا تمنعهم جنادلُ ، وصخورٌ تعترض طريقهم من التَّوصُّل إلىٰ المنزل بفضل فتوَّتهم وطموحهم ، وحماسهم الثائر ، ودمهم الفائر ، وهمَّتهم الوثابة ، وروح « اللاإكتراث » التي هي من أخصِّ خصائص الشَّباب ، فما أن يقرع آذانهم صوت الحقِّ إلا ويقولون : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ . . . فكذٰلك كان أولـٰئك الفتية المؤمنون ، ما كانت في أرجلهم قيود التقاليد ، والأعراف ، والصِّلات والوشائج ؛ التي قد تثقل أرجل الطاعنين في السنِّ ، فهرعوا إلىٰ صوت الحقِّ ، ولبُّوا نداء الصِّدق . . . .

طريقٌ مفروشٌ بالأزهار ، وطريقٌ مفروشٌ بالأشواك :

ثم جاء دور المحنة ، والبلاء ، والتَّمحيص الذي يأتي طبعاً في طريق الدَّعوة ، فيواجه الدَّاعي موقفين ، مؤدَّاهما واحدٌ ، أو طريقين ، كلاهما ينصبُّ في نهرٍ واحدٍ : طريقٍ

مفروشٍ بالأشواك ، بل بالجذوات المتَّقدة والنَّار المحرقة ، وطريق الإغراء بالجوائز ، والصِّلات ، والمناصب ، والجاه ، والتَّسهيلات ، والامتيازات ، وكلاهما طريقان شاقَّان ، وعران ، تعترضهما وهداتُ الهلاك ، وهوىٰ الدَّمار ، والبوار .

ويقول المحنَّكون : إنَّ الطَّريق المفروش بالأزهار أشدُّ وعورةً من الطَّريق المفروش بالأشواك ، فقد يفعل التَّرغيب ما لا يفعله التَّرهيب ، وقد أكَّد هٰذه الحقيقة الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد صمد أمام كلِّ التَّهديدات ، والتَّرهيبات ، بل أنواع التَّعذيب التي قام بها المعتصم بٱلله فيما يتعلَّق بقضية كون القرآن مخلوقاً ، أو غير مخلوق ؛ حتىٰ ضرب بالسِّياط ، وانخلعت كتفه ، تلك السِّياط الَّتي لو صبَّت علىٰ الفيلة ؛ لانهارت أمامها . ولمَّا مات المعتصم ، وخلفه أخوه المتوكِّل ، وطلب الإمام إلىٰ مقرِّه ، وبلاطه ـ وكان الإمام قد حمل معه الزَّاد ليسدَّ به رمقه ، وما كان يلوِّث يده بالطَّعام الرَّسمي ـ وجعل المتوكِّل يبعث إليه الصُّرَّة من الدنانير ، فقال الإمام : إنَّها أشدُّ بلاءً من سياط المعتصم بٱلله . . .

والواقع : أنَّ الحكومات تستخدم الوسيلتين حسب الضَّرورة ، والأوضاع ، فقد تعمل وسائل التَّهديد ، والتَّعذيب ، وقد تستعمل وسائل الإغراء ، والتَّرغيب ، وقد

تكون الثانية أشدَّ من الأولىٰ ، ويكون الصُّمود أمامها أدقَّ ، وأحرج ؛ لأنَّ الإنسان إذا تماسك بنفسه ، وتجالد ؛ فقد يخضع أمام إلحاح الأبوين اللَّذين قد يكون لهما اتِّصال قويٌّ بالبلاط ، وبرجال الحكومة ، أو يشغلان مناصب حكوميَّةٍ ، إذاً فتضغط عليهما الحكومة أن يقنعا فلذة كبدهما بفكرة الحكومة ، وتفتنهما بوسائل الإغراء الكثيرة ، من المستقبل الزَّاهر ، والمنصب الكبير ، والجاه العريض ، والمال الكثير ، وبأنَّه من يخلفهما في شأنهما ، ومكانهما ، إذا تنكَّر لهما ولده الوحيد الحبيب ؟

ولٰكن حينما تخفق هٰذه الوسائل كلُّها ، وتنهار أمام صمود المؤمن المخلص ؛ تلتجئ الحكومة إلىٰ التَّهديد ، وإلىٰ التَّعذيب ، والتَّشديد ، والضَّرب بالنار ، والحديد ، وهنالك يحتاج إلىٰ نصر ٱلله يقوم بجانبه ، ويقوِّي عضده ، ويمسك بيده .

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ :

وهنالك ربط ٱلله علىٰ قلوبهم الخفَّاقة ، ونفوسهم المضطربة القلقة ، وألهمهم الثَّبات ، والصُّمود ، وأخرج من قلوبهم الجبن ، والحزن ، والخوف ، والحيرة ،

والاضطراب ، وملأها شجاعةً ، وسكينةً ، وقوَّةً ، ويقيناً . ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وليس المراد من القيام ، هو القيام المقابل للجلوس ، ولٰكن المراد هو انبعاث العزم في قلوبهم ، الَّذي بعثهم علىٰ التَّمرُّد علىٰ البيئة الفاسدة ، الدَّنسة المتعفِّنة ؛ التي اتَّخذت أرباباً ، وآلهةً كثيرةً من دون ٱلله ، فأعلنوا كفرهم بكلِّ الآلهة المصطنعة ، وقالوا : ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ ، وقالوا : إنَّ هٰؤلاء أعضاء مجتمعنا ، وأبناء قومنا ، وبنو جلدتنا الَّذين يَبْدُون جادِّين وقورين ، مجرِّبين محنَّكين ، أذكياء عاقلين ، ما لهم قد اتخذوا من دون ٱلله الواحد الأحد الصَّمد آلهةً شتَّىٰ ، ولا يملكون علىٰ ألوهيتها دليلاً واضحاً يستندون إليه ، وبرهاناً ساطعاً يعتمدون عليه ، إذاً فهم يفترون علىٰ ٱلله ، وليس أحدٌ أظلم ممَّن إفترىٰ علىٰ ٱلله كذبا . . . ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ .

إخوتي الأعزاء ! إنَّ هٰذه الآيات الكريمات من سورة الكهف تُبَيِّنُ لنا بالتأكيد أن نحكِّم أولاً الإيمان بٱلله علىٰ بصيرة ، وعن معرفة بصفاته ، وفي صورة اقتناع العقل ، والقلب معاً .

والأمر الثاني الذي يجب أن نضعه في الاعتبار هو أن نظلَّ

علىٰ اتِّصالٍ دائمٍ بمنبع الهداية والإرشاد ، وأن نشعل جمرتنا الإيمـانيَّـة ، ونلهـب غيـرتنـا الإسـلاميَّـة ، وأن نتلقَّـىٰ شحنـةً جديدةً ، ودفعةً جديدةً عن طريق دراسة الكتاب ، والسُّنَّة ، وأسـوة الـرَّسـول عليـه الصَّـلاة والسَّـلام ، وأصحـابـه البـررة الكرام ، وأتباعهم العظام ، والمجاهدين المخلصين في سبيل الإسلام ، وأن نجدِّد إيماننا بكلِّ ذٰلك ، ونشحن قلوبنا بحرارةٍ إيمانيَّة جديدةٍ كما تشحن البطَّاريَّة عند الفراغ .

إنَّنا نعيش في هـٰذا العالم المَّاديِّ ، وقد تتلمذ علىٰ أساتذةٍ لم تؤمن قلوبهم بهـٰذه الحقائق الدِّينيَّة الغيبيَّة ، ونواجه علىٰ كلِّ خطوةٍ ما يحيد بالإنسان عن طريق الرحمان إلىٰ طريق الشَّيطـان ، نعيـش فـي مجتمـع تمـوج فيـه أسبـاب الإلهـاء عن ٱلله . . . من التِّلفاز إلىٰ الرَّاديو ، إلىٰ الصُّحف ، والكتب الماجنة إلىٰ السينما ، وإلىٰ الأدب الخليع المتهتك ؛ حتَّىٰ الأدب الذي كان يرجىٰ أن يكون عذرياً بريئاً ، أو « حياديّاً » علىٰ الأقلِّ إنَّه عميلُ (Agent) الفسق ، والفجور ، والخلاعة والمجون ، والإباحيَّة ، والاستهتار ، والمثل الكاذبة ، والقيم البـاطلـة ، والعـواطـف النَّفسـانيَّـة ، والأنـانيَّـة ، والجنس ، والشَّهوانيَّة . إنَّ هـٰذا الشرَّ الذي يموج من حولنا قد جعلنا كأنَّنا في خضمٍّ متدفِّقٍ متموِّجٍ ـ والفضل يرجع في ذٰلك إلىٰ الأوضاع الجاهليَّة التي نعيشها ، والنِّظام التعليميِّ ، والتَّربويِّ الَّذي

فُرِض علينا ـ ثمَّ يقال لنا :

إياك إياك أن تبتل بالماء[1]

وللتفادي من « الابتلال بالماء » نحتاج إلىٰ أن نستزيد الهدىٰ من ٱلله : ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ . إنَّ وهج الجمرة الإيمانيَّة ، وحرارة الحبِّ ، والحنان ، وقوَّة اليقين ، والإيمان ، هو الذي يذيب هٰذه الإغراءات الشَّهوانيَّة المتنوِّعة كما يذيب وهجُ النَّار الشَّمعةَ . إنَّنا لن نستطيع أن نقاومها بنظامٍ جماعيٍّ فارغٍ مجرَّدٍ ، أو بضابطةٍ خلقيَّةٍ ، أصارحكم أيُّها السَّادة ـ في ضوء التَّجارب ـ : أنَّ الإنسان لا يمكنه أن يصمد أمام قوَّة الإغراء ، والفتنة العمياء إلا بقوَّة الإيمان ، والعقيدة ، والقوَّة الَّتي يستمدها من سير الصَّحابة ، والتَّابعين ، والمؤمنين اللاَّحقين .

مقاومة المادِّيَّة المسلحة :

إنَّ هٰذه القوَّة لا تحصل إلا بالصَّلاة ، والدُّعاء ، والالتجاء إلىٰ ٱلله ، والصِّلة القويَّة بٱلله ، وتلاوة القرآن الكريم ، والفزع إلىٰ الرُّكوع ، والسُّجود ، والجلوس إلىٰ

---

(١) هٰذا عجز بيتٍ من الشعر ، وصدره :

ألقاه في اليمِّ مكتوفاً وقال له

عباد ٱلله الصَّالحين الَّذين عضَّدوا صلتهم بربِّهم ، وأصلحوا بالهم ، وأخلصوا أعمالهم .

يا سادة ! إذا حاولنا أن نقاوم هـٰذه المادِّيَّة التي دجَّجتها أوربا ، وأمريكا بأحدث الأسلحة ، الَّتي تزلُّ أمامها أقدام الأبطال المغاوير ، والشُّجعان الأقوياء ؛ فإنَّنا لن نملك أن نقاومها بالأنظمة ، أو نظم الأخلاق ، بل إنِّما نستطيع مقاومتها بقوَّة العقيدة ، والإيمان ، والعلاقة المتينة مع ٱلله ، العلاقة الَّتي تجعلنا إذا سجدنا سجدةً ؛ تضطرب لها الأرض كما يقول الدُّكتور محمَّد إقبال :

« إنَّ السَّجدة الَّتي كانت تهتزُّ لها الأرض ، وترتعش ، وتتطلَّع إليها المساجد ، والمحاريب » .

ولا بأس إذا ارتعشت منها الأرض ، أو لم ترتعش ، ولـٰكن المهمَّ أن ترتعش قلوبنا ، وتهتزَّ ضمائرنا ، إذا فزتم بمثل هـٰذه السَّجدة ؛ فإنَّكم ستستطيعون أن تقاوموا المادِّيَّة ، وتحتاجون لكسب هـٰذه السَّجدة ؛ إلىٰ اتِّباع سيِّد الأنام سيِّدنا ، ومولانا محمد ﷺ وحبِّ ٱلله ، ورسوله ، والتزام السُّنن ، وإعطائها حقَّها من العمل ، والتَّطبيق . . . ومن الذي لا يخطئ ؟ ! ولـٰكنَّ المهمَّ ألَّا يكون منَّا الإصرار علىٰ الخطأ ، وأن نتصيَّد له الدَّلائل ، بل نرىٰ في النَّبيِّ الأعظم ﷺ الأسوة

الكاملة ، ونصبو إلىٰ محاكاته في الأعمال ، والأخلاق ، والسُّلوك ، وإذا ما صدرت منَّا أخطاء ؛ فإنَّ التوبة الصَّادقة كفيلةٌ بمحوها إن شاء ٱلله ! إنَّه لعصرٌ دقيقٌ متأزِّمٌ نعيش فيه نحن ، لو استطعنا فيه أن نتمسَّك بدين ٱلله ، ونتثبَّت بشرائعه ، وأحكامه ، ونتَّبع سنَّة حبيبه وصفيِّه ، وسعينا لإعلاء كلمة ٱلله ، وَلأَنْ تظلَّ راية الإسلام خفاقةً ؛ لنكوننَّ قد استحققنا رحمة ٱلله في الدُّنيا ، والآخرة ، واستوفينا من ٱلله الجزاء الَّذي لا يتصوَّر .

إن الإسلام هو وحده الحريُّ بالإرشاد والقيادة :

وما نراه في الشَّباب من التَّحمُّس ، والانتصار للإسلام ليس من الصُّدفة ، بل هو قضاء ٱلله المحتوم ، وأمره المبرم ، أَلْمِس ذٰلك فيكم الآن وأنا في « لاهور » كما لمسته في الشَّباب أمثالكم في مصر ، والشَّام ، وفي الأقطار الأخرىٰ ، قد رأينا فيهم ، ولا سيَّما في الشَّباب الجامعيِّ ، وطلبة كليات الطبِّ ، والهندسة من العاطفة الإسلاميَّة الجيَّاشة ، والغيرة الإيمانيَّة الملتهِبة ، ما قد لا نراه في الشَّباب الَّذين يتعلَّمون في المدارس ، ومراكز الثَّقافة الدِّينيَّة الخالصة ، قد رأينا في الشَّام : أنَّ الشَّباب الجامعيَّ ، ولا سيَّما الطَّالبات أصبحن يُعْلِنَّ ولاءهنَّ للإسلام ، ويصارحن بالوقوف بجانبه ، والانتماء إليه ، والانتصار له ، ويقدِّمْنَ في سبيله كلَّ نوعٍ من التَّضحية

فقد أصْرَرْنَ علىٰ أنَّهنَّ لا يحضرن إلىٰ الجامعات ، والكلِّيات إلا في الحجاب الشَّرعيِّ ، فإن قبلت الجامعات ، ودور التَّعليم ، والثَّقافة ذٰلك ؛ فبها ، وإلَّا ؛ فلا حاجة لنا في التَّعليم ، والثَّقافة .

وكذٰلك وضعية باكستان اليوم قد أحدثت ردَّ فعلٍ صالحٍ جديدٍ في الشَّباب ممَّا يدلُّ علىٰ أنَّ ٱلله يريد بالإسلام ، وأهله خيراً ، وأنَّ ٱلله هو الذي أراد هـٰذا التَّحوُّل ، وأنَّه يريد أن يمسك هـٰؤلاء الشَّباب بزمام الحكومة ، وأن يقودها إلىٰ مسارٍ صحيح ، وإلا فأنَّىٰ هـٰذا الحماس الإسلاميُّ ، وهـٰذه الحركة العجيبة ، والعاطفة الجديدة في الشَّباب الجامعيِّ الَّذي عرف بتحرُّره ، وانطلاقه ؟ !

العناية بتربية السِّيرة :

إخوتي ! وأريد أخيراً أن أضع أمامكم أموراً غربلتها تجاربي المحدودة : الأول : أن تعنوا بتربية السِّيرة عنايةً كاملة ؛ لأنَّها كالدَّم في الجسم الإسلاميِّ ، أو الإيمانيِّ للحياة ، وأوَّل ، وأهمُّ ما ينقص اليوم حركاتنا الدِّينيَّة هو هـٰذا العنصر الهامُّ ، ومن هنا يسقط الشَّباب في وسط الطَّريق ، وتنهار أعصابهم ، وتخور قواهم ، ولو تمَّت تربية السِّيرة ، والسُّلوك فيهم علىٰ أساس الكتاب ، والسُّنَّة ؛ لثبتوا إلىٰ آخر

الطريق ثبوت الجبال الرَّاسيات .

العناية بنفسه قبل غيره :

والأمر الثَّاني : أن تبذلوا عنايتكم علىٰ أنفسكم قبل غيركم ، فقد عمَّ في هـٰذا العصر : أنَّ المرء لا يهمُّه أمر نفسه كما يهمُّه أمر غيره ، وهـٰذه النَّفسيَّة المريضة قد خلقتها فلسفتنا الاجتماعيَّة ، والسِّياسيَّة المعاصرة ، فأصبحَ كلُّ إنسانٍ يقع نظره علىٰ عيوب غيره ، يحاسبها ، ويتتبَّعها ، ويعدِّدها ، ويعيب علىٰ كلِّ حزبٍ صنعه ، وينعىٰ علىٰ كلِّ طبقةٍ ما أنجزته ، ويأخذ علىٰ فلان : أنَّه قصر في أداء واجبه ، ولا يدعه ذٰلك كله أن يرجع إلىٰ نفسه ، فينهاها عن غيِّها ، ويحاسبها علىٰ نقائصها ، ومعايبها ، فيستخدم الوسائل لإزالتها .

حذار أن يكون نصيب السَّلب أكثر من الإيجاب :

والأمر الثالث الذي يجب أن يكون في الاعتبار : هو ألَّا يطغىٰ السَّلب علىٰ الإيجاب ، ولا بدَّ أن يكون هناك توازن فيما بين الأمرين ، فلا تعوِّدُنَّ أنفسكم علىٰ ألَّا تنظروا إلىٰ شيء إلا نظرة الانتقاد ، فلو ذكركم الجلوس إلىٰ أحدٍ بٱلله ، وزادكم إيماناً ويقيناً ، ورغَّبكم في الصَّلاة ، وكره إليكم الكفر ، والفسوق ، والعصيان ، فاغتنموا ذٰلك ، وقدِّروه حقَّ قدره ،

ولا تقولوا : إنَّه لا فائدة في الجلوس إليه ؛ لأنَّه لم يوفق لإقامة دولة إسلاميَّة ، أو لم يناد بتنفيذ النِّظام الإسلاميِّ من منبرٍ سياسيٍّ ؛ لأنَّكم إذا تعلَّمتم الصَّلاة ، والصِّيام ، ونجحتم في استيعاب الكيفيَّة ، والمعنويَّة الَّتي تضفي عليها الحياة ، والنُّور ؛ فكأنَّكم تعلَّمتم طريقة صياغة الحياة صياغةً إسلاميَّة ، وكان ذٰلك أساساً لكلِّ عملٍ إسلاميٍّ .

وسِّعوا دراستكم :

والأمر الرَّابع أن توسِّعوا دراستكم ، وتعمِّقوها ، ولا بدَّ لكم من الاطِّلاع المباشر علىٰ مصادر الإسلام الأصلية ، ولا بدَّ لكم من تعلُّم اللُّغة العربيَّة ؛ لأنَّها الوسيلة الوحيدة إلىٰ فهم الكتاب ، والسُّنَّة ، ثمَّ أحيطوا بالدِّراسة كلَّ نوعٍ من الكتابات ما دامت لا تدعو إلىٰ شذوذٍ ، وانحرافٍ ، ولا يصبح الاقتصار علىٰ نوعٍ واحدٍ من الكتابات الإسلاميَّة وعلىٰ طرازٍ واحدٍ من الكتب ؛ الَّتي تبحث في الإسلام ، ولا يصحُّ الظَّنُّ في شخصيةٍ ما بأنَّها النَّموذج الكامل ، فلا حاجة إلىٰ غيرها ؛ لأنَّ النَّموذج الكامل ، والأسوة الحسنة إنَّما هي شخصيَّة الرَّسول ، عليه الصَّلاة ، والسَّلام ، فإنْ كان هناك أحدٌ يرىٰ غير هٰذا الرَّأي ؛ فإنَّ ذٰلك لا يدلُّ إلَّا علىٰ السَّطحيَّة ، وعلىٰ قصر النَّظر ، وضيق التَّفكير ، وقلَّة الاطِّلاع ، وهٰذا ما لا يليق بشابٍّ مسلمٍ متفتِّح القلب ، واسع الأفق .

وقد كنت أنا شغوفاً بتنويع الدِّراسة ، وكان من رأيي دائماً ألَّا بأس من قراءة كلِّ نوعٍ من الكتب ، والمؤلَّفات ما لم يكن مشوباً بالمفاسد ، والسُّموم الَّتي تلحق الضَّرر بالعقيدة ، وبشرط أن يكون الدَّارس قد بلغ القدرة علىٰ التَّمييز بين الخير والشَّر ، والصَّالح ، والفاسد .

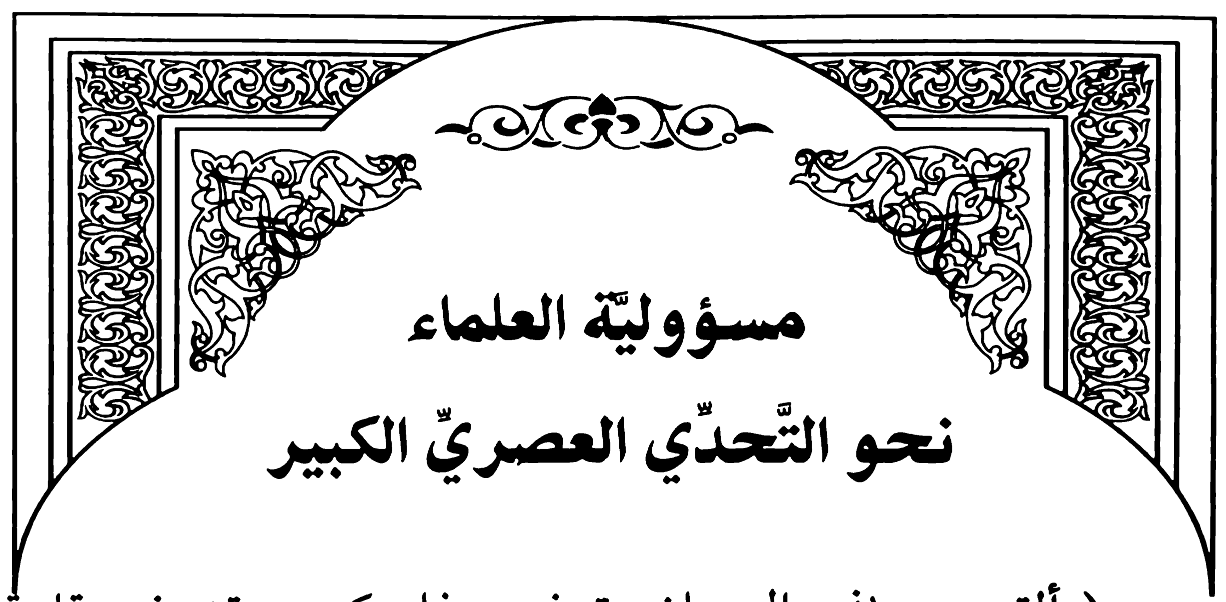
إنَّكم موضع حبِّي واحترامي :

يا شباب ! إنَّ حضوري في مجلسكم لدليلٌ علىٰ أنِّي أمنحكم حبِّي ، وتقديري ، وقد ذكَّرني الموقف بقول سيِّدنا عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ وقد اجتمع حوله جمعٌ من الصَّحابة ، فعرض عليهم عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ أن يسأل كلُّ واحدٍ منهم ربَّه ما يتمنَّاه ، فقال بعضهم : أريد أن يكون لديَّ كمِّيَّةً كذا من الفضة ، وأنفقها في سبيل ٱلله ! كما تمنىٰ بعضهم التَّوفيق للعبادة ، وكذٰلك كلٌّ دعا لما أحبَّه ، فلمَّا جاءت نوبة سيِّدنا عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ تمنَّىٰ أن لو غُصَّ بيتُه بأمثال خالد بن الوليد ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وفلان ، وفلان ، رضي ٱلله عنهم ، فيبعث كلَّ واحدٍ منهم إلىٰ جبهةٍ يناسبها ، وتكون كلمة ٱلله هي العليا في أرجاء المعمورة ، وكلمة الَّذين كفروا السُّفلىٰ ، وترفرف راية الإسلام علىٰ جميع البشريَّة علىٰ ظهر البسيطة . . . أيُّها الإخوة ! ولا يمكن أن

نضع أمثال هٰذه الآمال اليوم إلا في أمثالكم .

وأخيراً لا آخراً أحمد ٱلله العلي القدير علىٰ أنَّه سبحانه أتاح لنا فرصة الاجتماع بكم ، والتَّحدُّث إليكم ، وأبتهل إليه سبحانه أن يجعلكم في حرزه ، ورعايته ، فما نالكم مكروهٌ ، ولا أصابتكم عين ـ بأوسع معانيها ـ فقد تصيب الإنسان عينه ، فيبتلىٰ بإعجابٍ زائدٍ بالنَّفس ، والغرور ، وأرجوه تعالىٰ أن يوفقكم لأن تضعوا مواهبكم في موضعها اللاَّئق .

✍ ✍ ✍



مسؤوليَّة العلماء نحو التَّحدِّي العصريِّ الكبير

(ألقيت هـٰذه المحاضرة في حفلٍ كبيرٍ عقد في قاعة جـامعـة التَّعليمـات الإسـلاميَّـة بمـدينـة « فيصـل آبـاد » فـي ٢٣ / يوليو (١٩٧٨م) .

وقدَّم المحاضرَ فضيلةُ الشَّيخ عبد الرَّحيم أشرف مؤسِّس الجامعة ، ورئيسها ، وألقىٰ فضيلةُ الأستاذ عبد الغفار حسن أستاذ الجامعة الإسلاميَّة بالمدينة المنورة كلمة شكرٍ ، وختامٍ) .

بعد أن حمد الله وصلَّىٰ علىٰ رسوله قال :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة : ٢] .

أصحاب السَّعادة ، والفضيلة المسؤولون عن الجامعة ، وأساتذتها ، وطلاَّبها !

إنَّه تغمرني موجات فرحٍ حينما أتحدَّث إليكم ، ولا أشعر

بشيءٍ من الغربة ؛ ، لأنَّنا جميعاً متَّحدون في العقيدة ، متجانسون في اللُّغة ، ثمَّ إنَّنا ركَّاب سفينةٍ واحدةٍ ، ورفاق رحلةٍ واحدةٍ ، هي رحلة التَّعليم الدِّينيِّ ، والدَّعوة الإسلاميَّة ، والقيام بعرضها ، وشرحها ، ونشرها .

تحدِّي العصر الحديث :

أعتقد : أنَّ أكبر تحدٍّ للعصر الحديث هو المادِّيَّة ، والأنانيَّة ، والثَّروة ، وقد ظلَّت هـٰذه الفتنة تعمل عملها علىٰ امتداد العصور ، لـٰكنَّها اليوم برزت في الميدان قويَّةً مخطَّطةً مسلَّحةً بالدَّلائل المزوَّرة اللَّماعة ، والفلسفات الخاطئة البرَّاقة في صورة باهرةٍ ، لم تظهر فيها فيما مضىٰ من الزَّمان قَطُّ . . . نعم قد كان النَّاس فيما مضىٰ في عهد ازدهار المدنيَّة ، وأوج المادِّيَّة الرَّعناء يقعون فريسة فتنة المال ، والتَّرف ، وما يسمِّيه القرآن : « البطر » والخضوع لأصحاب الجاه ، والسُّلطان لـٰكنَّهم كانوا يشعرون ـ في قرارة نفوسهم ـ بخجلٍ ، وحياءٍ ، وبأنَّهم خاطئون فيما يصنعون ، وأنَّهم يشبعون شهوانيَّتهم ، ويرضون نهامتهم .

ألق نظرةً علىٰ التَّاريخ يدلُّكَ علىٰ أنَّ الأثرياء المترفين والجبابرة المتمرِّدين والمادِّيِّين اللاَّهين كانوا يخضعون أمام من يرونهم متسامين عن عبادة النَّفس ، والهوىٰ ، والسُّلطان

والمال ، بل كانوا يتأدَّبون مع كلٍّ من يرونهم فوق أنفسهم في كبر النَّفس ، والمروءة ، والعفاف ، وكانوا يحذرون أن يواجهوهم ، أو يشافهوهم ؛ لأنَّهم علىٰ علاَّتهم كانوا يحملون بين جنبهم « نفساً لوَّامةً » فكانوا بوخز الضمير علىٰ اقتراف المظالم ، والمنكرات ، ويرون : أنَّهم قد حادوا عن الصِّراط المستقيم ، وقد كان بعضهم ـ الَّذين كانوا علىٰ قمَّة المادية ـ يبكون علىٰ صنيعهم في خلواتهم ، وربَّما كانوا يعترفون بأخطائهم علناً ، وجهاراً بضغطٍ من الضَّمير الحيِّ الواعي ، وبأنَّهم وقعوا فريسة الهوىٰ ، والشَّهوانيَّة ، والأنانيَّة .

النُّقطة الَّتي يلتقي عليها المعسكر الغربيُّ ، والمعسكر الشَّرقيُّ :

ولٰكنَّ اليوم أصبحت المادِّيَّة تعتبر رقيَّاً ، وتقدُّماً ، وأناقةً ، وظرافةً ، ومدنيَّةً ، ولا اختلاف هناك بين المعسكرين الغربيِّ ، والشَّرقيِّ فيما يتَّصل بالمادِّيَّة ، وإن كان هناك اختلاف فإنَّه فيما يتعلَّق بتنظيمها ، وبتنسيقها ، وفي أنَّ أيَّ : فلسفةٍ ، أو أيَّ مدرسة فكرٍ ينبغي أن تكون متحكِّمةً فيها ، وفي توزيعها . إنَّ المعسكر الغربيَّ ـ أمريكا ومن نحا نحوها ـ يرىٰ : أنَّ مبدأ الحرِّيَّة الكاملة في التَّصرُّف في الملكية يطابق المنطق والصَّواب ، ويرىٰ المعسكر الشرقيُّ ـ والكتلة الشُّيوعيَّة ومن نهج نهجها ـ : أن ملكية فردٍ ، أو جماعةٍ ، أو عائلةٍ شيءٌ

لا يقبله العقل ، والمنطق ؛ لأنَّه يخالف العدل ، والمساواة ، فلا بدَّ من تعميم (Generalization) وسائل الحياة علىٰ أساس المساواة ، ولا بدَّ أن تكون الحكومة هي المشرفة عليها ، والمتحكِّمة فيها .

أمَّا أسلوب الحياة ، وكيف تستخدم الحياة ، وفيم تشغل ، وكيف ينبغي أن يكون تنسيقها ، وعلىٰ أيِّ أساسٍ يكون التَّطبيق بين الوسائل ، والغايات ، وكيف ينبغي أن يكون التَّمتُّع بنتائج الحياة ، والثَّمرات ، وما هي كعبة الحياة ، ومقصودها ، ومنتهاها ، وفيم يكمن سرُّ تقدُّم الإنسانيَّة ؛ فإنَّ ذٰلك كلَّه لا اختلاف في شأنه بين الفلسفتين : الغربيَّة ، والشَّرقيَّة ، والمعسكرين : الرَّأسماليِّ ، والشُّيوعيِّ ، كلاهما يعتقدان : أنَّ الغرض الأساسيَّ هو التَّمتُّع باللَّذة ، والعزُّ وحرية الإرادة ، والإباحيَّة ، والانطلاق ، والنزول عند إرادة النَّفس ، ونداء الهوىٰ ، واستجابة الشَّهوانيَّة ، وإشباع الضَّرورات المادِّيَّة ، وإيفاء حقوق النَّفس ، وإراحة هـٰذا الجسم الماديِّ المكوَّن من اللَّحم والدَّم بكلِّ حيلةٍ ، وعن كلِّ طريقٍ ، وعلىٰ كلِّ مستوىً ، ولا مبدأ ، ولا مصير ، ولا موت ، ولا بعث ، ولا مؤاخذة ، ولا حساب : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون : ٣٧] ، ولا فلسفة أعلىٰ من فلسفتنا المادِّيَّة ، سواء أكانت فلسفة الأخلاق ، أو العقائد ، أو

الرُّوحانية ، ولا حقيقة فوق هٰذه الحقائق الَّتي نعرفها ؛ لأنَّ زبدة الحقائق أنَّنا وُجدنا في هٰذا العالم ؛ لكي نلهو ، ونتمتَّع ، ونلتذَّ ، ونمرح ، ونسرح ، ونرتع ، ونستغلَّ هٰذه الوسائل ، والإمكانات المنبثَّة ، ونتقاسمها ، ونأخذ بأوفر حظٍّ من متعة الحياة ، ولنزيل كلَّ شيءٍ يحول بيننا وبين تحقيق أغراضنا .

إذاً فلا اختلاف في المبادئ ، والأهداف ، وإنَّما الاختلاف في تحديد العوائق ، والعقبات ، فقومٌ يرون : أنَّ الملكيَّة هي العقبة ، وقومٌ يرون : أنَّ العائق هو الأنانيَّة الأسريَّة ، وبعضهم يرىٰ : أنَّه هو الملكيَّة الفرديَّة ، وآخرون يعتقدون : أنَّ الرأسماليَّة هي حجر عثرةٍ في الطريق ، وأمَّةٌ تعتقد : أنَّ استئصال الرَّأسماليَّة هو الذي شكل المصيبة ، وأمَّةٌ ترىٰ : أنَّ التَّوزيع الخاطئ الغير العادل هو السَّبب الأصيل فيما نواجهه من أزماتٍ ، ومشكلاتٍ ، ومجموعةٌ بشريَّةٌ ترىٰ أنَّ الجَّهل ، والأمِّيَّة هو الدَّاء العُضال ، وبعضهم يرىٰ : أنَّ أصل الدَّاء هو فقدان المؤسَّسة الصَّالحة ، واليد الأمينة القويَّة الغلَّابة الَّتي توزِّع هٰذه الوسائل علىٰ المجموعات البشريَّة بكلِّ إنصافٍ ، ومساواةٍ .

ولا نعرف في أيِّ دورٍ من أدوار التَّاريخ الإنسانيِّ : أنَّه حظيت فيه المادِّيَّة بهٰذا التَّنسيق ، والتَّهذيب ، والصَّقل ،

وسمِّيت بهٰذه الأسماء البرَّاقة الباهرة السَّاحرة ، وعلِّقت عليها أمثال هٰذه اللاَّفتات الجميلة ، الأنيقة ، الخلاَّبة ، الزَّاهية ، واستُنفذت مثل هٰذه القوىٰ العقليَّة ، والفكريَّة ، واستُهلكت مواهب الأذكياء ، والعقلاء في مثل هٰذا السَّخاء ، والإسراف ، ولا نعرف : أنَّه استُخدمت في سبيل تعميمها ، وتحبيبها أمثال هٰذه الوسائل الجبَّارة ، لا نعرف لكلِّ ذٰلك سجلاًّ (Record) عبر التَّاريخ البشريِّ كلِّه .

التحدي الأكبر :

وعلىٰ ذٰلك فإنَّ التَّحدي الأكبر في هٰذا العصر ، هو تحدِّي المادِّيَّة ، والمادِّيَّة كجنس له أنواعٌ كثيرة ، منها : الرأسمالية (Capitalism) والاشتراكيَّة (Socialism) والشُّيوعيَّة (Commuunism) وما إليها من الفلسفات الاقتصاديَّة الكثيرة ، لٰكن النُّقطة الجامعة بينها جميعاً هي المادِّيَّة ، وعبادة النَّفس ، والهوىٰ .

الحقائق الَّتي تضرب علىٰ جذور المادِّيَّة :

حينما كان الإنسان قد استعبدته المعدة ، والمادَّة ، والأهواء ، ولم يكن يطأطئ رأسه إلا علىٰ عتبة المال ، والمرأة ، والعقار ؛ لأنَّ هٰذه كانت آلهته الحقيقيَّة ، وحينما كانت الكثرة الكاثرة من سكان هٰذا العالم تسجد للمخلوق دون

الخالق ؛ كان ٱلله يرسل الرُّسل ، والأنبياء ، فيعلمونهم مراشد الخير ، والهوىٰ ، ويأخذون بأيديهم من حضيض الكفر ، والشِّرك إلىٰ قمَّة التَّوحيد ، والإيمان ، ويخبرونهم بأنَّ وراء هٰذا العالم المشهود المعهود عالماً آخر أوسع ، وأجمل ، وآنق من هٰذا العالم بكثيرٍ ، وكثيرٍ ، ويقولون لهم : لو رأيتموه ؛ لفتنتم به ، وتحلَّبت عليه أفواهكم ، وتلمظت شفاهكم ، ولضاقت هٰذه الدُّنيا عليكم بما رحبت ، ولشقَّت عليكم الحياة كما شقَّت علىٰ السَّمك الَّذي أخرج من الماء ، ووضع علىٰ الأرض ، أو علىٰ الطَّير الذي وضع في قفصٍ ضيِّقٍ ، فيرفرف بجناحيه ، ولاشمأززتم من دنياكم هٰذه الَّتي تنفقون في سبيلها أعزَّ متاع عندكم ، وتضحُّون بكلِّ ما تملكون من معنويَّةٍ ، وعلمٍ ، وثقافةٍ . . . وذٰلك ما ندَّدت به الصُّحف السَّماويَّة مرَّةً بعد أخرىٰ ، وبأساليب كثيرةٍ ، وفي كلماتٍ متنوِّعةٍ : ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء : ٧٧] ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد : ٢٠] وقد أتىٰ التعبير في بعض المواضع بـ : ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَآ﴾ وعبر عنه لسان النُّبوَّة بـ : « لعاعة » دلالة علىٰ منتهىٰ التَّفاهة والضَّآلة .

وقد كشف هٰؤلاء الأنبياء والمرسلون اللِّثام عن حقيقة هٰذه الدُّنيا ، ودلُّوا النَّاس علىٰ أنَّها لا تعدل جناح بعوضة عند ٱلله ، وأنَّها كسراب خادعٍ ، وظلٍّ زائلٍ ، وكدويرة يبنيها

الصِّغار علىٰ الرِّمال ما لها من قرار ، ولو درستم التَّاريخ ؛ لصدَّقتم هـٰذه الحقيقة علىٰ بصيرةٍ وهدىً ، وعن تجربةٍ .

وُلِدوا للموت وبَنَوا للخراب :

زرنا في بغداد في رحلتنا سنة (١٩٧٣م) المتحف الكبير الَّذي يجمع بين آثار الحضارات ، والمدنيَّات البائدة فيما قبل التَّاريخ الَّتي ازدهرت في وادي الفرات ، وفي غيره ، تمثِّل عصر نمرود ، وغيره ، من الملوك والسَّلاطين المعاصرين له ، كما والسَّابقين عليه ، واللاَّحقين به ، والإمبراطوريات ، والحكومات الأخرىٰ الكثيرة ، كنا نشاهد هـٰذه الآثار ، وكأنَّنا في رحلةٍ تاريخيَّةٍ سريعةٍ يأتي دورٌ ، ويذهب دور ، وتمضي الأدوار كلُّها كفصولٍ مسرحيَّةٍ ، وواصلنا الرحلة منذ ما قبل التَّاريخ إلىٰ العهد العباسي ، فإلىٰ عهد السَّلاجقة ، فإلىٰ عهد التَّتار ، فإلىٰ عهد الأتراك ، فإلىٰ عهد الإنجليز ، فإلىٰ عهد فيصل بن الحسين . . . إلخ . . . وتأكدوا كأنِّي أتخمت من رؤية هـٰذه الفصول التي كانت تمثِّل تقلبات الزَّمان ، واختلاف اللَّيالي ، والأيَّام ، وكأنِّي أعاني الغثيان إذا أكلت شيئاً مريراً تعافه النَّفس ، فتعبت نفسي ، وكلَّ ذهني ، وأُثقل فكري ، وكأنِّي في دنيا الأحلام ، أو الأساطير ، والأوهام . إنَّ بعض هـٰذه الحكومات ، والإمبراطوريات قد تكون قد استغرقت مدَّة ألف ، أو خمسمئة سنةٍ ، أو أقلَّ ، أو أكثر في قطع مراحل

الانحطاط ، لٰكنِّي قد شعرت كأنَّ ذٰلك كلَّه قد تمَّ في ساعات ، ولٰكنَّ النَّاس مخدوعون ، فيحسبونها ألف سنةٍ ، أو خمسمئة . . . إلخ . . . وكأنِّي قائم علىٰ أنقاض الإنسانيَّة ، وأطلال الحضارات ، والمدنيَّات ، والحكومات ، والإمبراطوريَّات ، وكذٰلك يقوم عليها كلُّ الأجيال المتلاحقة : ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النساء : ٧٧] .

إنَّ الدُّنيا ليست موضع هيامٍ ، وغرام :

قد أراد ٱلله لهٰذه الدُّنيا البقاء ، والعمران فلم يُعَرِّ حقيقتها أمام عامَّة البشر كما جلَّاها للمصطفين الأخيار ، والمؤمنين المخلصين من عباده ، وإلَّا لأقفرت ، وأوحشت ، ولما أقبل أحدٌ علىٰ الإنتاج ، والابتكار ، وتشييد البنيان ، وإقامة المصانع ، ولتعطَّلت الحركة ، والنَّشاط ، وتوقَّفت الرِّحلة البشريَّة في مجالات الحياة ، وجلس كلٌّ في عقر داره عاطلاً ضائعاً ، يائساً ، متخاذلاً ، وربما لفظ أنفاسه الأخيرة .

ولٰكنَّ الأنبياء عليهم السلام ونائبيهم قد أعطوا كلَّ شيءٍ حقَّه علىٰ الرَّغم من علمهم بتفاهة الدُّنيا ، وضآلتها ، فأدُّوا مسؤوليتهم نحو هٰذا العالم ، وأهلَه ، ونحو أقربائهم ، وأهليهم ، وجيرانهم ، وذوي مودَّتهم ، ونحو الإنسانيَّة جمعاء ، وعاشوا مستجيبين لمتطلَّبات الحياة ، واضعين كلَّ

شيءٍ في موضعه اللاَّئق ، وواجهوا تحدِّي الحياة في صبرٍ ، وجلادةٍ ، وعاشوا عيشة طهرٍ ، وصفاءٍ ، وعفَّةٍ ، وحياءٍ ، لا يبالون بشوكة الملوك ، وأبَّهتهم ، يتحدَّثون إليهم كما يتحدَّث أحدنا إلىٰ المريض ، كانوا يرونهم مرضىٰ مصابين بداءٍ عضال ، فَيَرْثون لحالهم ، ويخافون عليهم مآلهم ، ويتوجَّعون عليهم كما يتوجَّع أحدنا علىٰ جارٍ له وقع الحريق في بيته ، فأتىٰ علىٰ كلٍّ ما لديه من الأخضر ، واليابس . ألم تروا كيف أجاب سيدنا ربعي بن عامر ـ رضي ٱلله عنه ـ « رستم » قائد الجيوش الإيرانيَّة حين استوضحه عن أغراض الغزو الَّذي لم يكن للفُرْس به عهدٌ ، فقال رستم : ما جاء بكم ؟ ! فقال : « ٱلله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلىٰ عبادة ٱلله وحدَه ، ومن ضيق الدُّنيا إلىٰ سعتها ، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام » (١) .

يا سادة ! قلت في محاضرتي بالدِّيوان الأميريِّ بـ : « أبو ظبي » (٢) : لو قال ربعيُّ بن عامر : « ومن ضيق

---

(١) البداية والنِّهاية لابن كثير ، (٧ / ٣٩) طبع بيروت (١٩٦٦م) .

(٢) المحاضرة التي ألقيتها بعنوان : « نظرة مؤمن واع إلىٰ المدنيَّات المعاصرة الزَّائفة » في ٣ / محرَّم الحرام (١٣٩٧هـ) ، (٢٣ / ١٢ / ١٩٧٦م) .

الدُّنيا إلىٰ سعة الآخرة » لم أستغرب ذٰلك ، لأنَّه آمن بأن الدُّنيا سجنُ المؤمن ، وجنَّة الكافر ، وآمن بالآخرة الَّتي لا آخر لها وبالجنَّة الَّتي لا حدَّ لها ، ولا نهاية ، وقد قرأ في الكتاب الَّذي قرأه ، وآمن به ، وعاش فيه : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] ، وعرف قول رسوله في غزوة بدرٍ : « قوموا إلىٰ جنَّةٍ عرضها السَّمٰوات والأرض »[١] وقوله بمناسبةٍ أخرىٰ : « موضع سوط أحدكم في الجنَّة خيرٌ من الدُّنيا وما فيها »[٢] .

ولٰكن موضع الاستغراب هو قوله : « من ضيق الدنيا إلىٰ سعتها » كيف ساغ لإنسان ربما قد وضع الحجر علىٰ بطنه ، وربَّما لم يملك قوت يومه ، وكانت ثيابه متخرِّقةً ، وأجفانه باليةً أن يقول لإنسانٍ وهو في غاية أبَّهته ، وفي زهوه ، وعلىٰ قمَّة مجده يعيش في رغدٍ من العيش ، ويتقلَّب في أعطاف النَّعيم ، قد اتَّسعت له الدُّنيا ، ولانت له الحياة : إنِّي جئت لأنقلك من زنزانة الدُّنيا إلىٰ فضاءٍ رحبٍ فسيحٍ ، أفهل كان العرب يعيشون في بحبوحةٍ من العيش ، أفما كانوا في شظفٍ

---

(١) رواه مسلم .

(٢) حديث متَّفق عليه ، رواه أبو هريرة ، رضي ٱلله عنه .

من العيش ، وفي جهدٍ ، وتقشُّفٍ ، وتخشُّنٍ في الحياة ، لا يملكون وسائل الحياة ، ولا يكادون يُشبعون بطونهم ولا بخبز الشَّعير ، يأوون إلىٰ أخبية من جلود الإبل ، وفي أكواخٍ من المدر ، فما الَّذي جعله يقول لرستم : أدرك نفسك فإنَّك في بؤسٍ ، وشقاءٍ ، وحرمانٍ ، وبلاءٍ ، أنت حبيس في قفصٍ ضيِّقٍ ، يا لسوء حظِّك ، وخسَّة نفسك ، وفتور همَّتك ، وقصر نظرك ، ترضىٰ بحبَّات شعيرٍ تطرح إليك . . إنِّي متأسِّفٌ علىٰ حالك ، أتيتُ أخلِّصك من هٰذا المأزق ، وأحرِّرك ؛ لكي تستطيع التَّحليق في هٰذا الفضاء الرَّحب المترامي .

يا سادة ! تلك هي النَّظرة الحقيقيَّة الَّتي كان ينظر بها الرَّعيل الأوَّل ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلىٰ هٰذه الدُّنيا ، وحطامها الفاني ، وعيشها الزَّائل ، فكان النَّاس يؤمُّونهم يعرضون عليهم الدَّاء ، ويستوصفونهم الدَّواء . . . وقد كان شيخ الإسلام ابن تيميَّة يقول : « إنَّ جنَّتي ، وبستاني في صدري ، إن رحت ؛ فهي معي ، لا تفارقني »(١) لأنَّه كان يتوكَّل علىٰ ٱلله ، ويلوذ به ، وبه يستعين ، وإليه يرجع ، ومنه يرجو ، فكان لا يخاف أحداً ، ولا يراه موضع النَّفع والضَّرر ، فكان يجدُ في الصَّلاة قرَّة عينه ، وفي الصِّيام لذَّة الطَّعام والشَّراب ، وفي الابتهال إلىٰ ٱلله ، والاطِّراح علىٰ عتبته حلاوة لا تعدلها حلاوةٌ .

---

(١) الوابل الصَّيِّب ، (ص : ٦٦) .

وأمثال هٰؤلاء النَّاس كانوا نماذج الإنسانيَّة المنشودة المقصودة ، استغلُّوا مواهبهم ، واستخدموها لما خلقت له ، حوَّلوا البلد ، أو الحيَّ الَّذي سكنوه إلىٰ جنَّةٍ ، ونعيمٍ ، غطَّوه سكينةً ، وعدلاً ، ومواساةً ، وبرّاً ، وعطفاً ، وخدمةً ، وعاشوا في الدُّنيا وزرعوا فيها مؤهِّلاتهم ، واستثمروها ، ولٰكنَّهم لم يجعلوها « عجلاً » يعبد ، أو إلٰهاً يسجد له ، وما هاموا بها هياماً ، بل ظلُّوا يقولون : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » لأنَّهم كانوا يدركون حقيقة هٰذا العالم المادِّيِّ ، ولٰكنَّهم رغم ذٰلك ، تقدَّموا في كلِّ مجالات الحياة ، وتحرَّكوا في كلِّ وادٍ ، فشادوا البنيان ، وبنوا المساجد ، وأقاموا المدارس والمعاهد ، وأسَّسوا المصانع ، والمعامل ، ونشروا الإسلام ، وزرعوا عقيدة التَّوحيد ، وفتحوا فتوحاتٍ واسعةٍ ، وأخضعوا الدُّول ، وثلُّوا العروش ، وزلزلوا الجنود ، والبنود ، ووضعوا علوماً ، وابتكروا فنوناً ، وأثروا المكتبات ، وصنَّفوا ، وألَّفوا ، وقادوا ، وسادوا ، وعلَّموا ، ودرسوا ، وأقاموا التَّاريخ علىٰ أساسٍ محكمٍ متينٍ لا يزول . . صنعوا كلَّ ذٰلك ، ولٰكنَّ الَّذي يضع الفرق الملموس بيننا وبينهم : أنَّهم لم يحسبوا الدُّنيا غايتهم الأخيرة ، بل كانوا يرونها مرحلةً بدائيَّةً .

أصبحت المادية اليوم راكباً بدل أن تكون مركباً :

كان هٰؤلاء المخلصون العظام يحطِّمون طلسم المادَّة ، ويكسرون سحرها ، ويزيِّفون لمعانها ؛ لأنَّهم قد تحرَّروا من ربقتها ، وتمرَّدوا عليها ، وأخضعوها ، ولم يخضعوا لها ، وركبوها ، ولم يكونوا مراكب لها ، والخطُّ الفاصل بيننا ، وبينهم : أنَّنا أصبحنا اليوم مراكب للمادِّيَّة ، بدل أن نكون راكبين عليها ، أو نحن راكبون سكارىٰ قد انفلت الزِّمام من أيدينا ، وانزلقت أرجلنا عن الرِّكاب ، فتهرع بنا المادية الجامحة إلىٰ حيث تشاء ، ولا نملك حولاً ، ولا طولاً ، ولا نكاد ندري كيف نكبحها ، أو نتخلَّص منها ، حتَّىٰ لا تهوي بنا في هوَّة الهلاك ، أو في نهرٍ فياض ، أو بحرٍ متلاطمٍ ، فيكون آخر أمرنا .

تلك هي قصَّة مدنيَّتنا بجميع أجزائها ، وأبعادها ، قد تمرَّدت علينا ، وجمحت لدينا ، واستعصىٰ علينا تطويعها ، وإخضاعها ، وكبح جماحها ، وإنَّما تحدَّاها أولـٰئك الأبرار الأخيار الَّذين وفقهم ٱلله أن يثوروا عليها ، ويتمرَّدوا علىٰ مفاتنها ، وبهارجها ؛ الَّتي تبهر العيون ، وتأخذ بالقلوب ، وتتصيَّد العقول ، فكانوا يشعرون كأنهم في جنَّة ، ونعيم ، وقد قال بعضهم ماذا يصنع الناس بي ، إنَّ وسائل التنعُّم في

صدري ، فمن الَّذي يستطيع أن ينتزعها ؟ ! وقال بعضهم : وٱللهِ لو أنَّ أهل الدُّنيا علموا مدىٰ ما نحن فيه من لذَّةٍ رغيدةٍ ، ونعمةٍ وفيرةٍ ؛ لغزَوْنا عليها ، ولجالدونا بالسُّيوف ، ولحاولوا أن ينتزعوا منا هـٰذا العيش اللَّذيذ ، زعماً منهم : أنَّ في المكان الَّذي نحن فيه كنزاً دفيناً ، أو منبعاً مكتوماً للرزق ، أو مصدراً مخبوءاً للفرح والسُّرور ، والطُّمأنينة ، ومن هنا يجلس في هـٰذا المكان ، هادئاً ، راضياً ، ساكناً ، آمناً ، مرحاً ، فرحاً ، جذلان ، نشوان ، فلننزله من مكانه ، ولننفه إلىٰ الغابة ، ولنحفرْ حفرتنا لآبار البترول ، ولنكتشف الثروة المخبوءة فيه اكتشافنا لِلنَّفط ، والزَّيت .

روح القناعة :

أيُّها السَّادة ! إنَّما كان يحارب المادِّية أولـٰئك الَّذين كانوا يتمتَّعون برصيد القناعة ، ولا يرضون لأنفسهم أيَّ مساومةٍ ، وتقويمٍ ، ولم يكن هنا أحدٌ يستطيع أن يصيدهم ، وكانوا يقولون بملء أفواههم : « نرىٰ العنقاء أكبر مِنْ أن تصادا » ، ويقولون لهـٰذه الدنيا الخدَّاعة الغرَّارة : « يا دنيا أبي تعرَّضت ، أم لي تشوَّفت هيهات ! هيهات ! غرِّي غيري ! قد بتتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك » [1] ويقولون للمساومين : جرِّبوا غيرنا ، أمَّا

---

(١) من قول عليٍّ ـ رضي ٱلله عنه ـ كما يروي عنه ضرار بن ضمرة . =

نحن ؛ فلا نرضىٰ بأيِّ ثمنٍ مهما كان غالياً ، وعالياً ، ولا ننهار أمام أيِّ منصبٍ ، أو جاهٍ مهما كان مشرِّفاً ، ومحسوداً ، ومرموقاً ، لا لن نبيع كرامتنا ، لا لن نلوِّث عفَّتنا ، ومروءتنا ، ولن نكدِّر صفو حياتنا ، فلا تُتْعبوا نفوسكم دون جدوىٰ ، ولا تُنْضوا ركابكم دون فائدة . .

هـٰذا الشَّيخ الكبير الميرزا مظهر جان جانان الشَّهيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد عرض عليه ملك دهلي أن يقبل منه هديةً كبيرةً من المال ، فقال الشيخ : إن ٱلله تعالىٰ يقول : ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء : ٧٧] . . . أما آسيا فواحدة من قارات العالم ، والهند واحد من بلدانها ، وأنت تحكم جزءاً صغيراً من هـٰذا البلد ، فلا أريد أن أرزأكم فيه ، وأشاطركم إيَّاه .

وكان هناك شيخٌ في « برهان بور » بالهند ، فبدأ الإمبراطور المغولي أورنك زيب عالمكير رَحِمَهُ ٱللَّهُ يزروه ، ويختلف إليه ، فقال الشَّيخ : قد كنت اخترت هـٰذا المكان المتواضع لنفسي ، فإن كان قد وقع من الملك موقعاً حسناً ، وأصبح يغارنا عليه ؛ فليرض به ، وليدعنا نغادره إلىٰ مكانٍ آخر .

= اقرأ : « صفة الصفوة » لابن الجوزي .

من المؤسف جدّاً : أنَّ أحوال هٰؤلاء الصَّالحين السَّاهرين في عبادة ٱلله قد قيِّدت بصور لا تعكس حياتهم عكساً صحيحاً ، فلا نستوحي منها روح اتِّباع الشَّريعة ، والحرص علىٰ التَّمسُّك بالسُّنَّة ، وإحياء الليالي ، وشغفهم بالكتاب والسُّنَّة ، وعيشهم في تلاوة القرآن ، وتفانيهم في حبِّ ٱلله ، وأخذهم بروح الشَّريعة ، وعضِّهم بالنَّواجذ علىٰ لبِّ الإسلام ، وزبدته ، وأصبحنا لا نستشفُّ من أحوالهم كما يقول مؤلف « تاريخ كجرات » العلَّامة الشَّريف السَّيد / عبد الحيِّ الحسني رَحِمَهُ ٱللَّهُ »[1] : من قرأ كتب التَّراجم ، وسير العلماء الرَّبَّانيِّين المربِّين المؤلَّفة علىٰ الأسلوب التقليديِّ القديم ؛ عرف : أنَّهم لم يكن لهم همٌّ ولا لذَّةٌ إلَّا في خرق القوانين الطَّبيعيَّة ، والتَّمرُّد علىٰ السُّنن الإلٰهيَّة ، وما كان يهمهم إلا التَّصرف في الأكوان ، والتَّحكم في العناصر الأربعة ، والمواليد الثَّلاثة ، فنراهم يحيون الأموات ، ويميتون

---

(١) هو والد كاتب هٰذه السُّطور ، والأمين العام لندوة العلماء الأسبق ، ومؤرِّخ الهند الكبير ، ومؤلف كتاب « نزهة الخواطر » في تراجم أعيان الهند في ثمانية مجلدات ، وكتاب « الهند في العهد الإسلامي » و« الثقافة الإسلامية في الهند » توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (١٣٤١هـ) .

الأحياء ، وينتزعون السَّفينة الَّتي غرقت في قعر الماء بإشارةٍ من طرفهم ، أو بتلميحٍ من أصابعهم لا شغل لهم غير ذٰلك » .

وٱلله إنَّ ذٰلك صورةٌ مشوَّهةٌ ، وتصويرٌ خاطىءٌ لحياتهم ، إنَّهم في الواقع كانوا من ذوي التَّعمُّق في الكتاب ، والسُّنَّة ، والتَّشرُّب لروح الشَّريعة ، ولئن كان هناك نماذج شاردة تدلُّ علىٰ خلاف ما نقول ؛ فلا يستدلُّ بها علىٰ القوم جميعاً ؛ لأنَّه من الإجحاف ، وسوء الإنصاف .

إخوتي الكرام ! تُلِيَتْ عليكم الآية الكريمة : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] الآية تذكر تلك الأركان الأربعة الَّتي بُعِثَ الرَّسول الأعظم محمدٌ ﷺ لتحقيقها ، وتكميلها ، وقد توارثها القائمون بمهمَّة النُّبوَّة بعده ﷺ . . . فالأول هو تلاوة الكتاب (القرآن الكريم) وتشاهدون مظاهرها في كلِّ حفلة ، ولدىٰ كلِّ مناسبة ، وعند كلِّ صلاة ، وفي كلِّ بيتٍ ومدرسةٍ ، ومعهدٍ للتَّعليم ، والتَّربية ، وقد أقيمت لتحفيظ القرآن ، ولتعليم تجويده ، وترتيله ، وقراءته مدارس لا تعدُّ ، ولا تحصىٰ ، وستبقىٰ هـٰذه السِّلسلة المباركة الطَّيِّبة إلىٰ يوم القيامة ؛ إن شاء ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ، والثَّاني : هو

تعليم الكتاب ، والثَّالث هو تعليم الحكمة ، والرَّابع هو تزكية النُّفوس .

المراد من « الحكمة » :

والمراد من « الحكمة » الأخلاق الفاضلة ، والآداب الإسلاميَّة ؛ لأنَّ القرآن قد أطلق لفظ « الحكمة » علىٰ هـٰذه الأخلاق ، والآداب في مواضع شتَّىٰ ، ذكر في سورة « الإسراء » ، التعاليم الخلقية الأساسية في موضع واحدٍ ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] إلىٰ قوله ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ تلك هي خمس عشرة آيةً ، فيها النَّهي عن الشرك ، والأمر بالإحسان إلىٰ الوالدين ، وخفض الجناح لهما ، وإيتاء ذي القربىٰ ، والمسكين ، وابن السبيل ، والنَّهي عن التَّبذير ، والأمر بالتَّلطُّف لهم بالقول ، والنَّهي عن الإفراط والتَّفريط ، والنَّهي عن قتل الأولاد ، وعن الزِّنىٰ ، وعن قتل النَّفس إلا بحقِّها ، وعن الإسراف في القصاص ، والنَّهي عن أكل مال اليتيم إلا بالحقِّ ، والأمر بالإيفاء بالعهد ، وإيفاء الكيل ، والميزان ، والنَّهي عن التَّبختر ، والمرح الزَّائد ، وبعد ما انتهىٰ من ذكر هـٰذه التعاليم الخلقية الَّتي تلتقي عليها الأديان ، والأمم ، والفطر المستقيمة ، والعقول السَّليمة من

أوَّل العصر إلىٰ آخره ، ختمها بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الإسراء : ٣٩] .

وكذٰلك شأن القرآن في سورة لقمان ، فلو قرأت قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ ، وقرأت افتتاحية هٰذه الآيات ، وهي قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان : ١٢] ، علمت : أنَّ كلَّ ما صدر عن لقمان من التعاليم الخُلقية ، والوصايا الحكيمة إنَّما نبعت عن هٰذه الحكمة الَّتي أكرم ٱلله بها لقمان . وكذٰلك لو قرأت قوله سبحانه في سورة البقرة : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٦١] إلىٰ قوله ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] إلىٰ قوله : ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] ، علمت : أنَّ الحكمة في المصطلح القرآنيِّ الإلٰهيِّ لها صلةٌ عميقةٌ وثيقةٌ بالأخلاق (١) .

---

(١) قد انتهينا لهٰذه النكتة بحديث لأستاذنا العلامة المحقِّق السيد =

لا يتمُّ تعليم الكتاب والحكمة بدون « التَّزكية » :

والتَّزكية هي تهـٰذيب النفس ، وتحليتها بالفضائل ، وتخليتها من الرَّذائل تخليتها من الحسد ، والبغض ، وحبِّ الدُّنيا ، وحبِّ الجاه ، والإخلاد إلىٰ الأرض ، وكراهية المـوت ، والحـرص ، والجشـع ، وتحليتهـا بحـبِّ ٱلله ، والإقبال علىٰ الآخرة ، والرَّغبة في الجنَّة ، وإيثار الآخرة علىٰ العاجلة ، والطَّمع في رضا ٱلله ، وثوابه ، ومن وظيفة كلِّ مدرسةٍ إسلاميَّةٍ ، أو جامعةٍ إسلاميَّةٍ ، ومركزٍ إسلاميٍّ للتَّعليم ، والثَّقافة ، أن تخرِّج رجالاً يقومون عن جدارة ، ومقدرةٍ بالتِّلاوة ، وبتعليم الكتاب ، والحكمة وبالتَّزكية ، : الأركان الأربعة ، والمقاصد الأولىٰ الَّتي كانت لها البعثة ، ويخلفون الأنبياء في مهمَّة الدَّعوة ، ولا يتمُّ تعليم الكتاب ، والحكمة ، والتِّلاوة ما لم يكن مقروناً بالتَّزكية ، والإحسان ، أعني : أنَّ العلماء لا يستطيعون أن يؤدُّوا دورهم المطلوب ؛ حتَّىٰ يتخلَّصوا من عبادة النَّفس ، والهوىٰ ، والخضوع لدواعي النَّفس الأمَّارة بالسُّوء ، وعادوا لا يحيد بهم أكبر كمِّيَّةٍ من الثَّراء ، وأيُّ نوعٍ من العزِّ ، والشَّرف ، وأيُّ جاهٍ محسودٍ ،

= سليمان الندوي رَحِمَهُ ٱللهُ ، كان يتكلَّم فيه عن معنىٰ الحكمة في القرآن .

ومنصبٍ مرموقٍ عن مبادئهم ، وأغراضهم ، ودعوتهم ، ومهمَّتهم ، وعن أسلوب حياتهم الإسلاميِّ ، وعن مستواهم السَّامي .

يا سادة ! إنَّ العرب ، والعجم لا ينقصهم اليوم شيءٌ إلاَّ حياة قناعةٍ ، وزهدٍ . إنَّ الإنسان لا يخضع إلاَّ حيث يجد ما لا يوجد عنده ، تلك هي القاعدة التي لا تختلف في الشَّرق ، والغرب ، إنَّنا لن نعجب إلاَّ بمن نراه أفضل منَّا بأيِّ وجهٍ من الوجوه ، أمَّا إذا كان أحدٌ يستوي معنا ، ويوجد عندنا كلُّ ما يوجد عنده من علمٍ ، أو شرفٍ ، أو ثراءٍ ، ورخاءٍ وما إلىٰ ذٰلك ، ولو بفرقٍ يسير ، وباختلافٍ في الكمِّيَّة ، فلن تأخذنا منه روعةٌ ، ولن ينال منا الإعجاب ، والتَّقدير ، فالَّذين أخذوا بالمادِّيَّة « وأشربوا في قلوبهم العجل » وأصبحوا لا يجدون للمادَّة بديلاً ، ولا يرون عنها محيصاً ، حين يقصدون العلماء ، ورجال الدِّين ، ويجدونهم مثلهم في الإقبال علىٰ الدُّنيا ، والطَّمع في حطامها ، ويدرسون حياتهم في بيوتهم ، وأسلوب عيشتهم ، ومستوىٰ معيشتهم ، يصدرون عنهم يحملون سوء الظَّنِّ بهم ، ولا يتأثرون بهم في قليلٍ ، أو كثيرٍ ، إنَّنا نحتاج اليوم إلىٰ علماء الدِّين الَّذين يحسنون عملية تلاوة الكتاب ، وتعليم الكتاب ، والحكمة ، والتَّزكية ، وينوبون عن الأنبياء الكرام عليهم السلام في مقاصد

البعثة ، والنُّبوَّة عن جدارةٍ ، واستحقاقٍ ، « إنَّ الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ، ولا درهماً ، لـٰكن ورَّثوا هـٰذا العلم »[١] .

إنَّ أكبر التَّحدِّي اليوم هو المادِّيَّة ، ولا يمكن مقاومتها إلا بسلاح التَّمرُّد عليها ، والزُّهد في زخارف الدُّنيا ، والتَّسامي عن سَفْسَافِ الأمور بأوسع المعاني ، وأعمقها ، وأشملها ، وتأكيد هـٰذه الحقيقة بالقول ، والعمل ، وأسلوب الحياة .

إنَّنا لا ندعو بذٰلك إلىٰ الامتناع عن الطَّيِّبات ، وتحريم الانتفاع بوسائل الحياة : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ [التحريم : ١] . . . نعم لِنَتَمَتَّعْ بالمباحات ، ولنتمتَّع بالطيِّبات ، ولنستغلَّ وسائل الحياة ، وإذا كنَّا نستطيع أن نأكل اللَّذيذ من الطَّعام ، ونتناول المريء من الشَّراب ، ونلبس الوضيء من اللِّباس ، ونسكن الهنيء من البيت ؛ فلا بأس بذٰلك ، ولا حاجة إلىٰ أن نتكلَّف في الزُّهد فيه ، كما روي عن بعض غلاة المتصوِّفين : إنَّه كان يلقي الماء في الإدام المطبوخ المهيَّأ للأكل حتَّىٰ يفقد طعمه ، وبعضهم كان يضع الملح أكثر من القدر المطلوب حتَّىٰ لا يعود الطَّعام سائغاً هنيئاً ، فمثل هـٰذه « التَّزكية » ليس من الإسلام في شيء ، وسمَّاه بعض

---

(١) حديث متفق عليه واللفظ للبخاري .

السَّلف بـ : « الزُّهد العجمي » بل المهمُّ أن نتجرَّد عن الجشع ، والتَّهالك علىٰ الدُّنيا ، وعن أن يكون شعارنا بصدد المادَّة : « هل من مزيد ؟ » فلا تشبعنا أيُّ كمِّيَّةٍ مِنَ المال ، ولا أيُّ قدرٍ من الثَّراء ، والرَّخاء ، ويجب أن يكون علماء الدِّين علىٰ جانبٍ من الزُّهد في هٰذه السَّفاسف .

الحاجة إلىٰ رجالٍ متمرِّدين علىٰ المادِّيَّة متسامين علىٰ الأغراض :

أيُّها السَّادة : إنَّ العنصر الهامَّ الأقوىٰ من الوسائل الَّتي نحتاج إليها من أجل إنقاذ المجتمع الإسلاميِّ ـ والَّتي تحدَّثت عنها في كلِّ مناسبةٍ ، وفي كلِّ نادٍ ، ووادٍ عبر باكستان من « كراتشي » إلىٰ « إسلام آباد » ومنها إلىٰ « فيصل آباد » وفي المدن العربيَّة من قبل ـ هو حياة القناعة ، والزُّهد ، والإباء ، والشَّمم الَّتي يجب أن يعيشها علماؤنا ، إنَّه لزامٌ علىٰ العلماء أن تكون حياتهم مثاليَّةً تشفُّ عن أنَّهم من طرازٍ آخر فريدٍ ، ومن طبقةٍ خاصَّةٍ ذات مميِّزاتٍ ، وتدلُّ دلالةً صارخة علىٰ أنَّهم ورثة الأنبياء ، والنَّائبون عنهم ، فيتَّبعون هديهم ، ويسيرون سيرتهم ، ويحذون حذوهم ، وليسوا صرعىٰ المادِّيَّة ، وقتلىٰ القطيفة ، والخميصة ، وعبيد الدِّينار ، والدِّرهم ، يشعر جليسهم بتفاهة الدُّنيا ، وضآلتها ، وأنَّ المال ، والثَّروة ليس كلُّ شيءٍ في حياة الإنسان ، وأن يثبتوا بأسلوب حياتهم ،

وبإبائهم ، وكبر نفسهم ، وتساميهم عن الأغراض : أنَّهم هم الطَّلبة ، وليسوا طالبين ، فليتردَّد إليهم من شاء ألف مرَّة ، ولٰكنَّهم لا يتردَّدون لشيءٍ إلىٰ أحدٍ إلاَّ من أجل تبليغ الدَّعوة ، والأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، أو من أجل تحقيق واجبٍ دينيٍّ ، وإحياء سنَّةٍ ، لا من أجل تحقيق غرضٍ شخصيٍّ ، أو لشفاعةٍ ، ووساطةٍ .

ليس هناك شيءٌ يملأ هٰذا الفراغ :

إنَّها حاجة باكستان الأكيدة وكلِّ بلدٍ إسلاميٍّ ، وليس هناك شيءٌ يملأ هٰذا الفراغ لا يملؤه التَّصنيف ، والتَّأليف ، ولا الخطابة والكتابة ، ولا البحث والسِّياسة ، ولا الكلام السَّاحر الأخَّاذ ، إنَّه يجب أن يكون هناك رجالٌ يؤمُّهم رجال السِّياسة ، والسُّلطة ، والقُوَّة راغمين مضطرين مدفوعين ، ويجدون عندهم دواءً لدائهم ، وشفاءً من سقمهم ، ويشعرون بتفاهتهم مقابل عباد ٱلله .

وقد قلت في مناسبةٍ أخرىٰ : إنَّه إذا كنتم لا ترون حاجة إلىٰ « التَّزكية » و« الإحسان » فلا بدَّ إذاً من شيءٍ آخر يقوم مقامهما ، ويؤدِّي دورهما ، ويشعر النَّاس بأنَّهم مصابون في معنويَّاتهم ، ومنقوصون في أخلاقهم ، وسافلون في سلوكهم ، وعاداتهم ، ويشعرون بعد الجلوس إلىٰ صاحبه بقوَّة

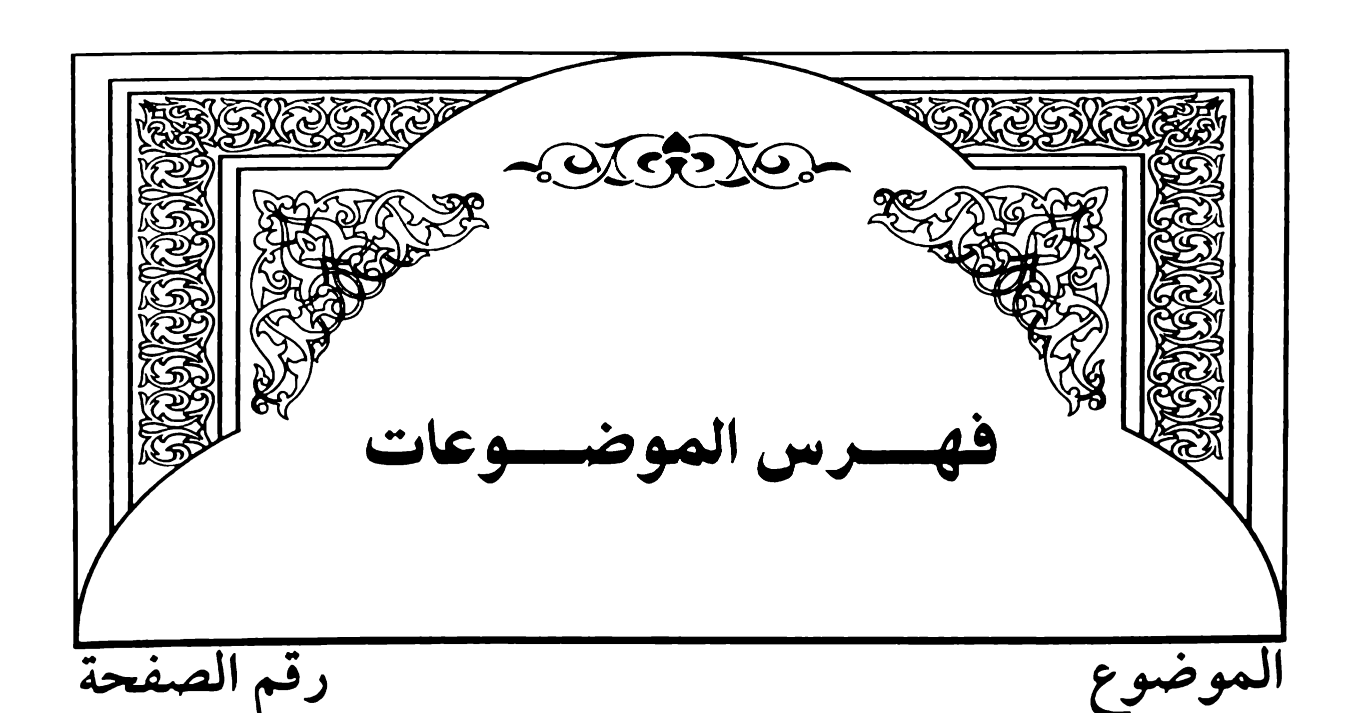
جديدةٍ ، وبروحٍ جديدةٍ ، وتلوت بهٰذه المناسبة بيت الحُطيئة :

أقلّوا عليهم لا أبا لأبيكم
من اللَّوم أو سدُّوا المكان الَّذي سدُّوا

أيُّها الإخوة ! إذا كنتم تلغون مستشفىً ؛ فلا بدَّ إذاً من مستشفىً آخر يقوم مقامه ؛ لأنَّ المستشفىٰ لا ينوب عنه إلا مستشفىً ، والطَّبيب لا يسدُّ مكانه إلا طبيبٌ ، فإذا ما أغلقتم مستشفىً ، وفتحتم مكانه حمَّاماً مثلاً ، أو مكتبةً ، أو مدرسةً ؛ فإنَّها ـ علىٰ الاعتراف بقيمتها ـ لا تغني غناءه ، ولا تفعل فعله .

إنَّ تحدِّي العصر الحاضر هو المادِّيَّة ، وردُّها الصَّحيح المشروع المعقول هو تزكية النَّفس ، الغير المشبوبة بشيءٍ لا يوجد نظيره في الكتاب ، والسُّنَّة ، وفيما تعالم به المسلمون في عهد النُّبوَّة ـ علىٰ صاحبها الصَّلاة والسَّلام ـ وعهد الصَّحابة ، فليكن الحاملون للوائها راسخين في العلم ، وراسخين في الدِّين معاً ، فاهمين لروح الشَّريعة ، لحقيقة الإسلام . . . اللَّهمَّ وفِّقنا لما تحبُّ وترضىٰ . . . وآخر دعوانا : أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين !

✍ ✍ ✍



فهـــرس الموضـــوعات

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

✍ ✍ ✍